http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج

المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلى

الموضوع : فقهى و تحليلى

القرن : الخامس عشر

الناشر : دار الفكر المعاصر

مكان الطبع : بيروت دمشق

سنة الطبع : ١٤١٨ ق

تنبيه [الترقيم داخل الصفحات موافق للمطبوع]

و مفاد هذه الآيات : أن الشفاعة تحتاج إلى إذن اللّه تعالى ، ولا شفاعة إلا لمن ارتضى اللّه ، وأن تكون أسباب الشفاعة حقا وصوابا مقبولا ، لهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند اللّه تعالى حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم حينما يأتي ربهم لفصل القضاء ، أنه قال : « فأسجد للّه تعالى ، فيدعني ما شاء اللّه أن يدعني ، ويفتح علي بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » .

وفي هذا الموقف الرهيب يتجلى مقام رفيع من العظمة الإلهية ، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي ، فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي ، كما قال ابن مسعود رضي اللّه عنه ومسروق وغيرهما.

وهنا ذكر اللّه تعالى ما يحدث بعد انتظار الإذن بالشفاعة ، فقال :

حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا : ما ذا قالَ رَبُّكُمْ ؟ قالُوا : الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أي إن الناس والملائكة يقفون فزعين خائفين منتظرين الإذن بالشفاعة ، حتى إذا أذن للشافعين ، وأزيل الخوف والفزع عنهم ، قال بعضهم لبعض : ما ذا قال ربكم في الشفاعة ؟ قالوا للذي قال : قال ربنا القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ، واللّه هو المتفرد بالعلو والكبرياء والعظمة ،

ج ٢٢ ، ص : ١٧٦

لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه ، وليس لملك ولا لنبي أن يتكلم في ذلك اليوم إلا بإذنه تعالى.

وكلمة حَتَّى وقعت غاية لشيء مفهوم ضمنا وهو أن ثم انتظارا للإذن وتوقعا وتمهلا من الراجين للشفعاء

، والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن ؟

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه مناقشة معلن عنها مسبقا في القرآن الكريم ، تحدث على سبيل التهكم والتوبيخ والتعجب بين الإله الخالق وبين المشركين.

(١٨٥/٢٢)

يأمر اللّه فيها نبيه أن يقول لهؤلاء المشركين : هل عند شركائكم قدرة على شيء من النفع يحققونه لكم ؟ ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون اللّه لتنفعكم ، أو لتدفع عنكم ما قضاه اللّه تبارك وتعالى عليكم ، فإنهم لا يملكون ذلك.

إنهم لا يملكون شيئا أصلا ولو وزن ذرة في السموات والأرض ، وليس للأصنام في السموات والأرض مشاركة ، لا بالخلق ولا بالملك ، ولا بالتصرف ، وليس للّه من معين يعينه على شيء من أمر السموات والأرض ومن فيهما ، بل اللّه المنفرد بالإيجاد والتدبير ، فهو الذي يعبد ، وعبادة غيره محال.

ولا تنفع شفاعة الملائكة وغيرهم عند اللّه إلا لمن أذن له ، حتى إذا وقفوا- أي الراجون للشفاعة والشفعاء- جميعا خائفين وجلين منتظرين الإذن بالشفاعة ، ثم أزيل الفزع عن قلوبهم ، تساءل الناس فيما بينهم وقالوا للملائكة :

ما ذا أمر اللّه بالشفاعة ؟ فيجيبون : إنه أذن في الشفاعة للمؤمنين لا للكافرين ، واللّه هو المتعالي المتكبر العظيم ، فله أن يحكم في عباده بما يريد.

وهكذا يتبين أن اللّه تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة ، وهم على غاية الفزع من اللّه ، كما قال : وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ولن يكون الإذن

ج ٢٢ ، ص : ١٧٧

بالشفاعة لتلك الآلهة المزعومة من الأصنام وغيرها ، كما لن تكون الشفاعة إلا لمن رضي اللّه من المؤمنين ، لا الكافرين. وهذا بيان جلي يقطع الأطماع في الشفاعة الموهومة ، ويبدد الآمال في النجاة من غير أمر اللّه ورضوانه.

وقوله : حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ دليل على : كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن ، تباشروا بذلك ، وسأل بعضهم بعضا. والمأذون لهم في الشفاعة : الملائكة وغيرهم ، في رأي جمهور المفسرين منهم الزمخشري وأبو حيان.

(١٨٦/٢٢)

و قال الشوكاني في فتح القدير : هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب ،
أخرج البخاري وأبو داود ، من حديث أبي هريرة ، أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إذا قضى اللّه الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، ينفذهم ذلك ، فإذا فزع عن قلوبهم ، قالوا : ما ذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحقّ ، وهو العلي الكبير » .
إقرار المشركين بأن اللّه هو الرازق وإعلامهم بالحاكم ووقت الحكم [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٢٤ الى ٣٠]
قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨)
وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)
ج ٢٢ ، ص : ١٧٨
الإعراب :
وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً إِيَّاكُمْ ضمير منفصل منصوب معطوف على اسم « إن » ولَعَلى هُدىً إما خبر لقوله : وَإِنَّا وخبر إِيَّاكُمْ محذوف لدلالة الأول عليه ، أو أن يكون خبرا للثاني ، وخبر الأول محذوف لدلالة الثاني عليه. وهذا كقولهم : زيد وعمرو قائم ، إما أن يجعل قائم خبرا للأول ، ويقدر للثاني خبر ، وإما أن يجعل خبرا للثاني ، ويقدر للأول خبر.

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً .. كَافَّةً منصوب على الحال من كاف أَرْسَلْناكَ ولا يجوز جعلها حالا من الناس على المختار. وأصله « كاففة » اجتمع حرفان متحركان من جنس واحد ، فسكن الأول وأدغم في الثاني ، فصار كَافَّةً وتقديره : وما أرسلناك إلا كافّا للناس. ودخلت التاء للمبالغة ، كعلّامة ونسّابة.
لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ .. مبتدأ مرفوع ، ولَكُمْ خبره ، والهاء في عَنْهُ عائدة على الميعاد.
البلاغة :
قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ توبيخ وتبكيت.
قُلِ : اللَّهُ حذف الخبر ، لدلالة السياق عليه ، أي قل اللّه الخالق الرازق للعباد.
تَسْتَأْخِرُونَ وتَسْتَقْدِمُونَ بينهما طباق.

وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ صيغة مبالغة على وزن فعّال وفعيل.

المفردات اللغوية :

قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يريد به تقرير قول السابق : لا يملكون ، والرزق من السموات : المطر ، ومن الأرض : النبات. قُلِ : اللَّهُ أي لا جواب سواه ، وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا أو تلعثموا في الجواب مخافة الإلزام ، فهم مقرّون به بقلوبهم. وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ أي أحد الفريقين. لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي إما في حال هدى أو في ضلال

ج ٢٢ ، ص : ١٧٩

واضح. وهذا بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال على من هو على الهدى ، ومن هو في الضلال.

وهذا الإبهام أبلغ من التصريح لأنه في صورة الإنصاف المسكت للخصم ، وهو تلطف بهم في الدعوة إلى الإيمان إذا وفقوا له.

أَجْرَمْنا أذنبنا ، أو وقعنا في الجرم ، وهو الذنب. وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ لأنا بريئون منكم. يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا يوم القيامة. ثُمَّ يَفْتَحُ أي يحكم ، والفتاح : الحاكم لأنه يفتح طريق الحق ويظهره ، وبعد الحكم يدخل تعالى أهل الحق والإيمان الجنة ، وأهل الباطل والكفر النار. وَهُوَ الْفَتَّاحُ الحاكم بالحق. الْعَلِيمُ بما يحكم به وبما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح.

قُلْ : أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ أي أعلموني بالدليل وجه الشركة في استحقاق العبادة ، وهو استفسار عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم ، زيادة في تبكيتهم. كَلَّا كلمة للزجر عن كلام أو فعل صدر من المخاطب ، والمراد هنا : ردع لهم عن اعتقاد شريك للّه تعالى.

بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الموصوف بالغلبة وكمال القدرة ، والحكمة الباهرة في تدبيره لخلقه ، فلا يكون له شريك في ملكه.

وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ أي وما أرسلناك إلا للناس جميعا عربهم وعجمهم ، وكَافَّةً مانعا لهم ، من الكف وهو المنع عن الكفر ودعوتهم إلى الإسلام ، أو جامعا لهم بالإنذار والإبلاغ ، من الكف بمعنى الجمع ، والتاء للمبالغة ، والمعنى على الأول : إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد ، وعلى الثاني : إلا جامعا للناس في الإبلاغ والإنذار ، وهو حال من الكاف ، ولا يجوز جعله حالا من لِلنَّاسِ لأن تقدم حال المجرور عليه ممنوع كتقدم المجرور على الجار. بَشِيراً وَنَذِيراً مبشرا للمؤمنين بالجنة ، ومنذرا للكافرين بالعذاب. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ذلك ، فيحملهم جهلهم على مخالفتك ، فهم لا يعلمون ما عند اللّه وما لهم من النفع في إرسال الرسل.

وَ يَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أي ويقول المشركون من فرط جهلهم : متى يكون هذا الوعد بالعذاب الذي تعدوننا به يا محمد وصحبه ، وهو قيام الساعة ، أخبرونا به إن كنتم صادقين فيه. والخطاب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين. مِيعادُ يَوْمٍ وعد يوم أو زمان وعد ، وهو يوم البعث أو القيامة. لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ أي هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه ولا تتقدمون عليه ، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قدّر اللّه وقوعه فيه. وهو جواب تهديد جاء مطابقا لما قصدوه بسؤالهم من التعنت والإنكار.

ج ٢٢ ، ص : ١٨٠

المناسبة :

بعد بيان أن الأصنام ونحوها من الآلهة المزعومة لا يملكون شيئا في الكون ، أبان اللّه تعالى أن المشركين يعترفون بأن الرازق من السماء والأرض بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ويوجد من المعادن هو اللّه ، فيلزمهم أن يعتقدوا بأنه لا إله غيره ، وأن المحق واحد من الفريقين وغيره مبطل ، والمحق هم المؤمنون لقيام الدليل على التوحيد ، وأن يعلموا أن اللّه هو الحاكم بالحق يوم القيامة ، وأنه هو الخالق الرازق ، أما الشركاء فلا يخلقون ولا يرزقون.

التفسير والبيان :

قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، قُلِ : اللَّهُ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين عبدة الأوثان والأصنام على سبيل التوبيخ والتبكيت : من الرازق لكم من السموات بإنزال المطر ، ومن الأرض بالنبات والمعادن ونحوها ؟

قل لهم : هو اللّه الذي يرزقكم ، إن لم يجيبوا ، بل لا جواب لهم سواه ، وقد أجابوا فعلا في آيات أخرى بأنه هو اللّه ، قال تعالى : قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ : اللَّهُ ، فَقُلْ : أَفَلا تَتَّقُونَ [يونس ١٠/ ٣١].

وإذا اعترفتم بأن اللّه هو الرازق ، فلم تعبدون سواه ممن لا يقدر على الرزق ؟ كما قال تعالى تبكيتا وتعنيفا لهم : قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ؟ قُلِ : اللَّهُ ، قُلْ : أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ، لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا [الرعد ١٣/ ١٦].

ثم دعاهم اللّه تعالى إلى الإيمان باللّه بطريق التلطف ، بعد هذا الإلزام القائم مقام الاعتراف والإقرار ، فقال :

ج ٢٢ ، ص : ١٨١

وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : إن أحد الفريقين منا ، سواء معشر المؤمنين الموحدين اللّه الخالق الرازق ، الذين يخصونه بالعبادة ، أو المشركين الذين يعبدون الجمادات العاجزة عن الخلق والرزق والنفع والضرر ، لعلى أحد الأمرين من الهدى أو في الضلال البيّن الوضح ، فلا سبيل إلى تصويب كل منا ، فإما أن نكون نحن أو أنتم على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، والآخر مخطئ مبطل. وهذا أسلوب فيه لطف وأدب ، لاستدراج الخصم إلى أن ينظر في حاله وحال غيره ، ويستعمله العرب لإعطاء الحرية للمخاطب بأن يتأمل ويعلن عن قناعة أنه مخطئ وغيره مصيب ، كما يقول الرجل لصاحبه : قد علم اللّه الصادق مني ومنك ، وإن أحدنا لكاذب.

(١٩١/٢٢)

و يلاحظ أنه ذكر كلمة « على » مع الهدى ، وكلمة « في » مع الضلال لأن المهتدي كأنه مرتفع متطلع ، والضال منغمس في الظلمة غريق فيها. ووصف الضلال بالمبين ، ولم يصف الهدى لأن الهدى هو الطريق المستقيم الموصل إلى الحق ، والمستقيم واحد ، وغيره كله ضلال ، بعضه أبين من بعض. وقدم الهدى على الضلال لمناسبته لوصف المؤمنين المبدوء بكلمة إِنَّا المقدم في الذكر.

ثم أعلن اللّه تعالى وجود الانفصال بين الفريقين واستقلال كل منهما عن الآخر بطريق التلطف مرة أخرى بنسبة الاجرام فرضا إلى المؤمنين والعمل للمشركين فقال : قُلْ : لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا ، وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ أي قل أيها الرسول أيضا للمشركين : إن كانت عبادتنا للّه وطاعتنا له جريمة ، فلستم مسئولين عنا ، ولا نسأل عما تعملون من خير أو شر. وهذا معناه التبري منهم ، فلستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى توحيد اللّه وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ، ونحن منكم ، وإن أعرضتم وكذبتم فنحن برآء منكم ، وأنتم برآء منا ، كما قال اللّه تعالى : وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ [يونس ١٠/ ٤١]. وقد أضاف الاجرام إلى النفس :

ج ٢٢ ، ص : ١٨٢

أَجْرَمْنا وقال في حقهم عَمَّا تَعْمَلُونَ لئلا يحصل الإغضاب المانع من الفهم.

ثم أنذرهم اللّه تعالى بالقضاء والحكم الذي سيقضي به ، تأكيدا للنظر والتفكر ، في مجال الحساب والثواب والعذاب ، فقال :

قُلْ : يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ أي قل لهم أيها الرسول أيضا. إن ربنا سيجمع بيننا في ساحة واحدة يوم الحساب ، ويوم القيامة ، ثم يحكم ويقضي بيننا بالحق والعدل ، واللّه هو الحاكم العادل القاضي بالصواب ، العالم بحقائق الأحوال والأمور ، وبما يتعلق بحكمه من المصالح ، فيجزي كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا وَلِقاءِ الْآخِرَةِ ، فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ [الروم ٣٠/ ١٤- ١٦].

ثم تحداهم تعالى بالكشف عن الشركاء وقدراتهم ، فقال :

قُلْ : أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ ، كَلَّا ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أي قل أيها النبي لهؤلاء المشركين قولا فصلا : أروني هذه الآلهة التي جعلتموها للّه أندادا ، وصيرتموها شركاء ونظراء معادلين للّه ، حتى أراهم ، وأرى ما يقدرون عليه. الحق واضح ، والأمر ليس كما تزعمون ، كلا أي فارتدعوا عن ادعاء المشاركة ، فلا نظير ولا شريك ولا عديل للّه ، بل هو اللّه الواحد الأحد ، المتفرد بالألوهية ، الذي لا شريك له ، ذو العزة التي قد قهر بها كل شيء ، وغلب كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، حكمة باهرة لا يعلوها شي ء. وهذا التساؤل يراد به بيان فائدة الشركاء في دفع الضرر ، بعد إبطال فائدتها بآية

ج ٢٢ ، ص : ١٨٣

قُلْ : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لجلب المنفعة ، تمشيا مع أهداف العامة الذين لا يعبدون المعبود إلا لدفع الضرر أو لجلب المنفعة ، أما الخواص فيعبدون اللّه لأنه يستحق العبادة لذاته.

وبعد إثبات التوحيد ، أبان اللّه تعالى عموم الرسالة المحمدية للناس جميعا ، فليست ذات نزعة عنصرية ، ولا حكرا على العرب وحدهم ، فقال تعالى : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أي وما أرسلناك أيها النبي لقومك العرب خاصة ، بل أرسلناك للناس قاطبة ، عربهم وعجمهم ، أبيضهم وأسودهم وأحمرهم ، مبشرا من أطاع اللّه بالجنة ، ومنذرا من عصاه بالنار ، كما قال تعالى : قُلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف ٧/ ١٥٨] وقال سبحانه : تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً [الفرقان ٢٥/ ١].

و

في الصحيحين عن جابر رضي اللّه عنه مرفوعا : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي .. وذكر منها : وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

و

في الصحيح أيضا : « بعثت إلى الأسود والأحمر » .

إلا أن أكثر الناس لا يعلمون بعموم الرسالة ، ولا بمهمة التبشير والإنذار ، ولا بخطورة ما هم عليه من الضلال والجهالة ، ولا بالنفع في إرسال الرسل ، ولا ما عند اللّه من الجزاء ، كما قال تعالى : وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [يوسف ١٢/ ١٠٣] وقال سبحانه : وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [الأنعام ٦/ ١١٦].

وبعد بيان التوحيد ثم الرسالة ، ذكر الحشر ، فأخبر تعالى عن استبعاد الكفار قيام الساعة وأجاب عنه ، فقال :

وَ يَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أي ويقول المشركون

ج ٢٢ ، ص : ١٨٤

استهزاء وتعنتا وجهلا : متى يكون هذا الوعد الذي تعدوننا به يا محمد والمؤمنون ، وهو قيام الساعة ، أخبرونا به إن كنتم صادقين في قولكم. وهذا كقوله تعالى :

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ [الشورى ٤٢/ ١٨].

والجواب هو :

قُلْ : لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ ، لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ أي قل لهم أيها الرسول : لكم موعد يوم مؤجل محدد لا شك فيه ، هو يوم البعث والقيامة ، لا تتأخرون عنه ساعة ولا تتقدمون عليه ، لا يزاد ولا ينقص ، بل يكون لا محالة في الوقت الذي قدّر اللّه وقوعه فيه. وفي هذا إنذار كاف.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- اللّه سبحانه وتعالى في الواقع الذي لا يقبل سواه ، وفي اعتراف المشركين أنفسهم هو خالق الأرزاق الكائنة من السموات ، عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع ، والخارجة من الأرض عن الماء والنبات ، وبما أن اللّه هو الخالق الرازق فهو الذي ينبغي أن يعبد. ومن المعلوم أن

العامة يعبدون اللّه ، لا لكونه إلها ، وإنما يطلبون به شيئا : إما دفع ضرر ، أو جر نفع.

٢- الحق واحد لا يتعدد ، فلا يعقل أن يكون كل المؤمنين والمشركين في حال واحدة من الهدى أو الضلال ، بل هما متعارضان متضادان ، وأحد الفريقين مهتد ، وهم المؤمنون ، والآخر ضال وهم المشركون.

(١٩٥/٢٢)

و قد كذبهم القرآن بأسلوب يعد أحسن من تصريح الكذب ، وهو أن المشركين هم الضالون حين أشركوا بالذي يرزقهم من السموات والأرض. فقوله تعالى : وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ كما تقول : أنا أفعل كذا ،

ج ٢٢ ، ص : ١٨٥

و تفعل أنت كذا ، وأحدنا مخطئ ، وقد عرف من هو المخطئ. أما لو قال أحد المتناظرين للآخر : هذا الذي تقوله خطأ ، وأنت فيه مخطئ ، فإنه يغضب ، وإذا غضب اختل الفكر وساء الفهم.

٢- أقام اللّه تعالى مهادنة ومتاركة بين المؤمنين والمشركين ، فأعلن رسوله لهم : إنما أقصد بما أدعوكم إليه الخير لكم ، لا أن ينالني ضرر كفركم ، ولا يسأل أحد الفريقين عن الآخر ، فلا يسأل المشركون عما اكتسب المؤمنون ، ولا يسأل المؤمنون أيضا عما اقترف المشركون ، كما قال تعالى : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ [الكافرون ١٠٩/ ٦].

٣- يجمع اللّه تعالى يوم القيامة أهل الإيمان وأهل الشرك ، ثم يقضي بينهم بالحق والعدل ، فيثيب المهتدي ، ويعاقب الضال ، واللّه هو القاضي بالحق ، العليم بأحوال الخلق.

٤- يسأل المشركون : عرّفوني الأصنام والأوثان التي جعلتموها شركاء للّه عز وجل ، وهل شاركت في خلق شي ء ؟ بينوا ما هو ؟ وإلا فلم تعبدونها ؟ ! الحق أنه ليس الأمر كما زعم المشركون ، فليس للّه شركاء ، بل هو اللّه ذو العزة القاهر الغالب ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، يفعل ما هو مصلحة.

٥- رسالة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم رسالة عامة للبشرية جمعاء ، وليست مقصورة على العرب خاصة ، ومهمة النبي تبشير من أطاع اللّه بالجنة ، وإنذار من عصاه بالنار ، ولكن أكثر الناس وهم في ذلك الوقت المشركون لا يعلمون ما عند اللّه تعالى.

(١٩٦/٢٢)

٦- يتساءل المشركون استهزاء وعنادا وتعجيزا ، فيقولون للمؤمنين : متى موعدكم لنا بقيام الساعة إن كنتم صادقين في إخباركم عنها ؟

ج ٢٢ ، ص : ١٨٦

فيجيبهم اللّه تعالى : قل لهم يا محمد : لكم ميقات معين هو يوم البعث أو القيامة ، لا يزيد ولا ينقص ، ولا تتقدمون عنه ولا تتأخرون ، وهو آت لا محالة ، وعلمه عند اللّه لم يطلع عليه أحدا من خلقه.

إنكار المشركين القرآن والحوار يوم القيامة بين الضالين والمضلين [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣١ الى ٣٣]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

الإعراب :

لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ أَنْتُمْ ضمير مرفوع منفصل ، مبتدأ ، خبره محذوف ، ولا يجوز إظهاره لطول الكلام بالجواب.

البلاغة :

لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ استعارة في الجملة الأخيرة ، إذ ليس للقرآن يدان ، ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المتقدمة.

ج ٢٢ ، ص : ١٨٧

وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ حذف الجواب للتهويل ، أي لو رأيت حالهم ، لرأيت أمرا مريعا مهولا.

اسْتَكْبَرُوا واسْتُضْعِفُوا بينهما طباق.

بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أسند المكر إلى الليل على سبيل المجاز العقلي ، أي المكر الواقع ليلا.

أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى استفهام بمعنى الإنكار.

المفردات اللغوية :

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة. وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أي ما تقدمه من الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل الدالين على البعث لإنكارهم له. وَلَوْ تَرى يا محمد. إِذِ الظَّالِمُونَ الكافرون. مَوْقُوفُونَ محبوسون ممنوعون في موقف الحساب. لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا الأتباع. الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا الرؤساء.

لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ باللّه مصدقين لرسوله وكتابه.

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ل

المن

بإنكار جماعة من المشركين القرآن والكتب السماوية القديمة ، وما فيها

ج ٢٢ ، ص : ١٨٨

من إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء ، ثم ذكر صورة من الحوار الحادّ بين الرؤساء المضلين والأتباع الضالين ، وأوضح وصفا للجزاء الذي يلقونه على أعمالهم في الدنيا.

التفسير والبيان :

هذا لون من تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وهو إصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم ، وبما أخبر به من أمر المعاد ، فقال تعالى :

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أي وقال جماعة من مشركي العرب في مكة وغيرها : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب السماوية السابقة ، كالتوراة والإنجيل ، ولا بما اشتملت عليه من أمور الآخرة من بعث وحشر وحساب وجزاء. والمعنى : أنهم جحدوا نزول القرآن من اللّه تعالى ، وأن يكون لما دل عليه من المعاد وإعادة الجزاء حقيقة.

(١٩٨/٢٢)

ثم أخبر تعالى عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة وحوارهم فيما بينهم فقال لرسوله أو للمخاطب :

وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ أي ولو تنظر أيها الرسول حين يكون الكافرون أذلة مهانين محبوسين في موقف الحساب ، يتخاصمون ويتحاجون ويتحاورون فيما بينهم ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب ، لرأيت العجيب والمخيف.

وصورة الحوار هي :

يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ أي يقول الأتباع الضعفاء للسادة الرؤساء المتكبرين في الدنيا : لو لا صدكم لنا عن الإيمان باللّه واتباع رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، لكنا مؤمنين باللّه ، مصدقين برسوله صلّى اللّه عليه وسلّم وكتابه.

ج ٢٢ ، ص : ١٨٩

فأجابهم القادة :

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا : أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ ، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ

أي قال السادة القادة المتكبرون في الدنيا للأتباع الضعفاء ، مستنكرين لما قالوا : أنحن منعناكم عن الإيمان واتباع طريق الهدى بعد أن جاءكم من عند اللّه ؟ لا ، بل أنتم منعتم أنفسكم بإصراركم على الكفر ، وولوغكم في الاجرام والإثم.

فرد عليهم الأتباع بقولهم :

وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ ، وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً أي رد الأتباع على القادة رؤساء الضلال : بل الذي صدنا عن الإيمان مكركم بنا بالليل والنهار حين كنتم تطلبون منا أن نبقى على الكفر باللّه ، ونجعل له أشباها وأمثالا في الألوهية والعبادة.

ثم ذكر مصير الفريقين فقال :

وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ ، وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا أي وأضمر الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه عن الكفر ، وأخفاه عن غيره ، مخافة الشماتة ، وتبينت الندامة في وجوههم حين واجهوا العذاب المحدق بهم ، وحين جعلنا الأغلال وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم في النار.

ثم أخبر تعالى عن عدالة هذا الجزاء ، فقال :

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ ؟ أي إنما نجازي هؤلاء وأمثالهم بأعمالهم ، كل بحسبه ، وبسبب ما اقترفه من الشرك باللّه والإثم ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم : وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت ٤١/ ٤٦].

ج ٢٢ ، ص : ١٩٠

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- لقد أعلن كفار قريش عدم إيمانهم بالقرآن وبالكتب السماوية السابقة المتضمنة الإخبار عن أمور الغيب من البعث والحشر والحساب والجزاء.

٢- أخبر اللّه تعالى عن حالهم من الذلة والمهانة يوم القيامة ، فهم محبوسون في موقف الحساب ، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب ، بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين ، فحين ترى الظالمين موقوفين على تلك الحال ، ترى عجبا.

٣- تكون المحاورة بين الرؤساء والأتباع شديدة حادة ، فيقول الأتباع للسادة- وبدأ بهم لأن المضل أولى بالتوبيخ- : لو لا أنكم أغويتمونا وأضللتمونا لكنا مؤمنين باللّه ورسوله وكتبه.

ويردّ القادة والرؤساء على الضعفاء الأتباع بقولهم منكرين اتهامهم :

ما رددناكم نحن عن الهدى ، ولا أكرهناكم ، بعد أن جاءكم من اللّه ، بل كنتم أنتم مشركين مصرين على الكفر.

(٢٠٠/٢٢)

فأجابهم الأتباع بجواب أبلغ وأحكم : إن خديعتكم وحيلتكم وعملكم في الليل والنهار هو الذي صدّنا عن الإيمان باللّه ورسوله ، وهو الذي حملنا على الكفر بدعوتكم المستمرة المدبرة دوما ، وكنتم تأمروننا بالكفر باللّه ، وبأن نجعل له أشباها وأمثالا ونظراء.

وحين مجيء العذاب وبعد اليأس من الحوار أضمر الفريقان الندامة ، وأخفوها مخافة الشماتة ، وهذا معنى وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ وقيل : معنى الإسرار :

ج ٢٢ ، ص : ١٩١

الإظهار ، أي أظهروا الندامة لأن الفعل من الأضداد ، يكون بمعنى الإخفاء والإبداء.

٤- كان جزاء الفريقين التابعين والمتبوعين وسائر الكنار : جعل أغلال الحديد في أعناقهم في النار ، وهذا جزاء حق وعدل ، ولا يجازى هؤلاء إلا بسبب أعمالهم في الدنيا من الشرك باللّه والإثم والعصيان.

تسلية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ظاهرة الكفر بين المترفين واعتدادهم بالأموال والأولاد [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣٤ الى ٣٩]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٣٤) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)

(٢٠١/٢٢)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

ج ٢٢ ، ص : ١٩٢

الإعراب :

بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلَّا مَنْ آمَنَ بِالَّتِي في موضع نصب لأنه خبر ما.

ودخلت الباء في خبر ما لتكون بإزاء اللام في خبر « إنّ » لأن « إن » للإثبات ، وما للنفي. وإِلَّا مَنْ آمَنَ في موضع نصب على الاستثناء ، ولا يجوز أن يكون منصوبا على البدل من الكاف والميم في تُقَرِّبُكُمْ لأن المخاطب لا يبدل منه. لكن جاء إبدال الغائب من المخاطب ، بإعادة العامل في قوله تعالى : لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ [الأحزاب ٣٣/ ٢١] أبدل منه بإعادة الجار ، فقال : لمن كان يرجو.

البلاغة :

يَبْسُطُ وَيَقْدِرُ بينهما طباق.

وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى فيه التفات من الغائب إلى المخاطب للمبالغة في تحقيق الحق ، وفيه إيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ، حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه ، أي ما أموالكم بالتي تقربكم ، ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا.

إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ مقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار.

كافِرُونَ لا يَعْلَمُونَ آمِنُونَ مُحْضَرُونَ ٣٨ فيها توافق الفواصل الذي فيه جميل الوقع على السمع.

المفردات اللغوية :

قَرْيَةٍ أهل قرية أي بلد. نَذِيرٍ ينذرهم ويحذرهم عقاب اللّه. مُتْرَفُوها أثرياؤها وقادة الشرّ فيها. كافِرُونَ مكذبون لكم بما أرسلتم به من التوحيد والإيمان. وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ قاسوا أمر الآخرة المفترضة عندهم على أمر الدنيا ، واعتقدوا أنهم لو لم يكونوا مكرمين عند اللّه لما رزقهم ، ولو لا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم.

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ يوسعه لمن يريد امتحانا. وَيَقْدِرُ يضيقه لمن يشاء ابتلاء. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة ، وكثيرا ما يكون للاستدراج. زُلْفى قربى أي تقريبا ، ويصح : زلفة : قربة. إِلَّا مَنْ آمَنَ لكن من آمن. جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا الجزاء المضاعف للحسنات ، أي الحسنة بعشر فأكثر. الْغُرُفاتِ غرفات الجنة ، وقرئ : الغرفة ، بمعنى الجمع. آمِنُونَ

من جميع ما يكرهون من الموت وغيره.

ج ٢٢ ، ص : ١٩٣

وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا القرآن بالرد والطعن. مُعاجِزِينَ مسابقين مغالبين لنا ، زاعمين أنهم يفوتوننا بأنفسهم. أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ تحضرهم الزبانية إلى النار ، دون أن يجدوا عنها محيصا أو مهربا.

وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ في فعل الخيرات التي أمر اللّه بها في كتابه وبيّنها رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم. فَهُوَ يُخْلِفُهُ أي يعوضه عليكم إما في الدنيا وإما في الآخرة. وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ أي إن الناس مجرد وسطاء ، فإن رزق العباد لبعضهم بعضا إنما هو بتيسير اللّه وتقديره ، وليسوا برازقين على الحقيقة ، وإنما الرازق الحقيقي هو اللّه تعالى.

سبب النزول : نزول الآية (٣(٤) :

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ .. :

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي رزين قال : « كان رجلان شريكان ، خرج أحدهما إلى الشام ، وبقي الآخر ، فلما بعث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل ، فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم ، فترك تجارته ، ثم أتى صاحبه ، فقال : دلّني عليه ، وكان يقرأ الكتب ، فأتى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : إلام تدعو ؟ فقال : إلى كذا وكذا ، فقال : أشهد أنك رسول اللّه ، فقال : وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم ، فنزلت هذه الآية : وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ فأرسل إليه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إن اللّه قد أنزل تصديق ما قلت » .

المناسبة :

بعد بيان تكذيب المشركين بالقرآن وبما تقدمه من الكتب السماوية ، سلّى اللّه رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم مما مني به من مخالفة قومه ، وخصّ بالتكذيب المترفين المعتمدين على كثرة الأموال والأولاد لأن الداعي إلى التكبر والإباء المفاخرة بزخارف

ج ٢٢ ، ص : ١٩٤

الدنيا والانهماك في الشهوات ، والاستهانة بمن لم يحظ منها ، وهذه ظاهرة عامة في الأمم لأن إيذاء الكفار الأنبياء ليس بدعا.

ثم فنّد اللّه تعالى مزاعمهم مبينا بأن الغنى والفقر لا يرتبطان بالإيمان والكفر ، فقد يرزق الكافر الفاجر

ويحرم المؤمن وبالعكس ، لحكمة ومصلحة يعلمها اللّه تعالى ، وإنما الجزاء العادل في الآخرة حيث يمتّع المتقون بغرف الجنان ، ويزج الكافرون الصادون عن سبيل اللّه في نار جهنم.

التفسير والبيان :

يسلّي اللّه نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم عن إعراض قومه عن دعوته ، ويأمر بالتأسي بالرسل المتقدمين ، ويخبره بأنه ما بعث نبيا في قرية إلا كذبه مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، فقال :

وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ أي لم نبعث إلى أهل كل قرية نبيا أو رسولا يحذرهم ويخوفهم عقاب اللّه إلا قال أغنياؤها وكبراؤها وأولو النعمة وقادة الشر فيها : إنا مكذبون بما أرسلتم به من توحيد الإله والإيمان به ، ونبذ تعدد الآلهة ، فلا نؤمن بكم ولا نتبعكم.

ونظير الآية كثير مثل : وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِميها لِيَمْكُرُوا فِيها [الأنعام ٦/ ١٢٣] ومثل : وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها ، فَفَسَقُوا فِيها ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً [الإسراء ١٧/ ١٦].

ومسوغات كفرهم : الاغترار بالأموال والأولاد ، كما قال تعالى :

وَقالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلاداً ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ أي وقال المترفون الكافرون للرسل وأتباعهم المؤمنين : إن اللّه فضلنا عليكم بالأموال والأولاد في

الدنيا ، وأنتم فقراء ضعفاء ، فهذا دليل تميزنا وتفاخرنا ، وهو دليل على محبة اللّه تعالى لنا ورضاه عنا ، وما نحن عليه من الدين ، وما كان ليعطينا هذا في الدنيا ويحسن إلينا ، ثم يعذبنا في الآخرة.

ولكن هذه النظرة خطأ محض ، وقياس باطل ، فإن الإمداد بالأموال غالبا ما يكون للاستدراج ، كما قال تعالى : أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ ، نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ ، بَلْ لا يَشْعُرُونَ [المؤمنون ٢٣/ ٥٦- ٥٥]. وقال سبحانه :

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ ، إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ ، وَهُمْ كافِرُونَ [التوبة ٩/ ٥٥].

وهنا رد اللّه عليهم ، وأبان خطأهم ، فقال :

قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ أي قل أيها الرسول لهم :
إن اللّه يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب ، فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ، لا لمحبة لمن وسع عليه ، ولا لبغض لمن ضيق عليه ، وإنما له في ذلك حكمة تامة بالغة ، ولأن الدنيا لا تساوي شيئا في ميزان اللّه ، كما
قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الترمذي عن سهل بن سعد : « لو كانت الدنيا تعدل عند اللّه جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » .
وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أي إن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة سنن اللّه في الكون ، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مسألة الرزق غلط بيّن ، أو مغالطة واضحة ، فقد يعطي اللّه العاصي والكافر استدراجا ، ويمنع الطائع والمؤمن ابتلاء واختبارا ، ليصبر ، فتكثر حسناته عند اللّه ، وبه يتبين أن ما يزعمه المترفون من أن مدار التوسعة هو الشرف والكرامة ومدار التضييق هو الهوان والذل : لا حقيقة له ولا أصل في تقدير اللّه تعالى.
ثم أبان تعالى ميزان القربى عنده ، وأنها ليست بكثرة المال والولد ، وإنما بالإيمان والعمل الصالح ، فقال :

ج ٢٢ ، ص : ١٩٦

وَ ما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا ، وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ أي وليست كثرة أموالكم وأولادكم هي دليل محبتنا لكم ورضائنا عنكم ، ولا هي مما تقربكم إلى رحمتنا وفضلنا ، فإنما أموالكم وأولادكم فتنة واختبار لنعلم من يستعملها في طاعة اللّه ، ممن يعصي اللّه فيها.

(٢٠٦/٢٢)

لكن من آمن باللّه ورسله وكتبه واليوم الآخر ، وعمل صالح الأعمال ، فأدى الفرائض ، واستعمل أمواله في طاعة اللّه ، فإن إيمانه وعمله يقربانه لدينا ، ويكون مرضيا عندنا ، وهؤلاء لهم الجزاء المضاعف للحسنات ، نجازيهم الحسنة بعشر أمثالها فأكثر إلى سبع مائة ضعف ، وهم آمنون من كل مكروه في غرفات الجنان.
روى الإمام أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن اللّه تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .
و
روى ابن أبي حاتم عن علي رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن في الجنة

لغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها ، فقال أعرابي :
لمن هي ؟ قال صلّى اللّه عليه وسلّم : لمن طيّب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » .
ثم هدد اللّه تعالى الكافرين ، وأبان حال المسيئين ، فقال :
وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ ، أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ أي إن الذين يحاولون رد آياتنا في القرآن ، والطعن فيها ، لإبطالها ، ويسعون في الصد عن سبيل اللّه ، واتباع رسله ، والتصديق بآياته ، زاعمين أنهم يفوتوننا ،
ج ٢٢ ، ص : ١٩٧
و أننا لا نقدر عليهم ، فأولئك جميعهم مجزيون بأعمالهم ، تحضرهم الزبانية إلى عذاب جهنم ، ولا يجدون عنها محيصا أو مهربا.
ثم أبان اللّه تعالى ما يريح الخلائق جميعا في مسألة الرزق ، وأنه وحده هو المصدر ، فقال :
قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ أي قل أيها الرسول لهم : إن ربي وحده هو الذي يوسع الرزق على من يريد من عباده ، وهو الذي يضيقه على من يشاء ، بحسب ما له في ذلك من الحكمة التي لا يدركها غيره.

(٢٠٧/٢٢)

وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ أي إن عطاء اللّه متجدد دائم ، فكل ما تنفقونه في فعل الخيرات التي أمر اللّه بها في كتابه وبيّنها رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، فهو يعوضه عليكم بالبدل في الدنيا أو بالجزاء والثواب في الآخرة ، واللّه هو الرازق في الحقيقة ، وما العباد إلا وسائط وأسباب. وفي هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الإنفاق في الخير.
جاء في الحديث القدسي عند مسلم : « يقول اللّه تعالى : أنفق أنفق عليك »
و
روى الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا »
.
و
قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا » .
فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- إن الاغترار بالأموال والأولاد ظاهرة عامة في البشر ، وهي في الغالب سبب للإعراض عن دعوة الرسل ، فلم يرسل اللّه نبيا ولا رسولا إلا قال مترفوها

ج ٢٢ ، ص : ١٩٨

أي أغنياؤها ورؤساؤها وجبابرتها وقادة الشر للرسل والأنبياء : نحن كافرون بما أرسلتم به.

وقالوا أيضا : لقد فضلنا عليكم بالأموال والأولاد ، ولو لم يكن ربكم راضيا بما نحن عليه من الدّين والفضل لم يعطنا ذلك ، ولسنا نحن بمعذبين في الآخرة إن وجدت كما تقولون لأن من أحسن إليه فلا يعذبه.

٢- رد اللّه عليهم قولهم بأن اللّه هو الذي يفاضل بين عباده في الأرزاق امتحانا لهم ، فلا يدل شيء من ذلك على ما في العواقب ، فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة ، فلا تظنوا أن أموالكم وأولادكم تغني عنكم غدا شيئا ، والرزق في الدنيا لا تدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل ، فكم من موسر شقي ومعسر تقي.

(٢٠٨/٢٢)

و لكن أكثر الناس لا يعلمون هذا لأنهم لا يتأملون.

٣- أكد اللّه تعالى جوابه بأن الأموال والأولاد لا تقرب شيئا إلى اللّه ، أما الذي يقرب إليه فهو الإيمان والعمل الصالح ، فمن آمن وعمل صالحا فلن يضره ماله وولده في الدنيا.

وأولئك المؤمنون الصالحون لهم الجزاء المضاعف للحسنات في الآخرة ، كما قال سبحانه : مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها [الأنعام ٦/ ١٦٠] وهم الآمنون من كل مكروه في غرفات الجنة ، آمنون من العذاب والموت والأسقام ، وهذا إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده ، فإن من تنقطع عنه النعمة ، لا يكون آمنا.

وقد استدل بعضهم بهذه الآية في تفضيل الغنى على الفقر ، قال محمد بن كعب : إن المؤمن إذا كان غنيا آتاه اللّه أجره مرتين بهذه الآية.

٤- أما الكافرون الصادون عن سبيل اللّه واتباع رسله ، الساعون في إبطال

ج ٢٢ ، ص : ١٩٩

الأدلة والحجج المذكورة في القرآن ، الذين يحسبون أنهم يفوتون اللّه بأنفسهم ، فلا يقدر عليهم ، فأولئك تحضرهم الزبانية في نار جهنم ، وهذا إشارة أيضا إلى دوام العذاب ، كما قال تعالى : كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها [السجدة ٣٢/ ٢٠] وكما قال تعالى : وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ

[الانفطار ٨٢/ ١٦].

٥- كرر اللّه تعالى للتأكيد أنه هو وحده باسط الرزق ومضيقه لمن يشاء ، على وفق ما يرى من الحكمة والمصلحة لعباده ، فيا أيها المغترون بالأموال والأولاد : إن اللّه يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، فلا تغتروا بالأموال والأولاد ، بل أنفقوها في طاعة اللّه ، فإن ما أنفقتم في طاعة اللّه فهو يخلفه عليكم ، واللّه تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ، وهو الرازق على الحقيقة ، والناس مجرد وسطاء ورزقهم منقطع ، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [الذاريات ٥١/ ٥٨].

٦- ما دلت عليه الآية : فَهُوَ يُخْلِفُهُ و

الحديث المتقدم المتفق عليه عن أبي هريرة مرفوعا : « قال : قال اللّه عز وجل : « أنفق أنفق عليك » : فيه إشارة إلى أن الخلف في الدنيا عن النفقة إذا كانت النفقة في طاعة اللّه ، وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء لتكفير الذنوب أو ادخار الثواب في الآخرة.

روى الدارقطني عن جابر قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « كل معروف صدقة ، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله ، كتب له صدقة ، وما وقى به الرجل عرضه « ١ » فهو صدقة ، وما أنفق الرجل من نفقة فعلى اللّه خلفها إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية » .

أما ما أنفق الشخص في معصية فلا خوف أنه غير مثاب عليه ، ولا مخلوف له. وأما البنيان فما يكون منه ضروريا يكنّ الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف

---

(١) مثل إعطاء الشاعر وذي اللسان لتوقي الذم والقدح والهجاء.

عليه ، ومأجور ببنيانه ، كحفظ بنيته ، وستر عورته.

قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما رواه الترمذي والحاكم عن عثمان : « ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يواري عورته ، وجلف الخبز والماء »

أي الوعاء.

٧- دل قوله تعالى : وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ على أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا ، بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم ، مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى ، بناء على وعد اللّه تعالى.

وخيرية الرزق في أمور ذكرها الرازي : أحدها- ألا يؤخر عن وقت الحاجة ، والثاني- ألا ينقص عن قدر

الحاجة ، والثالث- ألا ينكده بالحساب ، والرابع- ألا يكدره بطلب الثواب « ١ » .
تقريع الكفار يوم القيامة أمام معبوداتهم [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٤٠ الى ٤٢]

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (٤٢)

البلاغة :

أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ تقريع وتوبيخ للمشركين ، والخطاب للملائكة.

نَفْعاً وضَرًّا بينهما طباق.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٥/ ٢٦٣

ج ٢٢ ، ص : ٢٠١

المفردات اللغوية :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ أي يحشر للحساب العابد والمعبود ، والمستكبر والمستضعف ، وقرئ : نحشرهم أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ هذا تقريع للمشركين ، وتوبيخ لكل من عبد غير اللّه عز وجل ، وإقناط لهم عما يتوقعون من شفاعتهم

ق

قال تعاوَمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا

أي لا يملك المعبودون للعابدين شفاعة ونجاة ، ولا عذابا وهلاكا لأن الأمر يوم القيامة كله للّه ، والدار دار جزاء ، واللّه هو المجازي وحده وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم وكفروا بعبادة غير اللّه تُكَذِّبُونَ في الدنيا.

المناسبة :

لما بيّن اللّه تعالى أن حال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كحال من تقدمه من الأنبياء ، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار ، وبيّن لهم خطأ اعتمادهم على كثرة الأموال والأولاد ، بيّن ما يكون من حالهم يوم القيامة من التقريع والتوبيخ ، بسؤال الملائكة : أهم كانوا يعبدونكم ؟ إهانة لهم. ثم بيّن أنهم كانوا ينقادون لأمر الجن ، وأن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم.

التفسير والبيان :

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ : أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ ؟
أي ويوم يحشر اللّه تعالى العابدين والمعبودين ، والمستكبرين والمستضعفين جميعا ، ثم يسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ، ليقربوهم إلى اللّه زلفى : أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ وهذا السؤال يراد
ج ٢٢ ، ص : ٢٠٢
به تقريع المشركين يوم القيامة أمام الخلائق ، على طريقة : إياك أعني واسمعي يا جارة.
وهذا شبيه بقوله تعالى : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ [الفرقان ٢٥/ ١٧] وشبيه بسؤال عيسى عليه السلام : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ : اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قالَ : سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ [المائدة ٥/ ١١٦]. واللّه يعلم أن الملائكة وعيسى أبرياء من هذه التهمة ، وإنما السؤال والجواب للتقريع والتوبيخ والتعيير.
قالُوا : سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ أي قالت الملائكة : تنزيها لك يا رب عن الشريك ، نحن عبيدك ، ونبرأ إليك من هؤلاء ، وأنت الذي نتولاه ونطيعه ونعبده من دونهم ، ما اتخذناهم عابدين ، ولا موالاة بيننا وبينهم ، بل إنهم كانوا يعبدون الشياطين وهم إبليس وجنوده ، فهم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ، وأكثر المشركين مصدقون الجن فيما يلقونه إليهم من الوساوس والأكاذيب ، ومنها أمرهم بعبادة الأصنام ، كما قالت تبارك وتعالى : إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً ، وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً ، لَعَنَهُ اللَّهُ [النساء ٤/ ١١٧- ١١٨].

ثم أعلن اللّه تعالى إفلاسهم وتبدد آمالهم بشفاعة الآلهة المزعومة ، زيادة في إيلامهم وحسرتهم ، فقال :
فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا أي في يوم القيامة هذا لن يتحقق لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان والأنداد التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم ، ولن تكون لكم شفاعة وقدرة على النجاة ، كما لن يكون بيدكم العذاب والهلاك ، وإنما المجازي هو اللّه وحده.
وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا : ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ أي
ج ٢٢ ، ص : ٢٠٣
و نقول للذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير اللّه وهم المشركون تأنيبا وتوبيخا : ذوقوا عذاب جهنم الذي

كنتم تكذبون بوقوعه في الدنيا ، فأنتم الآن في أعماق النار.

وهذا تأكيد لبيان حالهم في الظلم وعقابهم على الإثم.

فقه الحياة أو الأحكام :

تدل الآيات على ما يأتي :

١- الحشر والحساب حق ، واللّه يحشر جميع الخلائق ، لكن يكون للكفار حشر وموقف خاص ، فاللّه تعالى يحشر العابدين والمعبودين أي يجمعهم للحساب مع بعضهم ، ثم يسأل الملائكة الذين يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ، فيقول تقريعا وتوبيخا للكفار على عبادتهم غير اللّه : أهؤلاء كانوا يعبدونكم ؟

٢- يتبرأ الملائكة من هذه التهمة قائلين : سبحانك ، أي تنزيها لك يا رب عن الشريك ، أنت ربنا الذي نتولاه ونطيعه ونعبده ونخلص في العبادة له ، وإنما يعبد هؤلاء الشياطين ويطيعونهم ، لأنهم زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم.

وجاء في التفاسير : أن بني مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات اللّه. وهو قوله : وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً [الصافات ٣٧/ ١٥٨].

٣- أيأس اللّه تعالى الكفار من شفاعة أحد من آلهتهم المزعومة ، وأخبر بأنه في يوم القيامة لا يملك المعبودون للعابدين شفاعة ونجاة ، ولا عذابا وهلاكا ، وإنما المالك المجازي وحده هو اللّه تعالى.

٤- يعاين الكفار جهنم ، ويقذفون فيها ، فيقال لهم تقريعا وتوبيخا :

ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ في الدنيا ، والمكذب به هنا : هو النار ، وفي سورة السجدة عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ [٢٠] هو العذاب ، وهم في الواقع يكذبون بالكل. وسبب التغاير في التعبير أن الآية هنا في وصف النار التي كانت أول ما رأوها بعد الحشر والسؤال ، وأما في سورة السجدة فالمراد وصف العذاب الذي يعانونه بعد دخولهم النار ، وأنه العذاب الدائم.

أسباب تعذيب الكفار [سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٤٣ الى ٥٠]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما

بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)

(٢١٤/٢٢)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)

ج ٢٢ ، ص : ٢٠٥

الإعراب :

أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى أَنْ تَقُومُوا : إما في موضع جر على البدل من قوله :

بِواحِدَةٍ أي بأن ، أو في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : وهي أن تقوموا ، أو في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر ، وهو اللام ، وتقديره : لأن تقوموا للّه ، ومَثْنى وَفُرادى منصوبان على الحال من واو تَقُومُوا.

عَلَّامُ الْغُيُوبِ مرفوع على أنه خبر ثان بعد أول وهو يَقْذِفُ أو على البدل من ضمير يَقْذِفُ أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : وهو عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، أو بدل من « ربّ » على الموضع ، وموضعه الرفع ، أو وصف ل « رب » على الموضع. ويجوز فيه النصب من وجهين : على الوصف ل « رب » أو على البدل منه.

وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ : ما : في موضع نصب ، تقديره : أيّ شيء يبدئ الباطل ، وأيّ شيء يعيد.

البلاغة :

بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ استعارة ، استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال أمام الإنسان.

وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره.

مَثْنى وَفُرادى بينهما طباق.

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على إمعانهم في الكفر.

المفردات اللغوية :

(٢١٥/٢٢)

آياتُنا القرآن بَيِّناتٍ واضحات الدلالات ، ظاهرات المعاني ما هذا التالي لها وهو النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم يَصُدُّكُمْ يمنعكم وَقالُوا : ما هذا قالوا ثانيا ما هذا القرآن إِفْكٌ كذب مُفْتَرىً مختلق لا أساس له وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قالوا ثالثا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ لأمر الدين الذي جاءهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه

وسلّم من القرآن والمعجزات ، وهذا باعتبار لفظه وإعجازه ، والأول باعتبار معناه إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ما هذا إلا سحر ظاهر سحريته.

ويلاحظ أن الإشارة الأولى : ما هذا إِلَّا رَجُلٌ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، والثانية : ما هذا إِلَّا إِفْكٌ إلى القرآن ، والثالثة : لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ والحق : أمر النبوة كله ودين الإسلام كما

ج ٢٢ ، ص : ٢٠٦

و تكرار الفعل : قالُوا والتصريح بذكر الكفرة ، وقوله : لَمَّا جاءَهُمْ من المبادهة بالكفر وأنه حين جاءهم لم يفكروا فيه ، بل بادروه بالإنكار : دليل على صدور الكفر عن إنكار عظيم له ، وغضب شديد منه ، وتعجيب بليغ منه ، كأنه قال : وقال أولئك الكفرة المتمردون بجراءتهم على اللّه ، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق المنير قبل أن يتذوقوه : ما هو إلا سحر واضح لمن يتأمله.

(٢١٦/٢٢)

وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها أي ما أنزلنا على العرب كتبا سماوية يدرسون فيها ، وهو دليل على صحة الإشراك وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ يدعوهم إليه ، وينذرهم بالعذاب على تركه. وهذا في غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم ، فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وجه ، ولا شبهة يعتمدون عليها ، إذ لم يأتهم كتاب ، ولا نذير بهذا الذي فعلوه ، فمن أين كذبوك ؟ ! وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ أي وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال فأهلكهم اللّه ، كعاد وثمود ونحوهم ، والمعشار : هو العشر أي عشرة في المائة ، وقيل : هو عشر العشر ، أي واحد في المائة فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب والعقوبة ؟ أي هو واقع موقعه. أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه ، وأوصيكم بخصلة واحدة وهي أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى أي أن تقوموا في طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين : اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا لأن الاجتماع يشوش الفكر. ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا تنظروا في حقيقة أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وما جاء به من الكتاب ، فتعلموا أنه ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ أن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم ليس بمجنون ولا ساحر ، فليس في أحواله ولا تصرفاته ما يدل على ذلك ، ومجيئه بالوحي دليل ظاهر على صدقه إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ ما هو إلا منذر لكم قبل مجيء عذاب شديد في الآخرة إن عصيتموه ، وقد علمتم أنه أرجح الناس عقلا ، وما جربتم عليه كذبا مدة عمره فيكم.

(٢١٧/٢٢)

قُلْ : ما سَأَلْتُكُمْ قل لهم : ما طلبت منكم على الإنذار والتبليغ مِنْ أَجْرٍ مال مقابل الرسالة إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ما ثوابي إلا على اللّه ، لا على غيره وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ مطلع ، لا يغيب عنه شيء ، يعلم صدقي.

قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ يتكلم بالحق ويلقيه إلى أنبيائه ، وهو القرآن والوحي عَلَّامُ الْغُيُوبِ يعلم ما غاب عن خلقه في السموات والأرض جاءَ الْحَقُّ أي الإسلام والتوحيد ، والقرآن الذي فيه البراهين والحجج وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ أي لا أثر للكفر أو الشرك ، فهو لا حقيقة له بدءا وإعادة. إِنْ ضَلَلْتُ عن الحق وطريقه فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي أي إثم ضلالتي يكون على نفسي فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي من القرآن والحكمة والموعظة إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مني ومنكم ، يعلم الهدى والضلالة.

ج ٢٢ ، ص : ٢٠٧

المناسبة :

بعد بيان عقاب المشركين في نار جهنم يوم القيامة وأنه يقال لهم : ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ ذكر اللّه تعالى الأسباب الموجبة للعذاب من فساد الاعتقاد ، واشتداد العناد ، وتكذيب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والقرآن والإسلام كله ، ثم أنذرهم سوء العاقبة كالذين من قبلهم من الأمم القوية ، ودعاهم إلى التأمل والتفكر الهادئ العميق في شأن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم المنذر من عذاب يوم القيامة ، وأخبرهم بأن اللّه أرسل إليهم الحق الدامغ الساطع وهو القرآن والوحي ، وما عداه هو الباطل الذي لا حقيقة ولا بقاء لأثره.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن أسباب استحقاق الكفار العقوبة وأليم العذاب ، ويذكر هنا أهمها وهي ثلاث : الطعن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وبالقرآن الكريم ، وبالدين والإسلام كله ، فيقول :

١- وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا : ما هذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ أي وإذا تليت آيات القرآن الواضحات الدلالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك ، الظاهرات المعاني ، قالوا : ما هذا أي النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم إلا رجل يريد صرفكم عن دين الآباء والأجداد من عبادة الأصنام ، دون حجة ولا برهان ، وما جاء به باطل.

٢- وَقالُوا : ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً أي وقال الكفار ثانيا : ما هذا أي القرآن إلا كذب على اللّه ، مختلق من عنده ، بقصد تضليل الأتباع.

٣- وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أي وقال الكافرون ثالثا : ما هذا الدين

والإسلام المشتمل على المعجزات والشرائع والأحكام لتنظيم الحياة الاجتماعية إلا سحر ظاهر.

ج ٢٢ ، ص : ٢٠٨

فرد اللّه عليهم مبطلا كون دينهم حقا ، ومظهرا انعدام حجتهم في اتباعه ، فقال :

وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها ، وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ أي ما أنزل اللّه على العرب من كتاب قبل القرآن يقرر لهم دينا ، وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد صلّى اللّه عليه وسلّم يدعوهم إلى الحق ، وينذرهم بالعذاب مع أنهم كانوا يقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا ، فلما منّ اللّه عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه.

وإذا كان الدين الصحيح لا يعرف إلا بوحي من عند اللّه ، وبكتاب ينزل على رسول ، فإن ادعاء المشركين أن الشرك باللّه وتقليد الأسلاف هو الدين الحق ادعاء باطل لا يعتمد على أساس ولا حجة.

(٢١٩/٢٢)

و نظير الآية كثير منها : أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ [الروم ٣٠/ ٣٥] أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ [الزخرف ٤٣/ ٢١] أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ [القلم ٦٨/ ٣٧- ٣٨].

ثم هددهم بعذاب مشابه لعذاب الأمم الظالمة من قبلهم ، فقال :

وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أي ولقد كذبت الرسل والوحي أمم سابقة من القرون الخالية كقوم نوح وعاد وثمود ، وكانوا في الدنيا أشد قوة وبأسا من العرب ، بل إن أهل مكة من مشركي قريش وغيرهم من العرب لم يبلغوا بقوتهم وكثرة ما لهم عشر ما آتينا من قبلهم من القوة وكثرة المال ، فلم يدفع عنهم عذاب اللّه ولا رده ، وإنما أهلكهم اللّه ودمرهم تدميرا ، كما قال تعالى : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَأَشَدَّ قُوَّةً [غافر ٤٠/ ٨٢].

ج ٢٢ ، ص : ٢٠٩

و ما جرى على المثيل يجري على مثيله ، لتساويهما في سبب العقاب ، فيتساويان في الحكم.

ثم نصحهم القرآن بالتأمل والتريث في الحكم على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال تعالى :

(٢٢٠/٢٢)

قُلْ : إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا : ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ أي أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه ، وآمركم وأنصحكم بخصلة واحدة : هي قيامكم في طلب الحق بالفكرة الصادقة ، والتأمل الذاتي المجرد المخلص ، دون تأثر بهوى أو عصبية ، متفرقين اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا لأن الاجتماع والتجمهر يشوّش الفكر ، وينشر الغوغائية والفوضى ، ويثني الفكر عن الصواب ، ثم ينصح بعضكم بعضا بإخلاص أن ينظر ويتفكر في حقيقة أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وما جاء به من الكتاب ، فإنكم حينئذ تعلمون أن صاحبكم ليس بساحر ولا مجنون ليس في أحواله ولا تصرفاته ما يدل على ذلك ، وإنما هو نبي مؤيد من عند اللّه بالمعجزات الدالة على صدقه.

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ أي وما هذا الرسول إلا منذركم ومخوفكم ما تستقبلونه من عذاب شديد على النفوس يوم القيامة. وجعل إنذاره بين يدي العذاب إشارة إلى قرب العذاب لأنه بعث قرب الساعة ،

روى الإمام أحمد حديثا هو : « بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقني » .

و

روى البخاري عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال : « صعد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الصّفا ذات يوم ، فقال : يا صباحاه ، فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟

فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبّحكم أو يمسّيكم ، أما كنتم تصدقوني ؟

قالوا : بلى ، قال صلّى اللّه عليه وسلّم : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبّا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل اللّه عز وجل : تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ ، وَتَبَّ [المسد ١١١/ ١].

ج ٢٢ ، ص : ٢١٠

قال الرازي : ذكر الأصول الثلاثة في هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل ، فقوله : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ إشارة إلى التوحيد ، وقوله :

ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ إشارة إلى الرسالة ، وقوله :

بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ إشارة إلى اليوم الآخر.

ولما نفى تعالى عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الجنون المستلزم كونه نبيا ، ذكر سببا آخر يلزم منه أنه نبي : وهو عناؤه الشديد في دعوته لا لغرض دنيوي عاجل ، وإنما بقصد الثواب الأخروي ، فقال :

قُلْ : ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أي قل أيها الرسول للمشركين : لا أريد منكم أجرا ولا عطاء على أداء رسالة اللّه عز وجل إليكم ، ونصحي لكم ،

وأمري بعبادته تعالى ، إنما أطلب ثواب ذلك من عند اللّه تعالى ، واللّه عالم بجميع الأمور ، من صدقي في تبليغ الرسالة ، وما أنتم عليه.

ثم صرح تعالى بأن ما جاء به هذا الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم إنما هو وحي من عند اللّه ، فقال : قُلْ : إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ ، عَلَّامُ الْغُيُوبِ أي قل للمشركين : إن اللّه يرسل الملك بالوحي إلى من يشاء من عباده ، فمن يصطفيهم لرسالته ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

وهذا كما قال تعالى : يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ [غافر ٤٠/ ١٥] وقال سبحانه : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ [الأنعام ٦/ ١٢٤].

وبعد أن ذكر اللّه تعالى أنه يقذف بالحق بصيغة الاستقبال ، أخبر أن ذلك الحق قد جاء فقال :

قُلْ : جاءَ الْحَقُّ ، وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ أي قل للمشركين : جاء الدين الحق وهو الإسلام والقرآن والتوحيد ، وهو الذي سيعلو على سائر الأديان ، ويمحق اللّه الباطل ويذهب أثره ، فلا يبقي منه شيئا ، كما قال تعالى :

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ ، فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذا هُوَ زاهِقٌ [الأنبياء ٢١/ ١٨].

روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي « أنه لما دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ : وَقُلْ : جاءَ الْحَقُّ ، وَزَهَقَ الْباطِلُ ، إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً [الإسراء ١٧/ ٨١] ، وقُلْ جاءَ الْحَقُّ ، وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ.

ثم أكد اللّه تعالى تقرير الرسالة ، وأعلن القول الفصل بين النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وبين المشركين ، فقال :

قُلْ : إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي ، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ أي قل أيها النبي لأولئك المشركين : إن ضللت عن الهدى وطريق الحق ، فإن إثم ضلالي وضرره على نفسي ، وإن عرفت طريق الهداية فمما أوحى إلي ربي من الخير والحق والاستقامة ، إنه سميع لقولي وأقوالكم ، قريب مني ومنكم ، يعلم الهدى والضلالة ، ويجازي كل إنسان بما يستحق.

فالخير كله من اللّه عز وجل ، وفيما أنزله من الوحي والحق المبين الذي فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يلي :

١- العدل والحق المطلق أهم مزية الحكم الإلهي ، فلا يظلم اللّه أحدا ،

ج ٢٢ ، ص : ٢١٢

و لا يعاقب إلا بأسباب موجبة للعقاب ، وأهم الأسباب التي استحق بها المشركون نار جهنم : الطعن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وبالقرآن المجيد ، وبالدين والإسلام نظام البشرية الأمثل ، وقانونها الأعدل والأحكم.

٢- لا حجة للمشركين في الإشراك باللّه إلا تقليد الأسلاف واتباع الآباء والأجداد ، دون حجة عقلية ولا برهان منطقي مقبول.

(٢٢٣/٢٢)

٣- ليس للمشركين ما يعتمدون عليه أيضا من الأدلة النقلية ، فليس لهم كتاب يقرءون فيه بطلان ما جاء به النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولم يسمعوا شيئا عن دينهم من رسول بعث إليهم ، فلا وجه لتكذيبهم ولا شبهة يتمسكون بها ، كشبهة أهل الكتاب وإن كانت باطلة ، الذين يقولون : نحن أهل كتاب وشرائع ، ومستندون إلى رسل من رسل اللّه.

والخلاصة : أنه ليس للمشركين على شركهم حجة عقلية ولا نقلية.

٤- لم يبق أمام موقف أولئك المشركين المتشدد المعاند إلا توعدهم على تكذيبهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم والقرآن بما حلّ من العذاب بالأمم الغابرة كعاد وثمود ، الذين كانوا أشد من أهل مكة المشركين بطشا ، وأكثر أموالا وأولادا ، وأوسع عيشا ، فأهلكهم اللّه ، بل إنهم ما بلغوا عشر ما أوتي من قبلهم من تلك الأمم.

٥- وبجانب الوعيد فهناك للكلمة المتأنية والفكرة الهادئة دور حيوي ، لذا دعاهم اللّه تعالى أيضا إلى إعمال الفكر ، لا بنحو جماهيري جماعي غوغائي ، وإنما بطريق ثنائي أو فردي يدعو إلى الهدوء والتروي والمناقشة المنطقية المقبولة ، وذلك في توحيد اللّه مصدر السعادة ، وفي حقيقة النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، بدراسة تاريخ حياته المعاصرة لهم ، فهل جربوا عليه كذبا ، أو رأوا فيه جنونا وخللا عقليا ، وهل في أحواله وتصرفاته من فساد وشذوذ وانحراف ، وهل كان يتردد إلى من يدّعي العلم بالسحر ، وهل تعلّم الأقاصيص وقرأ الكتب ، وهل عرفوه طامعا في

ج ٢٢ ، ص : ٢١٣

أموالهم ، وهل هم قادرون على معارضة القرآن المنزل عليه في سورة واحدة ؟ ! فإذا عرفوا بهذه

التأملات والدراسة الواقعية صدقه ، فما بال هذه المعاندة والمعارضة له ؟
٦- لم يكن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلا مبشرا من أطاعه بالجنة ، ومنذرا من عصاه بنار جهنم يوم القيامة.

(٢٢/٢٢٤)

٧- وأيضا إن عناء النبي الشديد في تبليغ دعوته دون أن يأخذ من أحد أجرا على تبليغ الرسالة دليل واقعي على صدق نبوته ، فهو لا يريد إلا الأجر والثواب من عند ربه ، وهذا دليل الإخلاص ، واللّه رقيب على كل أعماله وأعمالهم ، وعالم بها لا يخفى عليه شيء ، فهو يجازي الجميع بما يستحقون.
٨- اللّه
ى
يا محمد ، وجواب لَوْ محذوف ، تقديره : لرأيت مدهشا أو عجبا إِذْ فَزِعُوا عند البعث. والفزع : انقباض في النفس عند الأمر المخيف فَلا فَوْتَ أي فلا يفوت أحد منهم ، ولا ينجو منهم ناج وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ أي من القبور أو من موقف الحساب ، فهم قريبون من اللّه ، لا يفوتونه.
آمَنَّا بِهِ أي بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم أو بالقرآن التَّناوُشُ تناول الإيمان تناولا سهلا مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ عن محله ، إذ هم في الآخرة ، ومحله والتكليف به في الدنيا. كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ أي
ج ٢٢ ، ص : ٢١٥
كفروا بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم أو بالعذاب في الدنيا قبل ذلك أوان التكليف وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ يرجمون أو يرمون بالظن الذي لا دليل عليه ، تقول العرب لكل من لم يتيقن أمرا : يقذف بالغيب ، أي يرمي به مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ من جهة بعيدة ، ليس فيها مستند لظنهم الباطل ، وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئا لا يراه من مكان بعيد. والمراد أنهم يتكلمون في شأن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من المطاعن أو في العذاب من الجزم بنفيه ، حيث قالوا في النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : ساحر ، شاعر ، كاهن ، وفي القرآن : سحر ، شعر ، كهانة.

(٢٢/٢٢٥)

وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ من قبول الإيمان ، أو الرجوع إلى الدنيا ، أو من أموالهم وأهليهم في الدنيا كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ أي فعل بأمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية ، من قبلهم ، والأشياع : جمع شيع : وهذا جمع شيعة : وهي أنصار المذهب المتشيعين له فِي شَكٍّ مُرِيبٍ موقع في

الريبة والظن ، في أمر الرسل وما دعوا إليه من التوحيد ، والبعث والجنة والنار.
ومريب : يحتمل وجهين : الأول : موقع في الريب والتهمة ، والثاني : ذي ريب.
المناسبة :
بعد بيان أسباب العذاب ، والرد على شبهات الكفار ، هددهم اللّه تعالى وأنذرهم بشديد العقاب يوم القيامة ، ثم أخبر عن إيمانهم حين معاينة العذاب يوم لا ينفع إيمان ، لفوات الأوان ، وكفرهم باللّه وبرسوله وكتابه من قبل.
التفسير والبيان :
وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ ، وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ أي لو رأيت يا محمد هؤلاء الكفار حين خافوا عند البعث ، وخروجهم من القبور ، ورؤيتهم ألوان العذاب الشديد ، لرأيت أمرا عجبا ، فهم لا يتمكنون من الهرب ولا فوت ، أي لا مفر لهم ولا ملجأ لهم من العذاب ، وأخذوا لأول وهلة حين الفزع من القبور وموقف الحساب إلى نار جهنم ، كما قال تعالى : وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً ، إِنَّا مُوقِنُونَ [السجدة ٣٢/ ١٢].
وَقالُوا : آمَنَّا بِهِ ، وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ أي وقال الكفار
ج ٢٢ ، ص : ٢١٦

(٢٢٦/٢٢)

حينئذ : آمنا باللّه وملائكته وكتبه ورسله وآمنا بالقرآن والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وكيف لهم تعاطي الإيمان ، وقد بعدوا عن محل قبوله لأن الدار الآخرة وهي دار الجزاء ليست بدار التكليف أو دار الابتلاء ، وإنما الدنيا هي مدار التكاليف من الإيمان والعمل الصالح. أو كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب ، والإيمان لا يكون إلا في الدنيا ، وهم في الآخرة ، والدنيا من الآخرة بعيدة ؟ ! وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة ، وقد كفروا بالحق في الدنيا ، وكذبوا الرسل ؟
وكانوا يرجمون بالظن ويتكلمون بما لا مستند لهم فيه ، فتارة يقولون في الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم : شاعر ، أو كاهن ، أو ساحر ، أو مجنون ونحو ذلك من الأباطيل ، وتارة يقولون في القرآن : سحر ، أو شعر ، أو كهانة ، أو إفك مفترى ، وتارة يقولون : لا بعث ولا جنة ولا نار ولا حساب ولا جزاء ، وما نحن بمعذبين.
وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ أي قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا ، وبين ما طلبوه في الآخرة ، فمنعوا منه ، مثل قبول الإيمان ، والفرار من العذاب ، أو الرجوع إلى الدنيا ، أو اصطحاب أموالهم

وأهليهم ، كما قال تعالى :

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا [غافر ٤٠/ ٨٤- ٨٥].

كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ هذا بيان سنة اللّه في أمثالهم ، وعلة تعذيبهم ورفض قبول إيمانهم ، والمعنى : لقد فعلنا بهم كما فعلنا في أمثالهم ونظرائهم من كفار الأمم الماضية ، إنهم كانوا جميعا في الدنيا في شك مغرق في الريبة في أمر الرسل وما جاؤوا به من التوحيد ، وإثبات البعث والجزاء ، والشرائع والأحكام.

(٢٢٧/٢٢)

ج ٢٢ ، ص : ٢١٧

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- هذه صورة كئيبة محزنة من أحوال الكفار في وقت اضطرارهم إلى معرفة الحق ، فتراهم في أسوأ حال وأعجبه حين يستبد بهم الفزع والخوف ويتملكهم عند نزول بأس اللّه تعالى بهم ، ومعاينة العذاب والعقاب يوم القيامة ، حيث لا مفر ولا مهرب ولا نجاة لهم ، وأخذوا من حيث كانوا في موقف الحساب إلى النار ، فهم من اللّه قريب لا يعزبون عنه ولا يفوتونه.

٢- في هذه الحالة الرهيبة يعلنون الإيمان بالقرآن والنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والبعث ، ولكن كيف لهم تعاطي الإيمان وتناوله في الآخرة ، وقد كفروا في الدنيا ؟ ! ٣- إنهم كفروا باللّه عز وجل وبالقرآن وبمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم في الدنيا ، ويرجمون بالظن ، ويتكلمون بالأوهام كحال من يرمي شيئا لا يراه من مكان بعيد ، فلا يصيبه ، فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، رجما منهم بالظن ، ويقولون في القرآن : سحر ، وشعر ، وأساطير الأولين ، ويقولون في محمد صلّى اللّه عليه وسلّم : ساحر ، شاعر ، كاهن ، مجنون.

٤- والنهاية المحتومة : الحيلولة بينهم وبين النجاة من العذاب ، ومن الرجوع إلى الدنيا ، ومما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم. وذلك المصير مشابه لمصير أمثالهم ممن مضى من القرون السالفة الكافرة ، إنهم جميعا استحقوا العذاب لأنهم كانوا في شك ممعن في الريبة في أمر الرسل والبعث والجنة والنار ، بل وفي الدين كله والتوحيد.

(٢٢٨/٢٢)

ج ٢٢ ، ص : ٢١٨

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

سورة فاطر

مكيّة ، وهي خمس وأربعون آية

تسميتها :

تسمى سورة « فاطر » لافتتاحها بهذا الوصف للّه عز وجل الدال على الخلق والإبداع والإيجاد للكون العظيم ، والمنبئ عن عظمة الخالق وقدرته الباهرة. كما تسمى أيضا سورة « الملائكة » لأنها أفادت في مطلعها أيضا أن اللّه سبحانه جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه لتبليغهم رسالاته وأوامره.

مناسبتها لما قبلها :

قال السيوطي : مناسبة وضعها بعد سبأ : تآخيهما في الافتتاح بالحمد ، مع تناسبهما في المقدار.

وتظهر صلتها أيضا بما قبلها في أنه لما أبان تعالى في ختام سورة سبأ هلاك الكفار وتعذيبهم أشد العذاب ، فقال : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ ، كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ اقتضى أن يذكر ما يلزم المؤمنين من الحمد والشكر للّه تعالى على ما اتصف به من قدرة الخلق والإبداع ، وإرسال الملائكة رسلا إلى الأنبياء لتبليغ الرسالة والوحي.

مشتملاتها :

موضوع هذه السورة كموضوع سائر السور المكية في العقيدة من الدعوة إلى

ج ٢٢ ، ص : ٢١٩

توحيد اللّه ، وإقامة البراهين على وجوده ، وهدم قواعد الشرك ، والإلزام بمنهج الاستقامة على دين اللّه وأخلاق الإسلام.

وقد اشتملت هذه السورة في فاتحتها ومقدمتها على بيان الأدلة الدامغة على قدرة اللّه عز وجل بإبداع الكون ، وجعل الملائكة رسلا بينه وبين أنبيائه لتبليغ الوحي. ثم ذكّرت الناس بنعم اللّه ليشكروها ، وحذرت من وساوس الشيطان ، وأبانت الفرق المتميز بين جزاء الكفار وجزاء المؤمنين الأبرار ، وميّزت بين المؤمن والكافر بضرب المثل بالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور.

(٢٢٩/٢٢)

و أوضحت مظاهر القدرة الإلهية ، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث في سجل هذا الكون من إنزال الغيث ، وإنبات الزرع والثمار ، وخلق الإنسان في أطوار ، وعزل البحر المالح عن البحر العذب ، وتعاقب الليل والنهار ، وإيلاج أحدهما في الآخر ، وتسخير الشمس والقمر ، واختلاف ظواهر الجبال

والناس والدواب والأنعام ، ومزية العلماء.

وأعلنت إرسال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالحق بشيرا ونذيرا ، كما أرسل نذير في كل أمة ، وثبّتت قلبه بذكر قصص المكذبين السابقين للأنبياء.

وأشادت بمن يتلو كتاب اللّه ، ويقيم الصلاة ، وينفق من رزق اللّه سرا وعلانية ، وأبانت أن القرآن مصدّق للكتب السماوية السابقة ، وفاخرت بميراث الأمة الإسلامية لأشرف رسالة ، وذكرت انقسام الأمة إزاءها إلى أنواع ثلاثة :

ظالم مقصّر ، ومحسن مقتصد ، وسابق بالخيرات ، وحددت جزاء كل نوع في عالم الآخرة.

ثم ذكرت جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين ، ووصفت عاقبة كل منهم وما أعد له يوم القيامة.

ج ٢٢ ، ص : ٢٢٠

و ختمت السورة بتقريع المشركين في عبادتهم الأوثان والأصنام ، وأنذرتهم بعاقبة الذين من قبلهم الذين كانوا أشد منهم قوة ، وقرنت هذا الإنذار برحمة اللّه العامة للناس جميعا حيث لم يعاجلهم العقوبة ، وإنما يؤخرهم إلى أجل مسمى.

بعض أدلة القدرة الإلهية والتذكير بنعم اللّه وإثبات التوحيد والرسالة [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤)

الإعراب :

فاطِرِ السَّماواتِ فاطِرِ : إما صفة لاسم اللّه تعالى أو بدل.

جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا رُسُلًا : مفعول به لاسم الفاعل : جاعِلِ إذا كان مرادا به الحال أو الاستقبال لأنه حينئذ يكون عاملا ، أما إن أريد به الماضي كان رُسُلًا منصوبا بتقدير فعل.

أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ : صفة : أَجْنِحَةٍ ، وهي ممنوعة من الصرف للوصف والعدل ، فهي معدولة عن لفظ اثنين وثلاثة وأربعة.

ج ٢٢ ، ص : ٢٢١

ما يَفْتَحِ اللَّهُ ووَ ما يُمْسِكْ .. ما فيهما : شرطية منصوبة ب يَفْتَحِ ويُمْسِكْ ، وما الشرطية يعمل فيها ما بعدها كالاستفهامية لأن الشرط والاستفهام لهما صدر الكلام ، وقوله فَلا مُمْسِكَ فَلا مُرْسِلَ جواب الشرط.

هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ غَيْرُ : إما مرفوع لأنه فاعل أو صفة لخالق على الموضع ، وإما مجرور صفة لخالق على اللفظ ، وإما منصوب على الاستثناء. ويَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ خبر المبتدأ.

البلاغة :

(٢٣١/٢٢)

ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها استعارة تمثيلية ، أستعير الفتح لإطلاق النعم والإمساك للمنع.

يَفْتَحِ ويُمْسِكْ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ، من الفطر بمعنى الشق أي شق العدم بإخراج السماء والأرض جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا إلى الأنبياء ، أي وسائط بين اللّه وبين أنبيائه ، يبلغونهم رسالاته بالوحي ، والملائكة : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل أُولِي أَجْنِحَةٍ أصحاب أجنحة ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم له ثلاثة ، ومنهم له أربعة ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ أي في خلق الملائكة وغيرها. وهو استئناف للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك مقتضى مشيئته ومؤدى حكمته إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فبقدرته يزيد ما يشاء.

ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ما يعطي من نعمة حسية أو معنوية ، كرزق ومطر ، وصحة وأمن ، وعلم ونبوة وحكمة ، ونحو ذلك فَلا مُمْسِكَ لَها فلا مانع لها فَلا مُرْسِلَ لَهُ يطلقه بعد إمساكه وَهُوَ الْعَزِيزُ القوي الغالب ، يتصرف في ملكه كما يشاء الْحَكِيمُ في فعله ، يضع الأمر في موضعه المناسب ، ولا معقب لحكمه ، وكل ما يفعله فهو لحكمة بالغة.

اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ تذكروا نعمه ، واحفظوها بمعرفة حقها ، والاعتراف بها ، وطاعة المنعم بها ، ومن النعم التي كانت على أهل مكة : إسكانهم الحرم ، ومنع الغارات عنهم يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ بالمطر وغيره من فائدة الكواكب وَالْأَرْضِ بالنبات وغيره من المعادن ، والاستفهام في

ج ٢٢ ، ص : ٢٢٢

(٢٣٢/٢٢)

قوله : هَلْ مِنْ خالِقٍ ... يَرْزُقُكُمْ ... للتقرير ، أي لا خالق رازق غيره فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فكيف تصرفون عن توحيد الخالق ، مع إقراركم بأنه الخالق الرازق.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ يا محمد في دعوتك إلى التوحيد والبعث والحساب والعقاب فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ في ذلك ، فاصبر كما صبروا. وفي هذا دعوة له للتأسي بمن قبله من الأنبياء ، وتسلية عن تكذيب كفار العرب له وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أي المصير النهائي المحتوم إلى اللّه ، فيجازي كلا بما يستحقه ، يجازي المكذبين ، وينصر المرسلين.

التفسير والبيان :

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي للّه الشكر الخالص على نعمه وقدرته ، فإنه خلق السموات والأرض وأبدعهما ، لا على مثال سابق ، وأحكم نظامهما. فموضوع الآية : أن اللّه تعالى يحمد نفسه على عظيم قدرته وعلمه وحكمته التي يشهد عليها ابتداء خلق السموات والأرض من العدم ، واختراعهما على غير مثال ، قال سفيان الثوري بسنده عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : « كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : هذه بئري وأنا فطرتها » أي بدأتها.

والمقصود من هذا أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم ، فهو قادر على الإعادة.

جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ أي إنه تعالى جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه لتبليغ رسالاته وغير ذلك ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، وهم ذوو أجنحة متعددة ، بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة ، وبعضهم له أربعة ، وبعضهم له أكثر من ذلك ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء.

(٢٣٣/٢٢)

جاء في الحديث الصحيح عن مسلم عن ابن مسعود « أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم رأى جبريل عليه السلام ، وله ستّ مائة جناح ، بين كل جناحين ، كما بين المشرق والمغرب » .

ولهذا قال جلّ وعلا :

ج ٢٢ ، ص : ٢٢٣

يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أي يزيد في خلق الملائكة أجنحة أخرى ما يشاء ، ويزيد في خلق غيرهم ما يشاء ، من ملاحة العين ، وحسن الأنف ، وحلاوة الفم ، وجمال الصوت ،

إن اللّه كامل القدرة في خلق الزيادة المادية الحسية والمعنوية ، فلا يعجز عن شيء ، وبقدرته يزيد مما يشاء.

قال الزهري وابن جريج في قوله تعالى : يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ :

يعني حسن الصوت « ١ » .

وبعد بيان كمال القدرة بيّن اللّه تعالى أنه نافذ الإرادة والمشيئة والأمر ، فقال :

ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

أي ما يعطي اللّه تعالى من نعمة حسيّة أو معنوية من رزق ومطر ، أو صحة وأمن ، أو علم ونبوة وحكمة ، فلا مانع له ، وما يمنع من ذلك فلا يقدر أحد أن يرسله من بعد إمساكه ، بيده الخير كله ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ،

روى الإمام أحمد والشيخان عن المغيرة بن شعبة : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان إذا انصرف من الصلاة ، قال : « لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كلّ شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » .

و

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع اللّه لمن حمده ، اللهم ربّنا لك الحمد ملء السّماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق

---

(١) رواه عن الزّهري البخاري في الأدب وابن أبي حاتم في تفسيره.

ج ٢٢ ، ص : ٢٢٤

ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » .

ونظير الآية قوله تعالى : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ، فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ [الأنعام ٦/ ١٧].

وفي موطأ مالك : بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح ، وقد مطر الناس : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يتلو هذه الآية : ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ، فَلا مُمْسِكَ لَها.

وبعد بيان كونه تعالى مصدر الخلق والرزق والنعم ، أمر بتذكر نعمه والإقرار بالتوحيد فقال :

يا أَيُّهَا النَّاسُ ، اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أي يا أيها الناس قاطبة ، تذكروا نعم اللّه عليكم ، وارعوها ، واحفظوها بمعرفة حقوقها والاعتراف بها ، وأفردوا موجدها بالعبادة والطاعة ، فهو وحده رازقكم من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات وغير ذلك ، وأعلنوا توحيد اللّه وأنه لا إله إلا هو ، وإذا أقررتم بذلك ، فكيف بعد هذا البيان ووضوح البرهان تصرفون عن الحق : وهو توحيد اللّه وشكره ، وتعبدون بعد هذا الأنداد والأوثان ؟ ! وبعد تقرير الأصل الأول وهو التوحيد ، قرر اللّه تعالى الأصل الثاني وهو الرسالة ، فقال مسلّيا رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم عن تكذيب قومه :

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ، فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أي وإن يكذّبك يا محمد هؤلاء المشركون ، ويعارضونك فيما جئت به من التوحيد ، بعد إثباته بالأدلة والبراهين ، فتأسّ بمن سلف قبلك من الرّسل ، فإنهم أيضا جاؤوا قومهم بالبيّنات وأمروهم بالتوحيد ، فكذبوهم وخالفوهم ، ومصير

ج ٢٢ ، ص : ٢٢٥

الجميع في النهاية إلى اللّه ، فيجازي على ذلك أوفر الجزاء ، يجازيك على صبرك ، ويجازيهم على التكذيب.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- اللّه تعالى هو مستحق الحمد والشكر على قدرته ونعمه وحكمته ، وقد ذكرت سابقا أن هذه السورة- كما ذكر الرازي- إحدى السّور القرآنية الأربع المبدوءة بالحمد ، فسورة الأنعام إشارة بالحمد إلى النعمة العاجلة وهي الإيجاد ، وسورة الكهف إشارة بالحمد إلى النعمة العاجلة وهي الإبقاء ، وسورة سبأ إشارة بالحمد إلى نعمة الإيجاد الثاني وهو الحشر ، وهذه السورة إشارة بالحمد إلى نعمة البقاء في الآخرة ، بدليل قوله تعالى : جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أي يجعلهم رسلا يتلقون عباد اللّه تعالى.

٢- اللّه سبحانه هو مبدع السموات والأرض على غير مثال سبق ، وهو جاعل الملائكة ذوي أجنحة من اثنين إلى ثلاثة فأربعة ، فأكثر ، للطيران والتحليق هبوطا وصعودا بين السماء والأرض ، وجاعلهم رسلا إلى الأنبياء ، أو إلى العباد برحمة أو نقمة في الدنيا ، ولتلقي عباد اللّه في الآخرة كما ذكر الرازي.

٣- اللّه تعالى هو الذي يزيد في مخلوقاته ما يشاء ، سواء في خلق الملائكة ، بالأجنحة الكثيرة ، أو

في الزيادة المادية الحسية أو المعنوية في خلق الناس ، كالتميز بأنواع الجمال المختلفة في العينين والأنف والفم ونحوها ، وحسن الصوت ، وجمال الخط أو الكلام أو النّطق.

٤- اللّه عزّ وجلّ تامّ القدرة على كل شيء بالنّقصان والزّيادة ، والإيجاد والإعدام ، وغير ذلك.

ج ٢٢ ، ص : ٢٢٦

قال الزمخشري في آية يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ .. : الآية مطلقة تتناول كلّ زيادة في الخلق من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل ، وجزالة في الرأي ، وجرأة في القلب ، وسماحة في النفس ، وذلاقة في اللسان ، ولباقة في التّكلّم ، وحسن تأتّ « ١ » في مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف « ٢ » .

(٢٣٧/٢٢)

٥- اللّه عزّ وجلّ نافذ المشيئة والإرادة والأمر ، فإذا منح نعمة لأحد ، فلا يقدر أحد أن يمنعها ، وإذا حرم أحدا نعمة ، لم يستطع أحد إعطاءه إياها.

وبما أن الرّسل بعثوا رحمة للناس ، فلا يقدر على إرسالهم غير اللّه ، وأي شيء يمسك اللّه فلا أحد يقدر على إطلاقه.

وتنكيره الرحمة : مِنْ رَحْمَةٍ يفيد العموم والشمول ، والإشاعة والإبهام ، فهي متناولة لكل رحمة ، سماوية كانت أو أرضية.

٦- على الناس شكر نعمة اللّه عليهم ، بحفظها وأداء حقها وذكرها باللسان والقلب ، وإفراد المنعم بالطاعة والعبادة والثناء عليه بما هو أهله ، وإنهاء التعلق بالأصنام والأوثان وجعلها شركاء للّه ، وهو أبطل الباطل الذي لا يقره العقل المتحضر ، ولا الإنسان المتمدن.

٧- لا أحد على الإطلاق يأتي بالرزق ، فاللّه تعالى مصدر الرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات.

٨- يجب على الخلق جميعا إعلان توحيد اللّه ، فالوحدانية في صحيفة الكون ، في الضمير والوجدان ، ومقتضى الفطرة ، وفي ميزان العقل الراقي. _____

(١) التأتي في الأمور : التّرفق لها ، وإتيانها من وجهها ، وعلاجها بحكمة.

(٢) الكشاف : ٣/ ٥٦٩

ج ٢٢ ، ص : ٢٢٧

٩- إذ أثبت العقل ودلّت آيات القرآن والكون وحدانية اللّه ، فكيف يصحّ للبشر الانصراف عن هذا الظاهر ، وكيف يشركون المنحوت بمن له الملكوت ؟ ! ١٠- إثبات التوحيد يستتبع إثبات الرسالة

وصدق نبوة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالمعجزات الظاهرة ، وأعلاها وأخلدها القرآن العظيم.
وإذا كذب بعض الناس قديما وحديثا رسول اللّه ، فقد كذب الكفار عبر التاريخ أنبياءهم ، وتلك ظاهرة عامة ، وما على الرسول وأتباعه إلا التّأسّي بمن سبق في الصبر ، والنهاية الحتمية المصيرية إلى اللّه ، فيجازي الجميع بما يستحقون.

(٢٣٨/٢٢)

تقرير الحشر والتحذير من الشيطان وجزاء الكافرين والمؤمنين [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٥ الى ٨]
يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (٨)
الإعراب :
الَّذِينَ كَفَرُوا .. الَّذِينَ : إما بدل مجرور من أَصْحابِ وإما بدل منصوب من حِزْبَهُ وإما بدل مرفوع من ضمير لِيَكُونُوا. وَالَّذِينَ آمَنُوا مبتدأ ، خبره : لَهُمْ مَغْفِرَةٌ.
حَسَراتٍ إما مفعول لأجله ، أو منصوب على المصدر. وقرئ بالإمالة مع فتحة الراء وإمالتها ، فمن قرأ بفتح الراء أتى بها على الأصل ، ومن أمال فلأن الألف بدل عن الياء ، ثم أتبع الراء إمالة الهمزة ، والإتباع للمجانسة كثير في كلام العرب.
ج ٢٢ ، ص : ٢٢٨
البلاغة :
يُضِلُّ ويَهْدِي بينهما طباق.
الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ بينهما مقابلة وهي كالطباق إلا أنها تكون في أكثر من شيئين.
أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ، فَرَآهُ حَسَناً حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه ، أي كمن لم يزين له سوء عمله ؟ ودلّ على المحذوف بقية الآية : فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ .. وفَمَنْ مبتدأ ، وخبره :
كمن هداه اللّه.

(٢٣٩/٢٢)

فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ثم قال : وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ إطناب بتكرار الفعل.

فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ كناية عن الهلاك لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان.

السَّعِيرِ كَبِيرٌ سجع مؤثر على السمع.

المفردات اللغوية :

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي إن وعده بالبعث والجزاء أو الحشر والعقاب لا خلف فيه.

فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا لا تلهينكم ويذهلنكم التمتع بها عن الإيمان بالحشر وعن طلب الآخرة والسعي لها. وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ في حلمه وإمهاله. الْغَرُورُ الشيطان ، بأن يمنيكم المغفرة ، مع الإصرار على المعصية.

إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ عداوة عامة قديمة. فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا بطاعة اللّه ، ولا تطيعوه في المعاصي ، واحذروه في كل الأحوال. إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ أي إنما يدعو أصحابه وأتباعه المتحزبين له ، والمطيعين له ، إلى المعاصي والكفر ، لأجل أن يكونوا من أهل النار الشديدة ، لعداوته لآدم وذريته. وهذا تقرير لعداوته وبيان لغرضه في دعوة أشياعه إلى اتّباع الهوى والركون إلى الدنيا.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وعيد لمن أجاب دعاء الشيطان ، ووعد لمن خالفه بالإيمان والعمل الصالح بمغفرة الذنوب والأجر الكبير وهو الجنة.

أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً أي من غلب وهمه على عقله ، فرأى عمله السيء صوابا ، والباطل حقا ، والقبيح حسنا ، كمن لم يزين له ؟ حذف الجواب لدلالة : فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ

مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ

أي من شاء اللّه إضلاله أضلّه ، ومن شاء هدايته هداه. فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ أي عليه وهو المزين له ، والمعنى : فلا تهلك نفسك باغتمامك على غيّهم وكفرهم وإصرارهم على التكذيب.

والحسرة : همّ النفس على فوات أمر ، أي التلهف عليه. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ فيجازيهم عليه لأنه لا تخفى عليه خافية من أفعالهم وأقوالهم.

سبب النزول : نزول الآية (٨) :

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ :

أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : أنزلت هذه الآية : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ حيث قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم :

« اللهم أعزّ دينك بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل بن هشام » فهدى اللّه عمر ، وأضلّ أبا جهل ، ففيهما أنزلت.

المناسبة :

بعد بيان الأصل الأول وهو التوحيد ، والأصل الثاني وهو الرسالة ، ذكر اللّه تعالى الأصل الثالث وهو الحشر أو البعث والنشور ، والحساب والعقاب ، وقرر أنه حق لا شك فيه ، وحذر من وسواس الشيطان في تشكيك الناس بالإيمان به ، ثم صنّف الناس إزاءه صنفين : حزب الشيطان الذين لهم العذاب الشديد ، وحزب الرحمن الذين لهم المغفرة والأجر الكبير وهو الجنة. ثم أبان قضية جوهرية وهي أن الضلال والهدى بيد اللّه حسبما يعلم من استعداد النفوس للأول أو الثاني.

التفسير والبيان :

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ يا أيها البشر جميعا إن وعد اللّه بالبعث والجزاء حقّ ثابت مؤكد

ج ٢٢ ، ص : ٢٣٠

(٢٢/٢٤١)

لا شك فيه ، والمعاد كائن لا محالة ، فلا تتلهوا بزخارف الدنيا ونعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة ، ولا يغرنكم الشيطان باللّه ، فيجعلكم تعيشون في الأوهام والآمال المعسولة ، قائلا لكم : إن اللّه يتجاوز عنكم ، ويغفر لكم ، لسعة رحمته ، فتنزلقوا في المعاصي ، وتسرفوا في المخالفات ، فإنه غرّار كذّاب أفّاك.

وهذه الآية كآية آخر سورة لقمان : فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ، وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ.

ثم بيّن اللّه تعالى علّة عدم الاغترار بالشيطان وهي عداوة إبليس لابن آدم ، فقال :

إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا أي إن عداوة الشيطان لكم عداوة قديمة عامة ظاهرة ، فعادوه أنتم أشدّ العداوة ، وخالفوه وكذّبوه فيما يغركم به ، بطاعة اللّه ، ولا تطيعوه في معاصي اللّه تعالى.

ثم ذكر اللّه تعالى أغراض الشيطان ومقاصده الخبيثة فقال :

إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب النار الشديد الدائم.

جاء في حديث عبد اللّه بن مسعود الذي أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن للشيطان لمّة « ١ » بابن آدم وللملك لمّة ، فأما لمّة الشيطان فإيعاد بالشّرّ وتكذيب بالحقّ ، وأما لمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ » .

ثم ذكر تعالى جزاء حزب الشيطان وحزب الرحمن فقال :

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ أي إن الذين كفروا باللّه ورسوله وأنكروا البعث ، واتبعوا وساوس الشيطان ، لهم عذاب شديد في نار جهنم لأنهم أطاعوا الشيطان ، وعصوا الرحمن.

---

(١) اللمة : الخطرة التي تقع في القلب.

ج ٢٢ ، ص : ٢٣١

(٢٤٢/٢٢)

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ أي والذين صدقوا باللّه ورسوله وباليوم الآخر ، وعملوا صالح الأعمال من اتّباع الأوامر واجتناب النواهي ومخالفة الشيطان وهوى النفس ، لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير وهو الجنة ، بسبب الإيمان والعمل الصالح وعمل الخير.

ثم بيّن تعالى الفرق بين الصنفين ، فليس من عمل سيّئا كالذي عمل صالحا ، فقال :

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً أي كيف يتساوى المسيء والمحسن ، وهل يكون أولئك الكفار الفجار الذين بتزيين الشيطان وتحسين القبيح يعملون أعمالا سيّئة من كفر ووثنية وعصيان ، معتقدين أنهم يحسنون صنعا ، كالذين كانوا على الهدى ، ويعلمون أنهم على الحق ؟ ! والمراد بمن زين له سوء عمله : كفار قريش وأمثالهم.

وسبب ذلك ما قال تعالى :

فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ أي من شاء اللّه إضلاله أضلّه ، ومن شاء هدايته هداه ، لما له في ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التامّ ، وتبعا لعلمه باستعداد النفوس للخير والشّر.

ثم سلّى تعالى رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم حيث حزن من إصرار قومه على الكفر ، فقال :

فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ أي لا تغتم ولا تأسف ولا تهلك نفسك على عدم إيمانهم ، وإصرارهم على الكفر ، واستمرارهم على الضلال ، فاللّه عليم بأحوالهم واستعداداتهم ، وعليم بما يصنعون من المنكرات والقبائح لا تخفى عليه خافية ، فيجازيهم بما يستحقون. وهذا وعيد كاف.

وزجر بليغ إن أدركوا أبعاده ومراميه.

ج ٢٢ ، ص : ٢٣٢

(٢٤٣/٢٢)

و نظير الآية كثير ، منها قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً [الكهف ١٨/ ٦] ومنها : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [الشعراء ٢٦/ ٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١- بعد إيضاح الدّليل على إثبات البعث والحشر ذكر اللّه تعالى مبدأ عاما في الاعتقاد : وهو أن البعث والثواب والعقاب حق لا مرية فيه ، ولا بدّ من حصوله.

٢- وفي ضوء هذا المنظور الأخروي في عقيدة الإسلام الراسخة ، على الإنسان ألا تلهيه الدنيا وزخارفها عن العمل للآخرة ، وألا يغترّ بوساوس الشيطان ، فإنه أفّاك كذّاب ، قال سعيد بن جبير : غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذّاتها عن عمل الآخرة ، حتى يقول : يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي [الفجر ٨٩/ ٢٤].

٣- إن عداوة الشيطان للإنسان عامة قديمة ، فيجب الحذر منه ، ومعاداته وعدم إطاعته ، ودليل عداوته : إخراجه أبانا آدم من الجنة ، وإصراره على إضلال الإنسان وضمانه ذلك في قوله : وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ [النساء ٤/ ١١٩] ، وقوله : لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ [الأعراف ٧/ ١٦- ١٧].

٤- إن هدف الشيطان الدّال على عداوته للإنسان أيضا دعوة حزبه أي أشياعه وأتباعه ليكونوا معه في نار جهنم الشديدة الاستعار.

٥- هناك فرق واضح بين المسيء والمحسن ، فلا يسوّى بين من زيّن له

الشيطان عمله السيء فأطاعه ، وبين من هداه اللّه للخير ، فاتّبع أوامر اللّه تعالى.

والفريق الأول يشمل كل الكفار من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان والأصنام والشيطان ونحو ذلك.

٦- إن الإضلال والهداية من اللّه بحسب ماله من العلم التامّ المسبق بكل إنسان ، وما لديه من استعداد للشّرّ أو للخير.

٧- لا داعي للأسف والاغتمام على إصرار الكفار على كفرهم ، ولا ينفع التأسف على مقامهم على كفرهم ، فإن اللّه عليم بصنعهم القبائح ، وسيجازيهم على أفعالهم.

من دلائل القدرة الإلهية لإثبات البعث [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٩ الى ١١]

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)

الإعراب :

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ الهاء تعود على الكلم ، أي والعمل الصالح يرفع الكلم ، وقيل :

تعود على العمل ، أي والعمل الصالح يرفعه اللّه ، ولو صح هذا القول لكان يلزم نصب كلمة الْعَمَلُ.

ج ٢٢ ، ص : ٢٣٤

وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ السَّيِّئاتِ : إما مفعول يَمْكُرُونَ بمعنى يعملون ، أو منصوب على المصدر لأن معنى يَمْكُرُونَ : يسيئون ، أو وصف لمصدر محذوف ، أي يمكرون المكرات السيئات ، ثم حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه. وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ مَكْرُ مبتدأ وخبره يَبُورُ وهو : فصل بين المبتدأ والخبر ، ويجوز الفصل إذا كان الفعل مضارعا.

البلاغة :

(٢٢/٢٤٥)

وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، فَتُثِيرُ سَحاباً ، فَسُقْناهُ سقناه : التفات من الغيبة إلى التكلم للإشعار بالعظمة.

تَحْمِلُ وتَضَعُ بينهما طباق ، وكذا بين يُعَمَّرُ ويُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ.

المفردات اللغوية :

أَرْسَلَ أطلق وأوجد من العدم. فَتُثِيرُ سَحاباً تزعجه وتحركه ، وأتى بالمضارع حكاية للحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة. إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ بالتخفيف ، أو ميّت بالتشديد : لا نبات فيه ، ويرى بعضهم : أن الميت بالتخفيف : هو الذي مات ، والميّت بالتشديد ، والمائت : هو الذي لم يمت بعد. بَعْدَ مَوْتِها يبسها ، وأحيينا به الأرض : معناه أنبتنا بالمطر الزرع والكلأ. كَذلِكَ النُّشُورُ أي كذلك يحيى اللّه العباد بعد موتهم ، كما أحيا الأرض بعد موتها. والنُّشُورُ البعث والإحياء ، يقال : نشر اللّه الميت وأنشره ، أي أحياه.

(٢٢/٢٤٦)

الْعِزَّةَ الشرف والجاه والمنعة. فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً أي فليطلبها من عند اللّه ، فإن له كل العزة في الدنيا والآخرة ، ولا تنال منه العزة إلا بطاعته ، فليطعه. إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ مجاز يراد به قبول اللّه له ، أو علمه به ، والْكَلِمُ الطَّيِّبُ هو التوحيد (لا إله إلا اللّه) وكل كلام طيب من ذكر اللّه ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وتلاوة قرآن ودعاء وغير ذلك. وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ أي والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، كما لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح. والْعَمَلُ الصَّالِحُ ما كان بإخلاص ، ويَرْفَعُهُ يقبله. وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ أي الذين يعملون السيئات في الدنيا على وجه المكر والخديعة ، كالمكر بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه ، كما ذكر في الأنفال ، أو مراءاة المؤمنين في أعمالهم بإيهامهم أنهم مطيعون للّه. يَبُورُ يبطل ويفسد ولا ينفذ ، من البوار : الهلاك.

خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ أي خلق أباكم آدم من تراب. نُطْفَةٍ مني يخلق ذريته منه. ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً ذكرانا وإناثا. إِلَّا بِعِلْمِهِ أي لا يخرج شيء عن علمه وتدبيره ، وهو حال ، أي

ج ٢٢ ، ص : ٢٣٥

معلومة له. وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ أي لا يزاد ولا يطول من عمر أحد ، ولا ينقص من عمر معمر آخر ، وذلك بحسب العرف والعادة الشائعة بين الناس. إِلَّا فِي كِتابٍ أي في صحيفة المرء في اللوح المحفوظ ، وتطويل العمر وتقصيره : هما بقضاء اللّه وقدره ، لأسباب تقتضي التطويل أو التقصير ، فمن أسباب التطويل : صلة الرحم ، ومن أسباب التقصير : الاستكثار من معاصي اللّه عز وجل. إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أي لا يصعب عليه منه شي ء.

المناسبة :

بعد الإخبار عن عذاب الكفار الشديد ، والمغفرة والأجر الكبير للمؤمنين يوم القيامة ، أقام تعالى الدليل على البعث بإحياء الأرض بعد موتها ، وبخلق الإنسان ومروره في أطوار مختلفة من التراب ، فالنطفة ، فالبشر السوي ، فالمدّ في العمر أو تقصيره.

التفسير والبيان :

كثيرا ما يستدل اللّه تعالى على المعاد أو البعث بإحياء الأرض بعد موتها ، كما في أول سورة الحج مثلا ، وقال هنا :

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً ، فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، كَذلِكَ النُّشُورُ أي والدليل الحسي المشاهد على إمكان البعث وأنه مقدور للّه تعالى : أنه سبحانه يرسل الرياح

، فتحرك الغيوم إلى حيث يشاء اللّه ، فيقوده إلى بلد ميت لا نبات به ، فينزل المطر عليه ، فتحيا الأرض بالنبات بعد يبسها ، وتصبح مخضرة ذات زرع وشجر ، بعد أن كانت تربة هامدة ، فكذلك يكون النشور أي كما يحيي اللّه الأرض بعد موتها ، يحيي العباد بعد موتهم ، وهذا هو النشور ، أي جعلهم أحياء.

جاء في حديث أبي رزين : « قلت : يا رسول اللّه ، كيف يحيي اللّه الموتى ؟

وما آية ذلك في خلقه ؟ قال صلّى اللّه عليه وسلّم : يا أبا رزين ، أما مررت بوادي قومك

ج ٢٢ ، ص : ٢٣٦

ممحلا ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ ! قلت : بلى ، قال صلّى اللّه عليه وسلّم : فكذلك يحيي اللّه الموتى » .

ثم ندد اللّه تعالى بمشاعر الكفار بالعزة والغطرسة التي حجبتهم عن طاعة اللّه ، فقال :

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً أي من كان يريد الوصول إلى الشرف والتعزز والسمو ، فليتعزز بطاعة اللّه ، وليطلبها من اللّه لا من غيره ، فإن اللّه مصدر العزة ، وهو يهب منها لمن يشاء ، وهذا ردّ على الكفار الذين كانوا يطلبون العزة بعبادة الأصنام ، وعدم الطاعة للرسل ، وترك الاتّباع له ، فقال :

إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة ، فهي كلها للّه ، ومن يتذلل له فهو العزيز ، ومن يتعزز عليه ، فهو الذليل. وذلك كما قال تعالى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ [المنافقون ٦٣/ ٨]. وقد حكى القرآن طلب المشركين العزة بعبادة الأصنام ، فقال : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا [مريم ١٩/ ٨١]. وأما المشركون فكانوا يطلبون العزة عند الكفار فقال تعالى : الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ؟ ! [النساء ٤/ ١٣٩].

ثم وصف اللّه تعالى بعض مظاهر العزة ردا على الكفار الذين كانوا يقولون :

نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده ، فقال :

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ أي إن كنتم لا تصلون إلى اللّه ، فهو يسمع كلامكم ، ويقبل طيب الكلام ، كالتوحيد والأذكار ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعاء ، وتلاوة القرآن وغير ذلك. ومن أفضل الأذكار : سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر.

وإن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، كما أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع

ج ٢٢ ، ص : ٢٣٧

العمل الصالح ، وصلاح العمل : الإخلاص فيه ، فلا يتقبل اللّه صلاة وصياما وزكاة ونحو ذلك من أعمال البر ، إذا لم تكن للّه ، وفعلت مراءاة للناس.

قال ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر اللّه تعالى ، يصعد به إلى اللّه عز وجل ، والعمل الصالح : أداء الفريضة.

ثم أخبر اللّه تعالى أنه لا يقبل من المرائين أعمالهم ، فقال :

(٢٤٩/٢٢)

وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ أي والذين يعملون المكرات السيئات في الدنيا ، كالتآمر على قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو لإضعاف المسلمين ، ويوهمون غيرهم أنهم في طاعة اللّه تعالى ، وهم بغضاء إلى اللّه عز وجل ، يراءون بأعمالهم ، لهم عقاب بالغ الغاية في الشدة.

ومكر هؤلاء الكاذبين المفسدين يفسد ويبطل ولا ينفذ لأن الأمور مقدرة ، لا تتغير بالمكر والحيلة ، ولأن المرائي ينكشف أمره بسرعة ، ولا يروج أمره ويستمر إلا على غني ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية ، يجازي على الرياء أشد العذاب.

ثم ذكر اللّه تعالى دليلا آخر على إمكان البعث بخلق الأنفس فقال :

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً أي واللّه سبحانه ابتدأ خلق الإنسان من تراب ، فخلق أبانا آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، فجعل الخلق المتوالي الدائم من النطفة (المني) والنطفة من الغذاء ، والغذاء من الماء والتراب ، فقد صير التراب نطفة ، ثم جعل الناس أصنافا ، ذكرانا وإناثا ، فهذا التحول من تراب إلى خلية حية ، إلى إنسان سوي دليل قاطع على إمكان البعث الذي هو إعادة الحياة مرة أخرى ، والإعادة في مفهوم الناس أهون من الإعادة ، أما عند اللّه فهما سواء.

ج ٢٢ ، ص : ٢٣٨

هذا دليل القدرة ، أعقبه تعالى بالدليل على كمال العلم فقال :

(٢٥٠/٢٢)

وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ أي إن اللّه عالم بحمل أي أنثى في العالم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، كما أنه عالم بوقت الوضع ومكانه وكيفيته ، كما قال : اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ ، عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ [الرعد ١٣/ ٨- ٩].

وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ سماه معمّرا بما هو صائر إليه ، أي ما يمدّ في عمر أحد ، وما ينقص من عمر آخر إلا في صحيفة كل إنسان في اللوح المحفوظ ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه ، سواء أكان من أصحاب الأعمار الطويلة أم القصيرة الأجل ، فتطويل العمر وتقصيره هما بقضاء اللّه وقدره ، لأسباب مسبقة يعلمها اللّه ، فمن أطال عمره فلأنه يفعل ما يقتضي التطويل ، كصلة الرحم ، ومن قصر عمره فلأنه يفعل ما يقتضي التقصير ، كالإكثار من معاصي اللّه.

روى البخاري ومسلم وأبو داود عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال :

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : « من سرّه أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره « ١ » ، فليصل رحمه » .

إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أي إن ذلك النظام المرتب للعالم سهل يسير على اللّه ، لديه علمه جملة وتفصيلا ، فإن علمه شامل لجميع المخلوقات ، لا يخفى عليه شيء منها.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يلي :

---

(١) أي يؤخر له في أجله.

ج ٢٢ ، ص : ٢٣٩

١- إمكان حدوث البعث لأن اللّه قادر على كل شيء ، ومن مظاهر قدرته الدالة على ذلك بنحو حسي مباشر : إحياء الأرض بالمطر بعد يبسها وذهاب ما فيها من زروع ونباتات ، واكتسائها بالخضرة والمروج ، والنبات ، والثمار المختلفة الألوان والأنواع والطعوم.

فكما حدث من تبدل من موت إلى حياة كذلك يحدث إحياء المخلوقات ، فمثل إحياء الأرض الموات نشر الأموات ، وإعادة الحياة لهم بعد الموت.

٢- إن الاعتزاز بالكفر والمال والأولاد والجاه والسمعة والنفوذ سراب خادع ، فإن من كان يريد العزة التي لا ذلة فيها في الدنيا والآخرة ، فعليه بطاعة اللّه عز وجل وعبادته وحده دون شريك لأن اللّه تعالى

مصدر العزة ، وهو سبحانه يعز من يشاء في الدنيا والآخرة ، ويذلّ من يشاء ،
قال صلّى اللّه عليه وسلّم مفسّرا لقوله تعالى : مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً : « من أراد عزّ الدارين ، فليطع العزيز » .
وعليه ، من كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ، ويدخل في دار العزة– وللّه العزة– فليقصد بالعزة اللّه سبحانه والاعتزاز به ، فإنه من اعتز بالعبد أذله اللّه ، ومن اعتز باللّه أعزه اللّه.
٣– الكلم الطيب من توحيد اللّه وذكره ودعائه وتلاوة كتابه ونحو ذلك هو الذي يقبله اللّه عز وجل ، والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب كما قال ابن عباس وغيره ، كما أن الكلم الطيب لا يقبل إلا مع العمل الصالح. وصلاح العمل :
الإخلاص فيه ،
جاء في الحديث : « لا يقبل اللّه قولا إلا بعمل ، ولا يقبل قولا وعملا إلا بنية ، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة » « ١ » .

---

(١)
رواه الطبراني عن ابن عمر بلفظ : « لا يقبل إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان » .
ج ٢٢ ، ص : ٢٤٠

و ردّ على ابن عباس قوله بتعارضه مع معتقد أهل السنة ، وأن ذلك لا يصح عنه. قال القرطبي : والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر اللّه ، وقال كلاما طيبا ، فإنه مكتوب له متقبّل منه ، وله حسناته وعليه سيئاته ، واللّه تعالى يتقبل من كل من اتقى الشرك. وأيضا فإن الكلام الطيب عمل صالح ، وإنما يستقيم قول من يقول : إن العمل هو الرافع للكلم ، بأن يتأوّل أنه يزيد في رفعه ، وحسن موقعه إذا تعاضد معه ، كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك ، إذا تخلل أعماله كلم طيب وذكر اللّه تعالى ، كانت الأعمال أشرف فيكون قوله : وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ موعظة وتذكرة وحضّا على الأعمال. وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها ، كالتوحيد والتسبيح فمقبولة « ١ » .
٤– إن الذين يراءون في أعمالهم ، ويعملون المكرات السيئات في الدنيا ، لهم عذاب شديد في نار جهنم ، ومكرهم بائد غير نافذ. والمكر : ما عمل على سبيل احتيال وخديعة.
٥– الدليل الاخر على إمكان البعث أحوال نفوس البشر وأطوارها ، فقد خلق اللّه تعالى أصلها من تراب ، ثم جعل النطفة سببا للخلق ، ثم حدث التزاوج بين الذكر والأنثى ، ليتم البقاء في الدنيا إلى

نهاية العالم ، عن طريق التناسل ، فلا يكون حمل ولا وضع إلا واللّه عالم به ، ولا يخرج شيء عن تدبيره.

٦- الأعمار كالأرزاق مقدرة محددة في صحيفة كل إنسان ، لا تزيد ولا تنقص ، وأما طول العمر بأسباب ، كصلة الرحم ، فهو داخل في تقدير العمر بصفة نهائية في علم اللّه ، إذ إنه يكتب في اللوح المحفوظ : عمر فلان كذا سنة ، فإن وصل رحمه ، زيد في عمره كذا سنة ، وفي موضع آخر من اللوح المحفوظ بيّن : إنه سيصل رحمه ، فمن اطلع على الأول دون الثاني ، ظن أنه زيادة أو نقصان.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٤/ ٣٣٠

ج ٢٢ ، ص : ٢٤١

(٢٥٣/٢٢)

٧- إن نظام العالم البديع ، وكتابة الأعمال والآجال غير متعذر على اللّه ، وإنما هو سهل يسير هيّن لأن علم اللّه مطلق غير نسبي كعلم البشر ، وشامل غير محدود ، وعام غير خاص يشمل الماضي والحاضر والمستقبل.

من دلائل الوحدانية والقدرة الإلهية [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٢ الى ١٤]

وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١(٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١(٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)

الإعراب :

وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ الشرك : مصدر بمعنى الإشراك ، وهو مضاف إلى الكاف والميم ، وهي الفاعل في المعنى ، وتقديره : بإشراككم إياهم ، فحذف المفعول.

البلاغة :

هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ بينهما ما يسمى بالمقابلة وهي كالطباق ، لكنها بين أكثر من شيئين.

المفردات اللغوية :

وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ العذب والمالح. عَذْبٌ فُراتٌ شديد العذوبة ، والعذب :

ج ٢٢ ، ص : ٢٤٢

الحلو اللذيذ الطعم ، والفرات : المزيل للعطش. سائغٌ شَرابُهُ سهل انحداره. أُجاجٌ شديد الملوحة ، وذلك مثل للمؤمن والكافر. وَمِنْ كُلٍّ منهما تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا هو السمك.

(٢٢/٢٥٤)

وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها أي من البحر الملح ، وقال الزجّاج : إنما تستخرج الحلية منهما إذا اختلطا ، والحلية هنا : هي اللؤلؤ والمرجان ، وهي في الأصل : كل ما يتحلى به من سوار أو خاتم.
وَتَرَى تبصر. الْفُلْكَ السفن. فِيهِ في كل من البحرين. مَواخِرَ عابرات شاقات تشق الماء بجريها ، مقبلة ومدبرة بريح واحدة. لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ تطلبوا من فضل اللّه تعالى بالتجارة والتنقل فيها. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي لتشكروا اللّه على ما أنعم عليكم به من ذلك.
يُولِجُ يدخل ، فيزيد في كل من الليل والنهار بالنقص من الآخر. سَخَّرَ أجرى.
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى كل منهما يسير في فلكه هي مدة دورانه ، أو منتهاه ، وقيل : إلى يوم القيامة.
ذلِكُمُ الفاعل لهذه الأفعال. اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ أي هذا الصانع لما تقدم هو الخالق المقدر ، والقادر المقتدر ، المالك للعالم ، والمتصرف فيه. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أي تعبدون من غيره وهم الأصنام.
ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ القطمير : لفافة النواة ، أي القشرة البيضاء الرقيقة التي تكون على النواة- البزرة. وهذا دليل التفرد بالألوهية والربوبية.
لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ لأنهم جماد. وَلَوْ سَمِعُوا على سبيل الفرض. مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ ما أجابوكم. يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ أي يجحدون بإشراككم إياهم مع اللّه ، وعبادتكم لهم ، والمعنى :
يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم. وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ أي ولا يخبرك بالأمر ، ويعلمك بأحوال الدارين مخبر مثل الخبير العالم به ، وهو اللّه تعالى.
المناسبة :

(٢٢/٢٥٥)

بعد إيراد أدلة إثبات البعث ، أورد اللّه تعالى الأدلة والبراهين الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته ، بخلقه أشياء متحدة الجنس ، لكنها مختلفة المنافع ، من الماء الواحد ، والليل والنهار ، والشمس والقمر.
وأردفه بالرد على عبدة الأصنام التي لا تملك شيئا ، ولا تسمع دعاء ، ولا تجيب نداء ، وتتبرأ من عابديها يوم القيامة.

التفسير والبيان :

نبّه اللّه تعالى على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة ، فقال عن اختلاف البحرين :

وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ : هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائغٌ شَرابُهُ ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ أكثر المفسرين على أن المراد من الآية ضرب المثل في حق الكفر والإيمان ، أو الكافر والمؤمن ، فالإيمان لا يتساوى مع الكفر في الحسن والنفع ، كما لا يتساوى البحران العذب الفرات ، والملح الأجاج ، وقال الرازي : والأظهر أن المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة اللّه تعالى ، وذلك من حيث إن البحرين يستويان في الصورة ، ويختلفان في الماء ، فإن أحدهما عذب فرات ، والآخر ملح أجاج.

والمعنى : لا يتساوى ولا يتشابه البحران في الحقيقة ، فأحدهما عذب الماء شديد العذوبة ، سائغ الشراب ، يجري في الأنهار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، وثانيهما ملح شديد الملوحة ، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار.

وبعد اختلافهما في هذا يتشابهان في أمور : مثل أخذ اللحم الطري والحلية منهما ، والذي يوجد في المتشابهين اختلافا وفي المختلفين تشابها لا يكون إلا قادرا مختارا ، فقال تعالى :

(٢٥٦/٢٢)

وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها أي يصاد السمك من كل منهما ، وتستخرج الحلية الملبوسة منهما ، وهو اللؤلؤ والمرجان ، كما قال عز وجل : يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ [الرحمن ٥٥/ ٢٢- ٢٣].

وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ ، لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي تبصر أيها الناظر السفن في البحر شاقّة الماء ، مقبلة مدبرة ، حاملة المؤن

ج ٢٢ ، ص : ٢٤٤

و الأقوات وأنواع التجارة من قطر إلى آخر ، لتطلبوا بأسفاركم بالتجارة بين البلدان من فضل اللّه ، لتشكروا اللّه أو شاكرين ربكم على تسخيره لكم هذا البحر العظيم ، وعلى ما أنعم به عليكم من النعم ، فإنكم تتصرفون في البحر كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم دون عائق ولا مانع ، بل بقدرته تعالى قد سخر لكم جميع ما في السموات والأرض من فضله ورحمته.

ثم ذكر تعالى دليلا آخر على قدرته التامة وهو اختلاف الأزمنة ، فقال :

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ أي يدخل أحدهما في الآخر فيكون أطول منه ، فيزيد في زمن كل منهما بالنقص من الآخر ، فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفا وشتاء.

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أي سيّر الشمس والقمر وبقية الكواكب السيّارة ،

والثوابت الثاقبة بإرادته وقدرته ، يجري كل منهما بمقدار معين ، ومنهاج مقنن ، ومدة محددة هي زمن مدارها أو منتهاها ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، وقيل : كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أي إلى يوم القيامة.

(٢٥٧/٢٢)

ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَهُ الْمُلْكُ أي الذي فعل هذا من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك هو الرب العظيم ، الذي لا إله غيره ، وهو صاحب الملك التام ، والقدرة الشاملة ، والسلطان المطلق ، وكل من عداه عبد له.

ثم أبان تعالى في مقابل ذلك ما ينافي صفة الألوهية ، فقال :

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ أي والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ،

ج ٢٢ ، ص : ٢٤٥

لا يملكون شيئا من السموات والأرض ، ولو كان حقيرا بمقدار هذا القطمير ، وهو قشرة النواة الرقيقة.

ثم أبطل ما يقولون : إن في عبادة الأصنام عزة ، وأبان عجزها وضعفها وحقارتها ، فقال :

إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ أي إن تدعوا هذه الآلهة من دون اللّه تعالى لا تسمع دعاءكم لأنها جماد لا تدرك شيئا ، ولو سمعوا لم يقدروا أن ينفعوكم بشيء مما تطلبون منها ، لعجزها عن ذلك ، فهي لا تضر ولا تنفع ولا تغني شيئا ، فكيف تعبدونها ؟ ! وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ أي وفي اليوم الآخر يجحدون كون ما فعلتموه حقا ، وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم أو أقروكم عليها ، ويتبرءون منكم ، كما قال تعالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ. وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً ، وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ [الأحقاف ٤٦/ ٥- ٦] وقال تعالى : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ، وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم ١٩/ ٨١- ٨٢].

(٢٥٨/٢٢)

و تقريرا عاما لهذه المعاني ، وتأكيدا لهذه الأخبار ، قال تعالى :

وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ أي ولا يخبرك عن أمر هذه الآلهة وعن أمر عبدتها يوم القيامة ، أو لا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها إلا خبير بصير بها ، وهو اللّه تعالى الذي لا تخفى عليه خافية في الحال أو في

الاستقبال ، وقد أخبر بالواقع لا محالة.

ج ٢٢ ، ص : ٢٤٦

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- من أدلة القدرة الإلهية العظيمة الدالة على وحدانية الخالق خلق الأشياء المتفاوتة ، التي منها خلق البحرين : العذب الزلال وهو الأنهار ، والملح الأجاج وهو البحار ، ومع اختلافهما وتمايزهما حينما يتجاوران ، فيهما تشابه بوجود الأسماك في كل منهما ، واستخراج الحلية وهي اللؤلؤ والمرجان منهما ، أي من اختلاطهما وتمازجهما ونزول مطر السماء ، وإن كانت الحلية من البحر المالح.

٢- في قوله تعالى : تَلْبَسُونَها دليل على أن لباس كل شيء بحسبه ، فالخاتم يجعل في الإصبع ، والسوار في الذراع ، والقلادة في العنق ، والخلخال في الرّجل.

٣- من نعم اللّه تعالى ودليل قدرته : تسيير السفن في البحر ، لتبادل التجارات بين الأقطار البعيدة في مدة قريبة ، وكسب الأرزاق ، الذي يستدعي الشكر على ما آتانا اللّه من فضله وعلى تسخيره البحر للانتقال فيه ، وحرية الحركة في أنحائه.

٤- ومن أدلة القدرة الإلهية أيضا : اختلاف الأزمنة بتعاقب الليل والنهار ، واختلاف الفصول ، وتفاوت زمن الليل والنهار صيفا وشتاء ، وتسيير الشمس والقمر وسائر الكواكب السيارة والثابتة في مدة دوران معينة تنتهي في اجتياز مدارها ، وبقائها على هذا النحو الدقيق إلى يوم القيامة.

٥- إن صانع كل ما ذكر من خلق السموات والأرض ، وإنزال الغيث ، وخلق الإنسان من تراب ، وإيجاد الماء العذب والماء الملح وما يحققان من ثروة مائية ومعدنية ونفطية وحلي ، ودورة الأرض واختلاف الليل والنهار بين نصفي

ج ٢٢ ، ص : ٢٤٧

الكرة الأرضية ، وفي النصف الواحد في مدار السنة وغير ذلك ، إن هذا الصانع هو الخالق المدبر ، والقادر المقتدر ، والمالك القاهر ، فهو الذي يستحق أن يعبد.

٦- ما أقل عقول الوثنيين وما أبسطها حين يعبدون الأصنام الصماء من الحجارة والمعادن وغيرها ، وهي لا تقدر على شيء ولا على خلقه ، ولا تنفع ولا تضر ، ولا تبصر ولا تسمع ، فلا تغيث أحدا إذا استغاث بها لأنها جمادات ، ولا تجيب إن ناداها عبّادها لأنها لا تنطق. والداهية العظمى أنها يوم القيامة تتبرأ من عابديها ، وتنكر أفعالهم ، وتتنصل من تبعة المسؤولية الموجهة إليهم ، واللّه أصدق

مخبر بذلك.

سبب العبادة والمسؤولية الشخصية وانتفاع العابدين بالإنذار [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٥ الى ١٨]

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨)

البلاغة :

يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بينهما طباق.

وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ بينهما جناس الاشتقاق ، وكذا حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْ ءٌ.

ج ٢٢ ، ص : ٢٤٨

المفردات اللغوية :

أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ المحتاجون إليه في جميع أمور الدين والدنيا ، وفي كل حال على الإطلاق.

وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء.

وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ على الإطلاق عن خلقه. الْحَمِيدُ المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم ، المحمود في صنعه بهم.

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ إن يشأ يفنكم ، ويأت بقوم آخرين من جنسكم بدلكم ، أطوع منكم ، أو من جنس آخر غير ما تعرفونه. وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أي وما ذلك الإذهاب لكم والإتيان بآخرين بمتعذر ولا بمتعسر على اللّه تعالى.

وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أي لا تحمل نفس آثمة ذنب أو إثم نفس أخرى. وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها أي وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفسا أخرى ، لتحمل عنها بعض الذنوب التي تحملها. لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئا. وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى أي ولو كان المدعو قريبا لها في النسب كالأب والابن ، فكيف بغير القريب ؟ ! وهذا حكم مبرم من اللّه تعالى. إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ يخافونه غائبا عنهم لأنهم المنتفعون بالإنذار. وَأَقامُوا الصَّلاةَ احتفلوا بأمرها ، وأداموها ، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما يلهيهم.

وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ومن تطهر من الشرك وغيره من المعاصي ، واستكثر من العمل الصالح ،

فإنما يتطهر لنفسه لأن نفع ذلك مختص به ، كما أن وزر من تدنس بالذنب لا يكون إلا عليه. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ إلى اللّه المرجع والمآل ، فيجزي على تزكيهم وعملهم في الآخرة.

المناسبة :

(٢٦١/٢٢)

بعد بيان كون العبادة واجبة للّه تعالى لأنه المالك المطلق ، والأصنام لا تملك شيئا ، أبان اللّه تعالى حكمة العبادة للرد على الكفار القائلين بأن أمر اللّه بالعبادة أمرا بالغا ، والتهديد الشديد على تركها ، لاحتياجه إلى عبادتنا. ثم أوضح أن كل إنسان مسئول عن نفسه فقط ، وأرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما تنفع الذي يخشى اللّه بالغيب وأقام الصلاة.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن غناه المطلق عمن سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، فقال :

ج ٢٢ ، ص : ٢٤٩

يا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أي يا أيها البشر جميعا ، أنتم المحتاجون إلى اللّه تعالى على الإطلاق ، في منح القدرة على الحياة والبقاء ، وفي جميع الحركات والسكنات ، وفي جميع أمور الدين والدنيا ، لذا فاعبدوه وحده لأن ثمرة العبادة عائدة إليكم وحدكم ، واللّه هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له عن عبادتكم وغيرها ، وهو المحمود المشكور على نعمه وعلى جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه. وذكر الْحَمِيدُ ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم ، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه.

ثم أبان غناه وقدرته التامة بإمكانه استبدالكم ، وأنه غير محتاج إليكم ، فقال :

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ أي لو شاء لأفناكم أيها الناس ، وأتى بقوم غيركم ، يكونون أطوع منكم ، وأجمل وأحسن وأتم ، وما ذلك بصعب عليه ولا ممتنع ، بل هو يسير هيّن عليه.

وفي هذا تهديد ووعيد وتبديد لأوهامكم أنه لو أذهب البشر لزال ملكه وعظمته.

ثم دعاهم إلى النظر والتأمل في المستقبل ، وأخبرهم بمسؤولية كل إنسان يوم القيامة عن نفسه فقط دون غيره ، فقال :

(٢٦٢/٢٢)

وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أي ولا تحمل نفس آثمة أو مذنبة إثم أو ذنب نفس أخرى. وهذا لا يمنع مضاعفة الإثم للمضلين القادة ، كما قال تعالى :

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ [العنكبوت ٢٩/ ١٣].

وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى أي وإن طلبت نفس مثقلة بالأوزار والذنوب مساعدة نفس أخرى في حملها ، لتحمل

ج ٢٢ ، ص : ٢٥٠

عنها بعض الذنوب ، لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئا ، ولو كانت قريبة لها في النسب كالأب والابن لأن كل امرئ مشغول بنفسه وحاله ، وله من الهموم ما يغنيه.

ونظير الآية : لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً [لقمان ٣١/ ٣٣] وقوله سبحانه : يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [عبس ٨٠/ ٣٤- ٣٧].

(٢٦٣/٢٢)

قال عكرمة في قوله تعالى : وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها : هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة ، فيقول : يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني ، وإن الكافر ليتعلّق بالمؤمن يوم القيامة ، فيقول له : يا مؤمن ، إن لي عندك يدا ، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا ، وقد احتجت إليك اليوم ، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه ، حتى يرده إلى منزل دون منزله ، وهو في النار ، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ، فيقول : يا بني ، أي والد كنت لك ؟ فيثني خيرا ، فيقول له : يا بني ، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته ، فيقول : يا فلانة أو يا هذه ، أي زوج كنت لك ؟ فتثني خيرا ، فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لي لعلي أنجو بها مما ترين ، قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إني أتخوف مثل الذي تتخوف ، يقول اللّه تعالى : وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها الآية.

ثم أبان اللّه تعالى من يجدي عنده الإنذار ، فقال :

إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ أي إنما يتعظ بما جئت به أيها الرسول أولو البصيرة والعقل الذين يخافون من عذاب ربهم قبل

ج ٢٢ ، ص : ٢٥١

معاينته أو في خلواتهم عن الناس ، ويفعلون ما أمرهم به ، ويقيمون الصلاة المفروضة عليهم على النحو

الأتم المشروع ، إقامة فيها احتفال بأمرها ، وبعد عن الاشتغال بغيرها.
ثم ذكر اللّه تعالى أن فائدة العبادة تعود عليهم ، فقال :

(٢٢/٢٦٤)

وَ مَنْ تَزَكَّى ، فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ أي ومن تطهر من الشرك والمعاصي ، وعمل صالحا ، فإنما يتطهر لنفسه لأن نفع ذلك يعود على نفسه ، لا غيره ، وإلى اللّه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزي كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.
فقه الحياة أو الأحكام :
يستفاد من الآيات ما يأتي :
١- الناس قاطبة فقراء محتاجون إلى ربهم الخالق الرازق في بقائهم وكل أحوالهم ، واللّه هو الغني عن عباده ، المحمود على جميع أفعاله وأقواله ونعمه الكثيرة التي لا تحصى.
وغنى اللّه لا يعود عليه ، وإنما ينفع به عباده ، فاستحق الحمد التام والشكر الكامل من أعماق النفوس.
٢- اللّه قادر على إفناء الخلق ، والإتيان بخلق جديد آخر أطوع منهم وأزكى ، وليس ذلك بممتنع عسير متعذر على اللّه تعالى.
٣- من مفاخر الإسلام مبدأ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أي مبدأ المسؤولية الشخصية في الدنيا والآخرة ، فلا يسأل إنسان عن جريمة غيره ، ولا يتحمل امرؤ عقوبة جان آخر : قُلْ : لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا ، وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ [سبأ ٣٤/ ٢٥].
ج ٢٢ ، ص : ٢٥٢
٤- كل إنسان في الآخرة مشغول بنفسه ، فلا يستطيع أن يتحمّل شيئا من آثام غيره ، ولو كان أقرب الناس لديه ، كالأب والابن وغيرهما.
٥- إنما يقبل إنذار النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وإنذارات القرآن الكريم : من يخشى عقاب اللّه تعالى في السرّ والعلن وقبل معاينة العذاب ، كما قال تعالى : إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ، وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ [يس ٣٦/ ١١].
٦- من تطهر من أدناس المعاصي فإنما يتطهر لنفسه ، ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، وتظهر الفائدة في الآخرة إذ إلى اللّه مرجع جميع الخلق ، فيحاسبهم على ما فعلوا.

(٢٢/٢٦٥)

مثل المؤمن والكافر وإرسال الرسل في الأمم [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٩ الى ٢٦]

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢(١) وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢(٢) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣)

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ (٢(٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٢٦)

البلاغة :

الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ الظُّلُماتُ والنُّورُ الظِّلُّ والْحَرُورُ الْأَحْياءُ والْأَمْواتُ بين كل طباق.

ج ٢٢ ، ص : ٢٥٣

وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ استعارة تصريحية ، استعار المشبه به وهو الأعمى للكافر ، لعدم الاهتداء إلى الطريق الصحيح ، واستعار البصير للمؤمن لاهتدائه إلى منهج الاستقامة ووضوح الطريق أمامه.

وزيادة لَا في الآيات [٢٠- ٢٢] في المواضع الثلاثة للتأكيد.

نَذِيرٌ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ توافق الفواصل ذو التأثير في جمال الكلام والوقع على النفس.

المفردات اللغوية :

الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ الأول : فاقد البصر ، والثاني له ملكة البصر ، والمراد تشبيه الكافر بالأعمى ، وتشبيه المؤمن بالبصير. الظُّلُماتُ والنُّورُ شبه الباطل بالظلمات ، وشبه الحق بالنور. الظِّلُّ والْحَرُورُ أراد بالظل الجنة وأراد بالحرور النار. والْحَرُورُ السموم ، إلا أن السموم بالنهار ، والحرور بالليل والنهار. الْأَحْياءُ والْأَمْواتُ شبه المؤمنين بالأحياء ، وشبه الكافرين بالأموات. إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ هدايته ، فيجيب بالإيمان. وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ أي الكفار ، شبههم بالموتى الذين لا يجيبون.

إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ أي ما أنت إلا منذر لهم ، أو ما عليك إلا الإنذار والتبليغ ، أما الإسماع فليس إليك ، ولا قدرة لك عليه لأن الهدى والضلالة بيد اللّه عز وجل. إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ أي إرسالا مصحوبا بالحق ، وهو الهدى ، فيشمل المرسل والمرسل ، فكلاهما محق. بَشِيراً وَنَذِيراً مبشرا من أجابك بالجنة ، ومنذرا من لم يجبك بالنار. وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ أي ما من جماعة كثيرة أو أهل عصر. إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ سلف ومضى فيها منذر مخوف من نبي أو عالم ينذر عنه ، واكتفى بالنذير لأن الإنذار قرين البشارة ، سيما وقد قرن به من قبل ، أو لأن الإنذار هو المقصود الأهم من البعثة.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي إن يكذبك أهل مكة فقد كذبت الأمم الماضية أنبياءهم. بِالْبَيِّناتِ المعجزات الدالة على صدقهم في نبوتهم. وَبِالزُّبُرِ أي الكتب المكتوبة ، كصحف إبراهيم ، جمع زبور : أي كتاب ، والكتاب : ما فيه شرائع وأحكام. أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا بتكذيبهم. فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ فكيف كان إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك.

المناسبة :

(٢٦٧/٢٢)

بعد بيان طريق الهدى وطريق الضلالة ، واهتداء المؤمن الذي يخاف ربه ،

ج ٢٢ ، ص : ٢٥٤

و جحود الكافر المعاند ، ضرب اللّه تعالى الأمثال للكافر والمؤمن ، وللباطل والحق ، وللجنة والنار ، وللمؤمنين والكافرين ، وعدّد الأمثلة ، للتعريف بأن المؤمن بصير الطريق ، والكافر أعمى الطريق ، وأن الإيمان نور فلا يخفى على المؤمن ، والكفر ظلمة فيزيد الأعمى حيرة ، ثم ذكر مآلهما ومرجعهما ، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة ، والكافر بكفره في حر وتعب ، ثم جعل الكافر أسوأ حالا من الأعمى فشبهه بالميت لأنه غير مدرك إدراكا نافعا ، فهو كالميت ، أما الأعمى فقد يدرك شيئا ما كالبصير. ثم أوضح تعالى أن الهداية بيده يمنحها من يشاء ، ولكنه لم يترك سبيلا لأحد بالاعتذار ، فقد أرسل الرسل والأنبياء في كل أمة من الأمم ، فمن آمن نجا ، ومن عصى عذب في النار.

التفسير والبيان :

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ هذا مثل ضربه اللّه تعالى للمؤمنين وللكافرين ، فكما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة في حقيقتها وفائدتها ، كذلك لا يتساوى الكافر الذي عمي عن دين اللّه ، والمؤمن الذي عرف طريق الرشاد فاتبعه وانقاد له ، ولا تتساوى ظلمات الكفر ونور الإيمان ، أو الباطل والحق ، ولا يتساوى الثواب والعقاب أو الجنة والنار. فالمؤمن سميع بصير يمشي في نور على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال الوارفة والعيون المتدفقة ، والكافر أصم أعمى يمشي في ظلمات لا خروج له منها ، بل يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة ، حتى ينتهي به الأمر إلى الحرور والسموم والحميم.

(٢٦٨/٢٢)

وَ ما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ أي ولا يتساوى المؤمنون أحياء القلوب والنفوس والمشاعر ، والكافرون أموات القلوب والحواس.

ج ٢٢ ، ص : ٢٥٥

فهذه أمثال للمؤمن والإيمان والعاقبة ، والكافر والكفر والمصير ، كما قال تعالى : مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ ، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا ؟ ! [هود ١١/ ٢٤] وقال عز وجل : أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ ، وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها [الأنعام ٦/ ١٢٢]. قال قتادة : هذه كلها أمثال أي كما لا تستوي هذه الأشياء ، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن.

ثم بيّن تعالى مصدر الهداية ، فقال :

إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ ، وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ أي إن اللّه يهدي من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ، وكما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار ، بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون لا تستطيع أيها النبي هدايتهم لأن الكفر أمات قلوبهم.

وأما مهمة الرسول فهي :

إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ أي ما أنت إلا رسول منذر عذاب اللّه ، ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ ، أما الهدى والضلالة فهي بيد اللّه عز وجل.

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً أي أرسلناك أيها الرسول إرسالا مصحوبا بالحق ، والمرسل محق ، وكذا المرسل محق ، مبشرا المؤمنين أهل الطاعة بالجنة ، ومنذرا الكافرين أهل المعصية بالنار.

والإرسال منهج عام في البشرية ، فقال تعالى :

وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ أي ما من أمة من بني آدم سبقت إلا وقد بعث اللّه إليهم النذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ [النحل ١٦/ ٣٦].

ج ٢٢ ، ص : ٢٥٦

ثم سلّى رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم عما يلقاه من صدود قومه وتكذيبهم وإعراضهم عن دعوته ، فقال :

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ أي وإن يكذبك أيها الرسول قومك فقد كذبت الأمم الماضية من قبلهم أنبياءهم ، جاءتهم رسلهم بالمعجزات

الواضحة والأدلة القاطعة ، وبالكتب المكتوبة كصحف إبراهيم ، وبالكتاب الواضح البيّن ، كالتوراة والإنجيل. وكرر الزبر والكتاب ، وهما واحد ، لاختلاف اللفظين.

ثم هدد مخالفيه وأوعدهم بالعقاب ، فقال :

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أي ومع كل هذه الأدلة كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به ، فأخذتهم بالعقاب والنكال ، فكيف رأيت إنكاري عليهم شديدا بليغا ؟ !

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- لا مساواة بين الكافر والمؤمن والجاهل والعالم ، ولا بين الكفر والإيمان أو الحق والباطل ، ولا بين الثواب والعقاب أو الجنة والنار ، ولا بين العقلاء والجهال أو أحياء القلوب وأموات القلوب.

٢- إن اللّه يسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته ، ويهدي أحباءه لطاعته ، ولن يستطيع النبي إسماع الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم أي كما لا يسمع من مات ، كذلك لا يسمع من مات قلبه. والمراد بالآية : أن الكفار الذين حجبوا نور الهداية عن قلوبهم هم بمنزلة أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه.

٣- ما الرسول إلا مجرد رسول منذر ، فليس عليه إلا التبليغ ، ليس له من الهدى شيء ، إنما الهدى بيد اللّه تبارك وتعالى.

٤- أرسل اللّه رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم بالهدى ودين الحق ، بشيرا بالجنة أهل طاعته ، ونذيرا بالنار أهل معصيته.

٥- لم تخل أمة من نبي أو رسول ينذرها ويبشرها.

٦- سلّى اللّه رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم عما يلقاه من تكذيب كفار قريش ، بأن الأمم السابقة كذبوا أنبياءهم ، بالرغم من تأييد صدقهم بالمعجزات الظاهرات والشرائع الواضحات ، وبالكتب المكتوبة ، وبالكتاب المنير ، وكانت نتيجة التكذيب عقوبة الاستئصال.

العلوم العملية الطبيعية دليل آخر على وحدانية اللّه وقدرته وحال العلماء أمام مشاهد الكون [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٢٧ الى ٣٠]

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ

مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)

(٢٧١/٢٢)

ج ٢٢ ، ص : ٢٥٨

الإعراب :

مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ هاء أَلْوانُهُ تعود على موصوف محذوف ، تقديره : خلق مختلف ألوانه ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، هي في موضع رفع بالابتداء ، والجار والمجرور قبله : خبره. وأَلْوانُهُ فاعل مختلف لأنه اسم فاعل يعمل عمل الفعل.

يَرْجُونَ تِجارَةً خبر إن. ولَنْ تَبُورَ صفة للتجارة.

البلاغة :

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَخْرَجْنا التفات من الغيبة إلى التكلم ، بدلا من « أخرج » للدلالة على كمال قدرة اللّه وحكمته.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً استفهام تقريري ، فيه معنى التعجب.

إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ قصر صفة على موصوف ، قصر الخشية على العلماء.

يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ استعارة ، استعار التجارة للمعاملة مع اللّه لنيل ثوابه ، وشبهها بالتجارة الدنيوية ، وأيدها بقوله : لَنْ تَبُورَ وهو الذي يسمى ترشيحا.

عَزِيزٌ غَفُورٌ لَنْ تَبُورَ غَفُورٌ شَكُورٌ توافق الفواصل من عناصر جمال الكلام.

المفردات اللغوية :

أَلَمْ تَرَ تعلم فهذه رؤية القلب والعلم. مُخْتَلِفاً أَلْوانُها أجناسها أو أصنافها أو هيئاتها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض وأسود ونحو ذلك. جُدَدٌ أي ذو جدد ، أي طرائق وخطوط في الجبال وغيرها ، جمع جدة : وهي الخطة أو الطريقة المختلفة الألوان في الجبل ونحوه. بِيضٌ وَحُمْرٌ أي وصفر ونحوها. مُخْتَلِفاً أَلْوانُها بالشدة والضعف. وَغَرابِيبُ سُودٌ معطوف على جدد ، أي صخور شديدة السواد ، وأصل اللفظ : وسود غرابيب ، والعرب تقول كثيرا للشديد السواد المشابه لون الغراب : أسود غربيب ، وقليلا : غربيب أسود.

(٢٧٢/٢٢)

مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ كاختلاف الثمار والجبال. إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ بخلاف الجهال كأهل مكة إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ، ولذلك

قال صلّى اللّه عليه وسلّم فيما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أنس : « إني لأخشاكم للّه وأتقاكم له » .

عَزِيزٌ غالب قاهر. غَفُورٌ لذنوب عباده التائبين المؤمنين. والجملة : إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ تعليل لوجوب الخشية.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ يستمرّون على تلاوة القرآن الكريم. وَأَقامُوا الصَّلاةَ أداموا إقامتها في أوقاتها ، مع كمال أركانها وأذكارها. وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً فيه حث على الإنفاق

ج ٢٢ ، ص : ٢٥٩

كيفما تهيأ ، لكن السر أفضل من العلانية. يَرْجُونَ تِجارَةً أي تحصيل ثواب الطاعة. لَنْ تَبُورَ لن تكسد ولن تهلك بالخسران.

سبب نزول الآية (٢٩) :

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ .. : أخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزلت فيه : إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ الآية.

المناسبة :

هذا دليل آخر على وحدانية اللّه وقدرته من مشاهد الكون المختلفة الأجناس والألوان ، ضمّنه أن العلماء في العلوم الكونية أقدر الناس على إدراك عظمة الكون. فيكونون هم أخشى الناس للّه ، ثم أردفه ببيان حال العلماء العاملين بكتاب اللّه ، فهم الذين يرجون ثواب اللّه على طاعتهم.

التفسير والبيان :

ينبه اللّه تعالى على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، فيخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، فقال :

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها أي ألم تشاهد أيها الإنسان أن اللّه تعالى خلق الأشياء المختلفة من الشيء الواحد ، فأنزل الماء من السماء ، وأخرج به ثمارا مختلفة الأجناس والأنواع والطعوم والروائح والألوان من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض وأسود ونحو ذلك ، كما

قال تعالى في آية أخرى : وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ ، يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الرعد ١٣/ ٤].

ج ٢٢ ، ص : ٢٦٠

وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها ، وَغَرابِيبُ سُودٌ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو مشاهد من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد مختلفة الألوان أيضا.

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ أي وخلق أيضا خلقا آخر من الناس والدواب والأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم مختلفة الألوان في الجنس الواحد ، بل وفي النوع الواحد ، وفي الحيوان الواحد ، كاختلاف الثمار والجبال. وقوله : مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ ، أي خلق مختلف ألوانه ، كما قال تعالى : وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ [الروم ٣٠/ ٢٢]. والدواب : كل ما دب على القوائم ، والْأَنْعامِ من باب عطف الخاص على العام. وكلمة كَذلِكَ هنا تمام الكلام ، أي كذلك تختلف أحوال العباد في الخشية.

(٢٧٤/٢٢)

و إنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان والأصباغ في هذه الأشياء لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة اللّه وبديع صنعه ، فذكر أولا اختلاف الألوان في ثمار النبات ، ثم ذكر اختلاف الألوان في الجمادات ، ثم في الناس والحيوان.

أخرج الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : جاء رجل إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : أيصبغ ربك ؟ قال صلّى اللّه عليه وسلّم : نعم صبغا لا ينفض ، أحمر وأصفر وأبيض » .

ثم ذكر مستأنفا من يعرف جمال ذلك ودقائقه وهم العلماء فقال :

إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ أي إنما يخاف اللّه بالغيب العالمون به ، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة ، ومنها عظيم قدرته على صنع ما يشاء وفعل ما يريد ، فمن كان أعلم باللّه ، كان أخشاهم له ،

ج ٢٢ ، ص : ٢٦١

و من لم يخش اللّه فليس بعالم. والمراد به العالم بعلوم الطبيعة والحياة وأسرار الكون. وسبب خشية العلماء من اللّه أن اللّه قوي في انتقامه من الكافرين ، غفور لذنوب المؤمنين به التائبين إليه ، والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى ، وهذا يوجب الخوف والرجاء ، فكونه عزيزا ذا انتقام يوجب الخوف التام ،

وكونه غفورا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ ، وهذا كله يدركه بدقة وشمول العلماء المتخصصون.

قال ابن عباس : العالم بالرحمن : من لم يشرك به شيئا ، وأحلّ حلاله ، وحرّم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ، ومحاسب بعمله.

وقال الحسن البصري : العالم : من خشي الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغّب اللّه فيه ، وزهد فيما سخط اللّه فيه ، ثم تلا الآية : إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ.

وقال سعيد بن جبير : الخشية : هي التي تحول بينك وبين معصية اللّه عز وجل.

(٢٧٥/٢٢)

و عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن كثرة الخشية.

وقال مالك : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله اللّه في القلب.

ثم أخبر اللّه تعالى عن العلماء بكتاب اللّه العاملين به ، فقال :

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ أي إن الذين يواظبون على تلاوة القرآن الكريم ويعملون بما فيه من فرائض ، كإقام الصلاة المفروضة في أوقاتها ، مع كمال أركانها وشرائطها والخشوع فيها ، والإنفاق مما أعطاهم اللّه تعالى من فضله ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، هؤلاء يطلبون ثوابا من اللّه على طاعتهم ، لا بد من حصوله ، لذا قال :

ج ٢٢ ، ص : ٢٦٢

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ أي ليوفيهم اللّه ثواب ما عملوه ، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، إنه غفور لذنوبهم ، شكور لطاعتهم وللقليل من أعمالهم.

ونظير الآية قوله : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ [النساء ٤/ ١٧٣] وقوله : رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ .. إلى قوله : لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ..

[النور ٢٤/ ٣٧- ٣٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يلي :

١- من أدلة قدرة اللّه العظمى ووحدانيته واختياره : إنزال الماء من السماء ، وإنبات النباتات ، وإخراج الثمار المختلفة الأنواع والطعوم والروائح والألوان.

٢- ومن الأدلة أيضا : إرساء الأرض بالجبال ، وخلق طرق مختلفة الألوان فيما بينها تخالف لون الجبل ، وإن كان الجميع حجرا أو ترابا.

٣- ومنها أيضا خلق الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان ، ففيهم الأحمر والأبيض والأسود والأصفر وغير ذلك ، وكل ذلك دليل على وجود صانع مختار ، واحد لا شريك له.

٤- إن العلماء بطبيعة تركيب الكون ودقائقه ، وبصفات اللّه وأفعاله ، هم الذين يخافون قدرته ، فمن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية ، ومن لم يخش اللّه فليس بعالم ، كما قال الربيع بن أنس ، والخشية بمعرفة قدر المخشي ، والعالم يعرف اللّه فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد لأن اللّه بين أن الكرامة بقدر التقوى ، والتقوى بقدر العلم.

ج ٢٢ ، ص : ٢٦٣

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فو اللّه إني لأعلمهم باللّه وأشدهم له خشية » .

٥- آية إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ : هذه آية القراء العالمين بكتاب اللّه العاملين بما فيه ، الذين يقيمون صلاة الفرض والنفل ، وينفقون مما رزقهم اللّه سرا وعلانية ، هؤلاء هم الذين يبتغون تحصيل الثواب من اللّه على طاعاتهم ، ويزيدهم اللّه من فضله ، والزيادة هي الشفاعة في الآخرة ، إن اللّه عند إعطاء الأجور غفور للذنوب ، وعند إعطاء الزيادة شكور يقبل القليل من العمل الخالص ، ويثيب عليه الجزيل من الثواب.

وقوله : يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ إشارة إلى الإخلاص ، أي ينفقون لا ليقال : إنه كريم ، ولا لشيء من الأشياء غير وجه اللّه تعالى.

تصديق القرآن لما تقدمه وأنواع ورثته وجزاء المؤمنين [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣١ الى ٣٥]

وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣(١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣(٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٣(٣) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣(٤) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (٣٥)

ج ٢٢ ، ص : ٢٦٤

الإعراب :

مُصَدِّقاً حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق.

ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ذلِكَ : مبتدأ ، والْفَضْلُ : خبره ، وهُوَ :

ضمير فصل بين المبتدأ والخبر. والْكَبِيرُ : صفة الخبر ، ويصح القول : ذلِكَ مبتدأ أول ، وهُوَ مبتدأ ثان ، والْفَضْلُ خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول.

جَنَّاتُ عَدْنٍ إما مبتدأ ، ويَدْخُلُونَها الخبر ، أو بدل من قوله : الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو جنات. ويُحَلَّوْنَ خبر ثان أو

مِنْ أَساوِرَ جمع أسورة ، وهذا جمع س

الر شَكُورٌ.

البلاغة :

لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ ، وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ إطناب بتكرار الفعل ، للمبالغة في انتفاء كل من النصب واللغوب.

المفردات اللغوية :

مِنَ الْكِتابِ القرآن ، ومِنَ للتبيين. لِما بَيْنَ يَدَيْهِ تقدمه من الكتب.

(٢٧٨/٢٢)

لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ عالم بالبواطن والظواهر. ثُمَّ أَوْرَثْنَا أعطيناه وقضينا وقدرنا. الْكِتابَ القرآن. الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا اخترناهم ، وهم علماء الأمة الإسلامية من الصحابة ومن بعدهم. ظالِمٌ لِنَفْسِهِ بالتقصير في العمل به ، والظلم : تجاوز الحدود. مُقْتَصِدٌ متوسط يعمل به في أغلب الأوقات. سابِقٌ بِالْخَيْراتِ يضم إلى العلم والتعليم ، والإرشاد إلى العمل.

وسابِقٌ متقدم إلى ثواب اللّه ، وبِالْخَيْراتِ أي بسبب عمل الخيرات والأعمال الصالحة.

بِإِذْنِ اللَّهِ بإرادته وتوفيقه. ذلِكَ توريثهم الكتاب والاصطفاء ، وقيل : السبق إلى الخيرات.

جَنَّاتُ عَدْنٍ إقامة. أَساوِرَ جمع أسورة : وهي حلية تلبس في اليد. الْحَزَنَ الخوف من مخاطر المستقبل.

لَغَفُورٌ للذنوب. شَكُورٌ للطاعة.

ج ٢٢ ، ص : ٢٦٥

دارَ الْمُقامَةِ أي دار الإقامة الدائمة وهي الجنة. نَصَبٌ تعب. لُغُوبٌ إعياء من التعب أو كلال ، ونفيهما جميعا للدلالة على الاستقلال ، ولعدم التكليف في الجنة.

سبب النزول : نزول الآية (٣٥) :

الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ :

أخرج البيهقي وابن أبي حاتم عن عبد اللّه بن أبي أوفى قال : « قال رجل للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : إن النوم مما يقرّ اللّه به أعيننا في الدنيا ، فهل في الجنة من نوم ؟ قال : لا ، إن النوم شريك الموت ، وليس في الجنة موت ، قال : فما راحتهم ؟ فأعظم ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقال : ليس فيها لغوب ، كل أمرهم راحة ، فنزلت : لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ ، وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ » .

المناسبة :

(٢٧٩/٢٢)

بعد بيان الأصل الأول في العقيدة ، وهو وجود اللّه الواحد ، وإثباته بأنواع الأدلة ، وهي : وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة ، فقال : وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ.

ولما بيّن اللّه تعالى في الآية السابقة ثواب تلاوة كتاب اللّه ، أكد ذلك وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، فتاليه محق ومستحق لهذا الثواب ، وهو مصدق لما تقدمه من الكتب السابقة ، ثم قسم ورثته ثلاثة أنواع ، ثم أوضح جزاء العاملين به في الآخرة.

التفسير والبيان :

يبين اللّه تعالى مكانة القرآن ومهمته بين الكتب السماوية فقال :

وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ

ج ٢٢ ، ص : ٢٦٦

بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ

أي إن الذي أوحينا إليك به يا محمد وهو القرآن هو الحق الثابت الدائم ، المصدق والموافق لما تقدمه من الكتب السماوية السابقة ، إن اللّه محيط بجميع أمور عباده ، يعلم أحوالها الباطنة والظاهرة ، يشرع لهم من الشرائع والأحكام المناسبة لكل زمان ومكان ، وقد أنزله على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم خاتم النبيين والمرسلين ، لما اقتضت حكمته وعدله.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ، فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ أي ثم قضينا وقدرنا بتوريث هذا القرآن من اخترنا من عبادنا ، وهم يا محمد علماء أمتك من الصحابة فمن بعدهم ، التي هي خير الأمم بنص الآية : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [آل عمران ٣/ ١١٠] وجعلناهم أقساما ثلاثة :

١- الظالم لنفسه : بتجاوز الحد ، وهو المفرط في فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات.

(٢٨٠/٢٢)

٢- المقتصد : المتوسط المؤدي للواجبات ، التارك للمحرمات ، لكنه قد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات.

٣- السابق بالخيرات بإذن اللّه : وهو الذي يفعل الواجبات والمستحبات ، ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات. وهذا خير الثلاثة ، الذي سبق غيره في أمور الدين.

ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ أي توريث الكتاب والاصطفاء فضل عظيم من اللّه تعالى.

ثم أبان اللّه تعالى جزاء المؤمنين السابقين بغير حساب والمقتصدين بحساب يسير ، والظالمين إن رحموا ، فقال :

ج ٢٢ ، ص : ٢٦٧

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها ، يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ، وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ أي يدخل هؤلاء المصطفون جميعا جنات الإقامة الدائمة يوم المعاد ، التي يحلّون فيها أساور من ذهب مرصع باللؤلؤ ، ويكون لباسهم حريرا خالصا ، وقد أباحه اللّه تعالى لهم في الآخرة ، بعد أن كان محظورا عليهم في الدنيا.

ثبت في الصحيح أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « من لبس الحرير في الدنيا ، لم يلبسه في الآخرة » وقال : « هي لهم في الدنيا ، ولكم في الآخرة » .

وعلى هذا تكون الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، والعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة.

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي اللّه عنه ، وهو بدمشق ، فقال :

ما أقدمك أي أخي ؟ قال : حديث بلغني أنك تحدّث به عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم ، قال رضي اللّه عنه :

فإني سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول :

»

(٢٨١/٢٢)

من سلك طريقا يطلب فيها علما ، سلك اللّه تعالى به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل

العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورّثوا العلم ، فمن أخذ به ، أخذ بحظّ وافر » .

وَقالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ أي وقالوا حين استقروا في مأواهم جنات عدن : الحمد والشكر والثناء على اللّه الذي أزال عنا الخوف من المحذور ، وأراحنا من هموم الدنيا والآخرة ، إن ربنا صاحب الفضل والرحمة والسعة ، فهو غفور لذنوب عباده ، شكور لطاعتهم.

ج ٢٢ ، ص : ٢٦٨

روى الطبراني عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « ليس على أهل لا إله إلا اللّه وحشة في الموت ، ولا في القبور ، ولا في النشور ، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » .

قال ابن عباس رضي اللّه عنهما وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات.

ثم حمدوه أيضا على نعمة البقاء والاستقرار في الجنة والراحة فيها ، فقال :

الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ ، وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ أي يقولون : الذي أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام الذي لا تحول عنه من فضله ومنّه ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك ، كما

(٢٨٢/٢٢)

ثبت في الصحيح لدى مسلم وأبي داود عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه تعالى برحمة منه وفضل »

ولا نتعرض فيها لتعب ولا إعياء ، لا في الأبدان ولا في الأرواح إذ إنهم دأبوا على العبادة في الدنيا ، فصاروا في راحة دائمة مستمرة ، كما قال تعالى : كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ [الحاقة ٦٩/ ٢٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- القرآن الكريم هو الحق الصدق الثابت الذي لا شك فيه ، وهو الموافق والمصدق لأصول الكتب السماوية السابقة في صورتها الصحيحة قبل التحريف والتبديل لأن اللّه أعلم بما يحقق الحكمة والمصلحة والعدل.

٢- علماء الأمة الإسلامية من الصحابة فمن بعدهم ممن اختارهم اللّه ورثوا

ج ٢٢ ، ص : ٢٦٩

القرآن وضمنه كل كتاب منزل لأن اللّه شرفهم على سائر العباد ، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس ، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء وسيد ولد آدم.

٣- قسم اللّه الأمة المسلمة بالنسبة للعمل بالقرآن ثلاثة أقسام : الظالم لنفسه : أصحاب الكبائر من أهل التوحيد ، والمقتصد الذي لم يصب كبيرة ، والسابق إلى الأعمال الصالحة.

٤- وعد اللّه المصطفين جميعا أو السابقين إلى الخيرات جنات عدن يدخلونها ، متمتعين فيها بحلي الذهب المرصع باللؤلؤ ، مرتدين فيها الحرير الخالص. وهذا دليل سرورهم ومتعتهم.

٥- يحمد اللّه هؤلاء المؤمنون الذين جعل مأواهم جنات عدن ودار الإقامة ، قائلين : الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن أي الخوف من محذور المستقبل ، لا يصيبنا فيها عناء ولا إعياء ولا مشقة.

وهذا إخبار ببقائهم في الجنان ودوامهم فيها على الاستمرار.

(٢٨٣/٢٢)

جزاء الكافرين وأحوالهم في النار وتهديدهم على كفرهم [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣٦ الى ٣٩]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (٣٩)

ج ٢٢ ، ص : ٢٧٠

الإعراب :

لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا فَيَمُوتُوا : منصوب بأن مضمرة بعد النفي.

البلاغة :

غَفُورٌ شَكُورٌ كَفُورٍ صيغ مبالغة ، وتوافق فواصل.

فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ تهكم في صيغة أمر.

وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً ، وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً إطناب لزيادة التشنيع والتقبيح على الكافرين وكفرهم.

وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ سجع عفوي فيه غاية الجمال.

المفردات اللغوية :

لا يُقْضى عَلَيْهِمْ لا يحكم عليهم بموت ثان فَيَمُوتُوا يستريحوا من العذاب وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها بل كلما خبت زيد استعارها كَذلِكَ نَجْزِي مثل ذلك الجزاء ، أو كما جزيناهم كَفُورٍ كثير الكفر.

(٢٨٤/٢٢)

يَصْطَرِخُونَ فِيها يستغيثون في النار بشدة وصوت عال ، من الصراخ : وهو الصياح رَبَّنا أَخْرِجْنا بإضمار : يقولون : أخرجنا منها نَعْمَلْ صالِحاً تقييد العمل بالصالح للتحسر على ما عملوه من غير الصالح ، والاعتراف به.

أَ وَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ جواب من اللّه وتوبيخ لهم ، معناه نجعلكم تعمرون وقتا أو نمهلكم ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ أي أولم نعمركم وقتا كافيا للتذكر ، من أراد أن يتذكر وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ الرسول ، فما أجبتم لِلظَّالِمِينَ الكافرين نَصِيرٍ معين يدفع عنهم العذاب.

إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

لا تخفى عليه خافية ، فلا يخفى عليه أحوالهم إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ

بما في القلوب من العقائد والظنون ، وهو تعليل لما سبق لأنه إذا علم مضمرات الصدور- وهي أخفى ما يكون- كان علمه بغيرها أولى ، بالنظر إلى حال الناس.

ج ٢٢ ، ص : ٢٧١

خَلائِفَ جمع خليفة ، يخلف بعضكم بعضا وهو الذي يقوم بما كان يقوم به سلفه ، والخلفاء : جمع خليف. فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ جزاء كفره مَقْتاً غضبا وبغضا خَساراً خسارة للآخرة لأنهم اشتروا بعمرهم رأس المال سخط اللّه تعالى.

المناسبة :

بعد بيان جزاء ورثة القرآن ، ذكر جزاء الكفار لأن المقارنة تبعث في النفس طمأنينة وارتياحا ، وليعرف المؤمنون أن فخار الكفار في الدنيا عليهم ينقلب حسرة في الآخرة ، وأنه لا نصير للظالمين. ثم أردف ذلك ببيان إحاطة علم اللّه بالأشياء ، لينفي وجود نصير للظالمين ، ثم ذكر خلافتهم في الأرض ليقطع حجتهم بطلب العودة إلى الدنيا ، وأعقبه بتهديد الكافرين على كفرهم ، فإنه لا ينفع عند اللّه إلا المقت ، ولا يفيدهم إلا الخسارة ، فإن العمر كرأس مال من اشترى به رضا اللّه ربح ، ومن اشترى به سخطه خسر.

التفسير والبيان :

(٢٨٥/٢٢)

بعد بيان حال السعداء شرع اللّه تعالى في بيان حال الأشقياء في الآخرة ، فقال :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها أي والذين كفروا باللّه وبالقرآن وستروا ما تدل عليه العقول من دلالات واضحة على الحق ، لهم نار جهنم ، لا يحكم عليهم بموت ثان ، فيستريحوا من العذاب والآلام ، ولا يخفف عنهم شيء من العذاب طرفة عين ، بل كلما خبت زيد سعيرها ، وكلما نضجت جلودهم بدلهم اللّه جلودا غيرها ليذوقوا العذاب.

ونظير الآية قوله تعالى : وَنادَوْا يا مالِكُ ، لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ ، قالَ : إِنَّكُمْ ماكِثُونَ [الزخرف ٤٣/ ٧٧] وقوله سبحانه : إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ، وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ [الزخرف ٤٣/ ٧٤- ٧٥] وقوله :

ج ٢٢ ، ص : ٢٧٢

كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً [الإسراء ١٧/ ٩٧] وقوله : فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً [النبأ ٧٨/ ٣٠].

و

ثبت في صحيح مسلم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ، ولا يحيون » .

كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل مبالغ في الكفر ، فنزج به في قعر جهنم.

ثم وصف تعالى حالهم في العذاب بقوله :

وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها : رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أي وهؤلاء الكفار يستغيثون في النار ، رافعين أصواتهم ، ينادون قائلين : ربنا أخرجنا منها ، وارجعنا إلى الدنيا ، نعمل عملا صالحا ترضى عنه ، غير ما كنا نعمله من الشرك والمعاصي ، فنجعل الإيمان بدل الكفر ، والطاعة بدل المعصية.

فرد اللّه عليهم موبخا :

أَ وَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ أي ألم نبقكم مدة من العمر ، تتمكنون فيه من التذكر إذا أردتم التذكر ، أو أما عشتم في الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق ، لانتفعتم به في مدة عمركم ؟

ونظير الآية : فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ، ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا [غافر ٤٠/ ١١- ١٢].

و

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لقد أعذر اللّه تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر اللّه تعالى إليه ، لقد أعذر اللّه تعالى إليه » .

وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ أي وجاءكم الرسول المنذر ، وهو النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومعه

ج ٢٢ ، ص : ٢٧٣

القرآن ، ينذركم بالعقاب إن عصيتم. وقيل : النذير : الشيب. وقال الرازي :

أي آتيناكم عقولا ، وأرسلنا إليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول.

وبه يتبين أن اللّه تعالى احتج عليهم بالعمر والرسل لقوله تعالى :

وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ ، قالَ : إِنَّكُمْ ماكِثُونَ ، لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ [الزخرف ٤٣/ ٧٧- ٧٨] وقوله سبحانه :

كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قالُوا : بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنا وَقُلْنا : ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ [الملك ٦٧/ ٨- ٩].

فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ أي فذوقوا عذاب جهنم ، جزاء على مخالفتكم للأنبياء في الدنيا ، فليس لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال ، وهو تهكم بصيغة الأمر مثل قوله : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان ٤٤/ ٤٩].

(٢٨٧/٢٢)

ثم أخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع الأمور ومنها أحوالهم ، فقال :

إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ

أي إن اللّه يعلم كل أمر خفي في السموات والأرض ، ومنها أعمال العباد ، لا تخفى منها خافية ، فلو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحا ، كما قال سبحانه : وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ [الأنعام ٦/ ٢٨] وذلك لأنه عليم بما تنطوي عليه الضمائر ، وبما تكنّه السرائر ، من المعتقدات والظنون وحديث النفس ، وسيجازي كل عامل بعمله.

وفيه إشارة إلى أنه لو أعادهم إلى الدنيا لم يعدلوا عن الكفر أبدا. وقوله :

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ

تعليل لشمول علمه.

ج ٢٢ ، ص : ٢٧٤

ثم ذكر سببا آخر لعلمه بالغيب ، فقال :

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ أي إن اللّه هو الذي جعلكم يخلف قوم قوما آخرين قبلهم ، خلفا بعد خلف ، وجيلا بعد جيل ، لتنتفعوا بخيرات الأرض ، وتشكروا اللّه بالتوحيد والطاعة ، كما قال تعالى : وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ [النمل ٢٧/ ٦٢].

فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ أي فمن كفر منكم هذه النعمة ، فعليه ضرر كفره ، وجزاؤه عليه دون غيره.

وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً ، وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم اللّه تعالى وغضب عليهم ، وكلما أصروا على الكفر خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، وأصابهم النقص والهلاك.

وهذا التكرار دليل على أن الكفر يستوجب أمرين هما البغض والخسران.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- هذه أحوال النار ومقالتهم ، يخلدون في نار جهنم ، ولا يموتون فيها ولا يحيون : لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى [الأعلى ٨٧/ ١٣] ، ولا يخفف عنهم شيء من عذابها ، وهذا جزاء كل كافر باللّه ورسوله صلّى اللّه عليه وسلّم.

٢- إنهم يقولون في النار : ربنا أخرجنا من جهنم ، وردنا إلى الدنيا ، نعمل عملا صالحا غير عملنا الذي كنا نعمله ، وهو الشرك ، فنؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمتثل أمر الرسل.

٣- أجابهم اللّه تعالى بأنه أعطاهم مدة من العمر كافية ، يتمكن فيه كل واحد

ج ٢٢ ، ص : ٢٧٥

من التذكر إذا أراد التذكر ، وجاءتهم الرسل تنذرهم من عقاب اللّه إن أصروا على الكفر ، فكان أمامهم فرصتان : مدة العمر ، وإرسال الرسل.

٤- إن دار الآخرة ليست بدار تكليف ، فلا يقبل فيها تصحيح الإيمان ، ولا تنفع فيها التوبة ، فذلك كله محله دار الدنيا ، لذا يقال للكفار : ذوقوا عذاب جهنم لأنكم ما اعتبرتم ولا اتعظتم ، فما للظالمين من ناصر ولا مانع من عذاب اللّه تعالى.

٥- اللّه تعالى عالم بكل أمر خفي أو ظاهر في الدنيا والآخرة ، ومطلع على أعمال العباد ، وهو يعلم أنه لو رد الكفار إلى الدنيا لم يعملوا صالحا ، كما قال :

وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ [الأنعام ٦/ ٢٨] وهذا تقرير لدوامهم في العذاب.

وسبب سعة علمه بالغيب : أنه عالم في الماضي والمستقبل بمضمرات الصدور ، وأنه جعل الناس خلفا بعد خلف ، وقرنا بعد قرن ، للانتفاع بكنوز الأرض ، وشكر اللّه بالتوحيد والطاعة.

٦- من كفر فعليه جزاء كفره وهو العقاب والعذاب.

٧- إذا استمر الكفار على كفرهم لم يستفيدوا إلا أمرين : المقت ، أي البغض والغضب من اللّه تعالى ، والخسارة ، أي الهلاك والضلال. فهل من معتبر منهم في الدنيا قبل فوات الأوان ؟

مناقشة المشركين في عبادة الأوثان وإنكار التوحيد [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٤٠ الى ٤١]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١)

ج ٢٢ ، ص : ٢٧٦

الإعراب :

أَرُونِي بدل اشتمال من أَرَأَيْتُمْ.

إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ جملة سادّة مسد الجوابين : جواب القسم وجواب الشرط.

البلاغة :

أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ استفهام إنكاري للتوبيخ.

حَلِيماً غَفُوراً من صيغ المبالغة.

غُرُوراً غَفُوراً توافق فواصل.

المفردات اللغوية :

أَرَأَيْتُمْ أي أخبروني الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تعبدون من غير اللّه ، وهم الأصنام الذين زعمتم أنهم شركاء للّه تعالى أَرُونِي أخبروني شِرْكٌ شركة مع اللّه فِي السَّماواتِ أي في خلقها أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً ينطق على أنا اتخذنا شركاء فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ على حجة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية ، أي لهم معي شركة بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ أي ما يعد الكافرون. ولمّا تقرر نفي أنواع الحجج في ذلك ، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه ، وهو تغرير الأسلاف الأخلاف أو الرؤساء الأتباع غُرُوراً باطلا.

يُمْسِكُ يحفظ أَنْ تَزُولا كراهة أن تضطرب وتنتقل من أماكنها ، من الزوال ، والمعنى : يمنعهما من الزوال وَلَئِنْ اللام لام القسم إِنْ أَمْسَكَهُما ما أمسكهما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ أي من بعد اللّه ، أي سواه ، أو من بعد الزوال ، ومن الأولى : زائدة ، والثانية : للابتداء والمعنى الأصح : لا يقدر أحد غيره تعالى على إمساكهما لو فرض زوالهما إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً في تأخير عقاب الكفار ، وفي إمساكه السموات والأرض.

ج ٢٢ ، ص : ٢٧٧

المناسبة :

بعد بيان جزاء المؤمنين والكافرين وتهديد كل من كفر باللّه ، ذكر تعالى ما يدعو للتوحيد ويبطل الإشراك ، مناقشا المشركين في أبسط مقومات عبادة الإله : وهو الخلق والإبداع ، وأن هذه الآلهة المزعومة عاجزة عن ذلك.

التفسير والبيان :

قُلْ : أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ قل أيها النبي للمشركين : أخبروني عن الشركاء الذين تعبدونهم من دون اللّه وتتخذونهم آلهة من الأصنام والأوثان ، هل خلقوا شيئا من الأرض ، حتى يستحقوا الألوهية ؟

أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ وهل لهم شركة مع اللّه في خلق السموات أو في ملكها أو في التصرف فيها ، حتى يستحقوا بذلك الشركة في الألوهية ؟

أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؟ أي وهل أنزلنا عليهم كتابا يقرر ما يقولونه من الشرك والكفر ، يكون لهم حجة فيما يدعون ؟

بَلْ ، إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم ، وهي كلها غ

و بعد بياالأصنام وعجزها عن أي شيء ، أبان تعالى ما يؤهله للعبادة ، ويجعله أهلا للعظمة ، فقال مبينا قدرته وبديع صنعه :

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا أي إن اللّه يمنع زوال

ج ٢٢ ، ص : ٢٧٨

السموات والأرض واضطرابها ، وانتقالها من أماكنها ، وهذا يشير إلى نظام الجاذبية ، وأن الأرض كرة تسبح في الفضاء ، كغيرها من الشمس والقمر والكواكب الأخرى السيارة التي تجري في مدارات خاصة

بها ، كما قال عز وجل :

وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ [فاطر ٣٥/ ٤١] وقال سبحانه :

وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ [الروم ٣٠/ ٢٥].

وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً أي لو قدّر إشرافهما على الزوال ، لا يقدر أحد غيره تعالى على إمساكهما ، ولا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، يمهل عقاب المشركين ، ويغفر لمن تاب منهم ما أجرم في الماضي ، فهو يحلم فيؤخّر ويؤجّل ، ولا يعجّل ، ويستر آخرين ويغفر ، ويظل ممسكا السموات والأرض ، بالرغم من أنه يرى عباده ، وهم يكفرون به ويعصونه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- يتحدى اللّه تعالى المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد ، ويطالبهم أن يخبروا عن شركائهم الذين يعبدونهم من دون اللّه ، أعبدوهم لأن لهم شركة في خلق السموات والأرض ، أم خلقوا من الأرض شيئا ؟ ! أم عندهم كتاب أنزله إليهم بالشركة ؟ ! وقوله شُرَكاءَكُمُ : إنما أضاف الشركاء إليهم ، من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء للّه ، وإنما هم جعلوها شركاء ، فقال : شُرَكاءَكُمُ أي الشركاء بجعلكم. ويحتمل أن يقال : شركاءكم في النار ، لقوله تعالى : إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ [الأنبياء ٢١/ ٩٨] قال الرازي : وهو قريب ، ويحتمل أن يقال : هو بعيد ، لاتفاق المفسرين على الأول.

ج ٢٢ ، ص : ٢٧٩

٢- الحقيقة أنه لا جواب يقنع من المشركين ، وإنما هم يتبعون أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم ، وهي باطل وزور ، وما مواعيدهم لبعضهم بعضا إلا أباطيل تغرّ ، حين قال السادة للأتباع : إن هذه الآلهة تنفعكم وتقرّبكم.

٣- الدليل على عظمة اللّه وقدرته بعد ثبوت ضعف الأصنام وعجزها : هو أن اللّه خالق السموات والأرض وممسكهما ، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده ، ولا يبقى إلا ببقائه ، ولو زالتا فرضا واضطربتا ما أمسكهما من أحد غير اللّه جل جلاله.

٤- من صفات اللّه العليا : الحلم ، فلا يعجل العقوبة للكفار والعصاة ، والمغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ، ثم اهتدى إلى طريق الحق على الدوام ، وهو تعالى يحافظ على هذا النظام البديع

للكون ، بالرغم من كفر الكافرين.

إنكار المشركين الرسالة النبوية وتهديدهم بالإهلاك [سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٤٢ الى ٤٥]

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤٢) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (٤٥)

ج ٢٢ ، ص : ٢٨٠

الإعراب :

اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ اسْتِكْباراً مفعول لأجله ، ومَكْرَ السَّيِّئِ منصوب على المصدر ، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، بدليل قوله تعالى : وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ.

البلاغة :

ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ في ظَهْرِها استعارة مكنية ، شبّه الأرض بدابة تحمل على ظهرها أنواع المخلوقات ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الظهر ، بطريق الاستعارة المكنية.

عَلِيماً قَدِيراً بَصِيراً من صيغ المبالغة.

المفردات اللغوية :

وَ أَقْسَمُوا حلف المشركون جَهْدَ أَيْمانِهِمْ طاقتها وغاية اجتهادهم فيها لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ رسول منذر أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ اليهود أو النصارى ، لما رأوا من تكذيب بعضهم بعضا إذ قالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ما زادَهُمْ مجيئه إِلَّا نُفُوراً تباعدا عن الحق والهدى.

اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ أي إنهم ما كذبوا برسالة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم لاعتقاد كذبه ، إنما فعلوا ذلك لأجل الاستكبار عن أن يكونوا أتباعا له ، ولأجل العتو : وهو التجبر والمضي في الفساد وَمَكْرَ

السَّيِّئِ أي ومكر العمل السيء من الشرك وكيد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، والمكر : هو الحيلة والخداع والعمل القبيح وَلا يَحِيقُ لا يصيب ولا ينزل ولا يحيط إِلَّا بِأَهْلِهِ وهو الماكر فَهَلْ يَنْظُرُونَ ينتظرون إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ طريقة المتقدمين من تعذيب المكذبين رسلهم فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا أي لا يبدل بالعذاب غيره ، ولا يحول إلى غير مستحقه ، وبعبارة أخرى : التبديل : وضع الرحمة موضع العذاب ، والتحويل : نقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم.

عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مصير وآثار الماضين من قبلهم أثناء سيرهم إلى الشام واليمن والعراق ، كعاد وثمود ومدين وأمثالهم ، نزل بهم العذاب ، لما كذبوا الرسل ، فتلك سنة اللّه في المكذبين التي لا تبدّل ولا تحوّل وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وأطول أعمارا ، وأكثر أموالا ، وأقوى أبدانا ، من أهل مكة ، فأهلكهم اللّه بتكذيبهم رسلهم. والواو : واو الحال وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ

ج ٢٢ ، ص : ٢٨١

شَيْ ءٍ

يسبقه ويفوته إِنَّهُ كانَ عَلِيماً بالأشياء كلها لا يخفى عليه شيء قَدِيراً لا يصعب عليه أمر.

بِما كَسَبُوا عملوا من الذنوب أو المعاصي أو الخطايا عَلى ظَهْرِها على ظهر الأرض من الأحياء مِنْ دَابَّةٍ من الدواب التي تدبّ ، والدابة : كل ما يدبّ على الأرض وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى هو يوم القيامة فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً أي فيجازيهم على أعمالهم ، بإثابة المؤمنين ، وعقاب الكافرين.

سبب النزول : نزول الآية (٤(٢) :

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه : أن قريشا كانت تقول : لو أن اللّه بعث منا نبيا ، ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها ، ولا أسمع لنبيها ، ولا أشد تمسكا بكتابها منا ، فأنزل اللّه : وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ : لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ [الصافات ٣٧/ ١٦٨] لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ [الأنعام ٦/ ١٥٧] وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ وكانت اليهود تستفتح على النصارى به ، فيقولون : إنا نجد نبيا يخرج.

المناسبة :

بعد بيان إنكار المشركين للتوحيد ، وتوبيخهم وتقريعهم على سخف عقولهم ، ذكر اللّه تعالى تكذيبهم للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، بعد ترقبهم له ، ثم هددهم بالهلاك كمن قبلهم من الأمم الغابرة الذين كذبوا رسلهم ، وأردفه بتذكيرهم بما يشاهدونه في رحلاتهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار تدمير منازل المكذبين بالرغم من كمال القوة ، وكثرة المال والولد ، وختم السورة ببيان مدى حلمه على الناس

، وأنه لو أراد مؤاخذتهم لأفناهم ، ولكنه أخرّ عقابهم إلى يوم القيامة ، وحينها يعاقبهم على أعمالهم.
ج ٢٢ ، ص : ٢٨٢
التفسير والبيان :

(٢٩٦/٢٢)

هذا نبأ عجيب غريب عن قريش والعرب لا علم لنا به من غير القرآن ، قال تعالى :
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ : لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ أقسمت قريش والعرب باللّه أغلظ الأيمان قبل إرسال الرسول إليهم : لئن جاءهم من اللّه رسول منذر ليكونن أمثل من أي أمة من الأمم أو من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل في الطاعة ، وأشدهم تمسكا بالرسالة وقبولا لها.
وذلك كقوله تعالى : أَنْ تَقُولُوا : إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا ، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ ، فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْها ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ [الأنعام ٦/ ١٥٦- ١٥٧].
فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً ، اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ ، وَمَكْرَ السَّيِّئِ أي فلما أتاهم ما تمنوه ، وهو رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بما أنزل عليه من القرآن العظيم ، ما ازدادوا إلا كفرا إلى كفرهم وتباعدا عن الإيمان وإجابة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، مستكبرين عن اتباع آيات اللّه ، ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل اللّه تعالى.
وبه تبين ألا عهد لهم ، ولا صدق في كلامهم ، ولا وفاء بما يقولون ، فتحملوا ثم فعلهم كما قال تعالى :

(٢٩٧/٢٢)

وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم نفسهم دون غيرهم ، وعادت عليهم عاقبة مكرهم بالإثم والوزر ، ونزلت عاقبة لسوء بمن أساء ، قبل المساء إليه ، كما قال تعالى :
وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ
ج ٢٢ ، ص : ٢٨٣
مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ
[الشعراء ٢٦/ ٢٢٧] ومكر السي ء : أي مكر العمل السيء ، والمكر : هو الحيلة والخداع والعمل

القبيح ، وهو هنا الكفر وخداع الضعفاء ، وصدهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم.
ثم هددهم بجزاء أمثالهم ، فقال :
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ أي فهل ينتظرون إلا عقوبة لهم على تكذيبهم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ومخالفة أوامره مثل عقوبة اللّه للأمم الماضية المكذبين.
فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا أي تلك سنة اللّه وطريقته. التي لا تتغير ولا تتبدل في كل مكذب ، فلن توضع الرحمة موضع العذاب ، ولن يحوّل العذاب من مكذب إلى غيره ، كما قال تعالى : وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ ، وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ [الرعد ١٣/ ١١].
ثم لفت أنظارهم إلى آثار تدمير الماضين المكذبين فقال :
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً أي أولم ينتقلوا في الأراضي في رحلاتهم إلى الشام واليمن والعراق ، فيشاهدوا مصير السابقين الذين كذبوا الرسل ، كيف دمّر اللّه عليهم ، وللكافرين أمثالهم ، بالرغم من أنهم كانوا أشد قوة من قريش وأكثر عددا وعددا ، وأموالا وأولادا ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع عنهم من عذاب اللّه من شيء ، لما جاء أمر ربك ، لأنه كما قال تعالى :

وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً أي لأن اللّه لا يعجزه ولا يفوته أو يسبقه شيء إذا أراد حدوثه في السموات والأرض ، فلن يعجزه هؤلاء المشركون المكذبون لرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولن يفلتوا من عقابه لأن اللّه تعالى عليم بجميع الكائنات لا يخفى عليه شيء ، قدير
ج ٢٢ ، ص : ٢٨٤
لا يصعب عليه أمر ، فهو يعلم المستحق للعقوبة ، قادر على الانتقام منه في أي وقت أو مكان شاء.
ثم أبان اللّه تعالى سياسته العقابية ، وأخبر عن سابغ وواسع رحمته بالناس ، فقال :
وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ أي لو عجل تعالى العقاب وآخذ الناس بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل السموات والأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق ، لشؤم معاصيهم. والمراد بالدابة كما قال ابن مسعود : جميع الحيوان مما دبّ ودرج.
وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً أي ولكن يؤجل عقابهم ومؤاخذتهم بذنوبهم إلى وقت محدد وهو يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفي كل عامل بعمله ، فيجازي بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ، واللّه بصير بمن يستحق منهم الثواب ، ومن

يستحق منهم العقاب ، لا يخفى عليه شيء من أمرهم.
ونظير الآية : وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا [الكهف ١٨/ ٥٨].
فقه الحياة أو الأحكام :
أرشدت الآيات إلى ما يأتي :
١- أقسمت قريش قبل بعثة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم أنه إن جاءهم نبي ليكونن أهدى ممن كذب الرسل من أهل الكتاب.

(٢٩٩/٢٢)

و كانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل.
فلما جاءهم ما تمنّوه وهو الرسول النذير ، من أنفسهم ، نفروا عنه ، ولم يؤمنوا
ج ٢٢ ، ص : ٢٨٥
به ، تكبرا وعتوا عن الإيمان ، ومكرا منهم بصدهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم.
٢- لكن تنكر المشركين للعهد باللّه ، وإخلالهم بالوفاء باليمين ، وعاقبة شركهم : لا ترتد آثاره إلا عليهم أنفسهم. وهذا ما دل عليه قوله تعالى :
وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ. وفي أمثال العرب : « من حفر لأخيه جبّا ، وقع فيه منكبّا » و روى الزهري أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « لا تمكر ولا تعن ماكرا ، فإن اللّه تعالى يقول : وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ولا تبغ ولا تعن باغيا ، فإن اللّه تعالى يقول : فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وقال تعالى : إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ.
و
في الحديث الذي أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن قيس بن سعد : « المكر والخديعة في النار » أي تدخل أصحابها في النار لأنها من أخلاق الكفار ، لا من أخلاق المؤمنين الأخيار ،
قال صلّى اللّه عليه وسلّم : « و ليس من أخلاق المؤمن : المكر والخديعة والخيانة » .
٣- ما موقف المشركين المعاند من نبي اللّه إلا كموقف من ينتظر العذاب الذي نزل بالكفار الأولين ، وقد أجرى اللّه العذاب على الكفار ، وجعل ذلك سنة أي طريقة فيهم ، فهو يعذب المستحق ، لا يقدر أحد أن يبدل ذلك ، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره. والإهلاك ليس سنة الأولين وإنما هو سنة اللّه بالأولين.

(٣٠٠/٢٢)

٤- تأكيدا لهذا الموقف نبّههم اللّه تعالى إلى الأمثلة الواقعية من تاريخ الأمم الغابرة ، وهم الذين يشاهدون آثار تدمير مساكنهم ودورهم أثناء تجاراتهم ورحلاتهم إلى بلاد اليمن والشام والعراق ، مثل إهلاك قوم عاد وثمود ومدين وغيرهم ، لما كذبوا رسل اللّه ، وكانوا أشد من أهل مكة قوة ، وأكثر أموالا وأولادا ، وإذا أراد اللّه إنزال عذاب بقوم لم يعجزه ذلك.

٥- اقتضت رحمة اللّه تبارك وتعالى ألا يعجل العذاب للعصاة والكفار على

ج ٢٢ ، ص : ٢٨٦

ذنوبهم ، وإنما يؤخرهم ويمهلهم إلى يوم معين كي تكون لديهم فرصة ، فيتداركوا تقصيرهم ، ويعدلوا عن ظلمهم ، وكان مقتضى العدل تعجيل العقوبة ، وإذا فعل اللّه ذلك ، أهلك جميع المخلوقات إلا من يشاء ، واللّه سبحانه عليم بمن يستحق العقاب منهم.

وهذا رد بليغ على المشركين الذين كانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم وعتوهم يستعجلون بالعذاب ، ويقولون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : عجل لنا عذابنا ، فقال اللّه : للعذاب أجل.

وقد حكى القرآن الكريم استعجال المشركين بالعقاب استهزاء ، حيث قالوا :

اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ، أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ [الأنفال ٨/ ٣٢].

ج ٢٢ ، ص : ٢٨٧

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

سورة يس

مكيّة ، وهي ثلاث وثمانون آية.

تسميتها :

سميت سورة يس لافتتاحها بهذه الأحرف الهجائية ، التي قيل فيها إنها نداء معناه (يا إنسان) بلغة طي لأن تصغير إنسان : أنيسين ، فكأنه حذف الصدر منه ، وأخذ العجز ، وقال : يس أي أنيسين. وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، بدليل قوله تعالى بعده. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة :

١- بعد أن ذكر تعالى في سورة فاطر قوله : وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ [٣٧] وقوله : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ [٤٢] والمراد به محمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، افتتح هذه السورة بالقسم على صحة رسالته ، وأنه على صراط مستقيم ، وأنه أرسل لينذر قوما ما أنذر آباؤهم.

٢- هناك تشابه بين السورتين في إيراد بعض أدلة القدرة الإلهية الكونية ، فقال تعالى في سورة فاطر : وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى

ج ٢٢ ، ص : ٢٨٨

[١٣] وقال في سورة يس : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [٣٧- ٣٨].

٣- وقال سبحانه في فاطر : وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ [١٢] وقال في يس : وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [٤١].

مشتملاتها :

تضمنت هذه السورة كسائر السور المكية المفتتحة بأحرف هجائية الكلام عن أصول العقيدة من تعظيم القرآن الكريم ، وبيان قدرة اللّه ووحدانيته ، وتحديد مهام النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالبشارة والإنذار ، وإثبات البعث بأدلة حسية مشاهدة من الخلق المبتدأ والإبداع الذي لم يسبق له مثيل.

وقد بدئت السورة بالقسم الإلهي بالقرآن الحكيم على أن محمدا رسول حقا من رب العالمين لينذر قومه العرب وغيرهم من الأمم ، فانقسم الناس من رسالته فريقين : فريق معاند لا أمل في إيمانه ، وفريق يرجى له الخير والهدى ، وأعمال كل من الفريقين محفوظة ، وآثارهم مدونة معلومة في العلم الأزلي القديم.

(٣٠٢/٢٢)

ثم ضرب المثل لهم بأهل قرية كذبوا رسلهم واحدا بعد الآخر ، وكذبوا الناصح لهم وقتلوه ، فدخل الجنة ، ودخلوا هم النار. وأعقب ذلك تذكيرهم بتدمير الأمم المكذبة الغابرة.

وانتقل البيان إلى إثبات البعث والقدرة والوحدانية بإحياء الأرض الميتة ، وبيان قدرة اللّه الباهرة في الكون من تعاقب الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب السيارة والثابتة ، وتسيير السفن في البحار.

وإزاء ذلك هزم الجاحدون ، وأنذروا بالعقاب السريع ، وفوجئوا بنقمة اللّه في تصوير أهوال القيامة ، وبعثهم من القبور بنفخة البعث والنشور ، فأعلنوا

ج ٢٢ ، ص : ٢٨٩

ندمهم ، وصرحوا بأن البعث حق ، ولكن لم يجدوا أمامهم إلا نار جهنم ، وكانوا قد وبخوا على اتباع وساوس الشيطان ، وأعلموا أن اللّه قادر على مسخهم في الدنيا.

وأما المؤمنون فيتمتعون بنعيم الجنان ، ويحسون بأنهم في أمن وسلام من رب رحيم.

ثم نفى اللّه تعالى كون رسوله شاعرا ، وأعلم الكافرين أنه منذر بالقرآن المبين أحياء القلوب ، وذكّر الناس قاطبة بضرورة شكر المنعم على ما أنعم عليهم من تذليل الأنعام ، والانتفاع بها في الطعام والشراب واللباس.

وندد اللّه تعالى باتخاذ المشركين آلهة من الأصنام أملا في نصرتها لهم يوم القيامة ، مع أنها عاجزة عن أي نفع ، وهم مع ذلك جنودها الطائعون.

وختمت السورة بالرد القاطع على منكري البعث بما يشاهدونه من ابتداء الخلق ، وتدرج الإنسان في أطوار النمو ، وإنبات الشجر الأخضر ثم جعله يابسا ، وخلق السموات والأرض ، وإعلان القرار النهائي الحتمي الناجم عن كل ذلك ، وهو قدرة اللّه الباهرة على إيجاد الأشياء بأسرع مما يتصور الإنسان ، وأنه الخالق المالك لكل شيء في السموات والأرض.

(٣٠٣/٢٢)

و الخلاصة : أن السورة كلها إيقاظ شديد للمشاعر والوجدان ، وتحريك قوي للأحاسيس ، وفتح نفّاذ للقلوب ، لكي تبادر إلى الإقرار بالخالق وتوحيده ، والإيمان بالبعث والجزاء.

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في كتاب أبي داود عن معقل بن يسار : « اقرؤوا يس على موتاكم » .

ج ٢٢ ، ص : ٢٩٠

القرآن والرسول والمرسل إليهم [سورة يس (٣٦) : الآيات ١ الى ١٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)

وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (١٢)

الإعراب :

يس إما بالرفع خبر مبتدأ محذوف ، أي هذه يس ، وإما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبني كحيث ، وقرئ بالنصب على معنى : اتل يس ، وإما بالفتح كأين وكيف ، وقرئ بالكسر مثل : جير لإسكان الياء وكسر ما قبلها. ومنهم من أظهر النون ، ومنهم من أدغمها في الواو ، فمن أظهرها فلأن حروف الهجاء من حقها أن يوقف عليها ، كالعدد ، ولذلك لم تعرب ، ومن أدغمها أجراها مجرى المتصل ، والإظهار أقيس.

(٣٠٤/٢٢)

لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ في موضع رفع خبر (إن) وعَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ إما في موضع رفع خبر بعد خبر (إن) وإما في موضع نصب متعلق ب الْمُرْسَلِينَ.

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ منصوب على المصدر ، مصدر (نزّل) وهو مضاف إلى الفاعل ،

ج ٢٢ ، ص : ٢٩١

و يقرأ بالرفع على تقدير مبتدأ محذوف ، تقديره : هو تنزيل ، ويقرأ أيضا بالجر على البدل من القرآن.

ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ قَوْماً : إما نافية ، وإما مصدرية في موضع نصب ، تقديره : لتنذر قوما إنذارا مثل إنذارنا آباءهم ، ممن كانوا في زمان إبراهيم وإسماعيل.

وَآثارَهُمْ هي السنن التي سنّوها ، فيه محذوف تقديره : سنكتب ذكر ما قدموا وذكر آثارهم ، ف

البلاغة :

وما لم ينذر آباؤهم الأقربون ، في زمن الفترة ، أو لتطاول مدة الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام.

غافِلُونَ أي إن القوم العرب غافلون عن الإيمان والرشد ، وعن الشرائع والأحكام.

حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ وجب الحكم بالعذاب على أكثر أهل مكة : وهم من مات على الكفر وأصرّ عليه. فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ لأنهم ممن علم اللّه أنهم لا يؤمنون بالقرآن.

أَغْلالًا جمع غلّ : وهو ما تجمع به اليد إلى العنق للتعذيب. فَهِيَ الأيدي مجموعة.

(٣٠٥/٢٢)

إِلَى الْأَذْقانِ جمع ذقن : وهي مجتمع اللّحيين. مُقْمَحُونَ رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها ، غاضون أبصارهم في عدم التفاتهم إلى الحق. وهذا تمثيل ، يراد به أنهم لا يذعنون للإيمان ولا يخفضون نفوسهم له. مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ أمامهم ، والمراد : منعناهم عن الإيمان بموانع هي استكبارهم

وعتوهم وعنادهم عن قبول الحق والخضوع له. فَأَغْشَيْناهُمْ غطينا أبصارهم. فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ أي فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار سبيل الهدى ، إنهم عموا عن البعث ، وعن قبول الشرائع الإلهية. وهذا تمثيل أيضا لسد طريق الإيمان عليهم لأن اللّه سبحانه قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر والموت عليه. والعلم : مجرد معرفة مسبقة لا يمنع الإنسان عقلا وواقعا من الإيمان لأنه غير معروف له.

وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أي إنذارك إياهم وعدمه سواء ، فلا ينفعهم الإنذار ، بسبب العتو والاستكبار. إِنَّما تُنْذِرُ ينفع إنذارك. مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ أي اتبع القرآن ، وخاف عقاب اللّه في السر والعلن ، وإن لم يره ، والغيب : أي قبل معاينة أهواله. وَأَجْرٍ كَرِيمٍ هو الجنة.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى نبعثهم بعد الموت. وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا أي نكتب في اللوح المحفوظ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة. وَآثارَهُمْ أي ما أبقوه بعدهم من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت ، كالعلم والكتاب والمسجد والمشفى والمدرسة ، أو من السيئات كنشر البدع والمظالم والأضرار والضلالات بين الناس. وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ أي كل شيء من أعمال العباد وغيرها ضبطناه في اللوح المحفوظ أو في صحائف الأعمال.

سبب النزول : نزول الآية (١) :

يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ :

(٣٠٦/٢٢)

أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال :

ج ٢٢ ، ص : ٢٩٣

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقرأ في السجدة ، فيجهر بالقراءة حتى يتأذى به ناس من قريش ، حتى قاموا ليأخذوه ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا بهم عمي لا يبصرون ، فجاءوا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا : ننشدك اللّه والرحم يا محمد ، فدعا حتى ذهب ذلك عنهم. فنزلت : يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إلى قوله : أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

نزول الآية (٨) :

إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا : أخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا لأفعلن ، فأنزل اللّه : إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا إلى قوله : لا يُبْصِرُونَ فكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو ، أين هو ؟ لا يبصر.

نزول الآية (١(٢) :

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى :

أخرج الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سلمة في ناحية المدينة ، فأرادوا النّقلة إلى قرب المسجد ، فنزلت هذه : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن آثاركم تكتب ، فلا تنتقلوا » . وأخرج الطبراني عن ابن عباس مثله.

و

أخرج عبد الرزاق عن أبي سعيد قال : شكت بنو سلمة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعد منازلهم من المسجد ، فأنزل اللّه تعالى : وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « عليكم منازلكم ، فإنما تكتب آثاركم » .

التفسير والبيان :

يس ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي

ج ٢٢ ، ص : ٢٩٤

(٣٠٧/٢٢)

أقسم بالقرآن ذي الحكمة البالغة ، المحكم بنظمه ومعناه بأنك يا محمد لرسول من عند اللّه على منهج سليم ، ودين قويم ، وشرع مستقيم لا عوج فيه.

وفي هذا إشارة إلى أن القرآن هو المعجزة الباقية ، وأن محمدا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، صادق في نبوته ، ومرسل برسالة دائمة من عند ربه.

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أي هذا القرآن والدين والصراط الذي جئت به تنزيل من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ [الشورى ٤٢/ ٥٢- ٥٣].

وهذا دليل واضح على مكانة القرآن وأنه أجل نعمة من نعم الرحمن.

لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ ، فَهُمْ غافِلُونَ أي أرسلناك أيها النبي لتنذر العرب الذين لم يأتهم رسول نذير من قبلك ، ولم يأت آباءهم الأقربين من ينذرهم ويعرّفهم شرائع اللّه تعالى ، فهم غافلون عن معرفة الحق والنور والشرائع التي تسعد البشر في الدارين.

لكنّ ذكرهم وحدهم هنا للعناية بهم وتوجيه الخطاب لهم : لا ينفي كونه مرسلا إلى الناس كافة ، بدليل الآيات والأحاديث المتواترة المعروفة في عموم بعثته صلّى اللّه عليه وسلّم ، مثل قوله تعالى : قُلْ : يا

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف ٧/ ١٥٨] و
قوله صلّى اللّه عليه وسلّم فيما أخرجه الشيخان والنسائي عن جابر : « و كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » .

(٣٠٨/٢٢)

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أي لقد وجب العذاب على أكثر أهل مكة ، وهو ما سجّل عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون بالقرآن وبمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهم الذين علم اللّه أنهم يموتون على الكفر ، ويصرون عليه طوال حياتهم.
ج ٢٢ ، ص : ٢٩٥
و المراد بالقول : الحكم والقضاء الأزلي ، وهو سبق علم اللّه بنهاياتهم ، لا بطريق الجبر والإلجاء ، بل باختيارهم وإصرارهم على الكفر ، وفي هذا تطمين للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم حتى لا يجزع ولا يأسف على عدم إيمانهم به.
ثم ضرب اللّه تعالى مثلا لتصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى إيمانهم ، فقال :
إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا ، فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ أي إنا جعلنا أيديهم مشدودة إلى أعناقهم بالقيود ، تمنعهم من فعل شيء ، فصاروا مرفوعي الرؤوس خافضي الأبصار. وهذا يعني أن اللّه جعلهم كالمغلولين المقمحين (الرافعي رؤوسهم الغاضي أبصارهم) في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يوجهون أنظارهم نحوه ، وهم أيضا كالقائمين بين سدين ، لا يبصرون أمامهم ولا خلفهم ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات اللّه ، كما قال :
وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ، فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ أي تأكيدا لما سبق في تصوير حالتهم أنهم بتعاليهم عن النظر في آيات اللّه جعلوا كمن أحاط به سدان من الأمام والخلف ، فمنعاه من النظر ، فهو لا يبصر شيئا ، وهؤلاء لا ينتفعون بخير ، ولا يهتدون إليه لأنا غطينا أبصارهم عن الحق.
وهذا مثل صائب لأهل الجهالة والتخلف والبدائية الذين حجبوا مداركهم وأبصارهم عن التأمل في معطيات المدنية والتقدم والحضارة ، وهو تمثيل رائع للسد الإلهي المعنوي بالسد الحاجز المادي الحسي.
ونتيجة لما سبق :

(٣٠٩/٢٢)

وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أي إن إنذارك لهؤلاء المصرين على كفرهم وعدمه سواء ، فلا ينفعهم الإنذار ، ما داموا غير مستعدين

ج ٢٢ ، ص : ٢٩٦

لقبول الحق ، والخضوع لنداء اللّه ، والنظر في الدلائل الدالة على صدق رسالة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والتأمل في عجائب الكون المشاهدة الدالة على وجود اللّه تعالى ووحدانيته.

أما نفع الإنذار ، فهو كما ذكر تعالى :

إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ، وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ أي إنما ينفع إنذارك الذين آمنوا بالقرآن العظيم واتبعوا أحكامه وشرائعه ، وخافوا عقاب اللّه قبل حدوثه ومعاينة أهواله ، أو خشوا اللّه قبل رؤيته ، فهؤلاء بشرهم بمغفرة لذنوبهم ، ورضوان من اللّه ، وأجر كريم ونعيم مقيم هو الجنة.

ونظير الآية : إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ، وَأَجْرٌ كَبِيرٌ [الملك ٦٧/ ١٢].

ثم أكد اللّه تعالى حصول الجزاء للمؤمنين وغيرهم ، فقال :

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى ، وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ أي إننا قادرون فعلا على إحياء الموتى ، وبعثهم أحياء من قبورهم ، ونحن الذين ندوّن لهم كل ما قدموه وأسلفوه من عمل صالح أو سيء ، وتركوا من أثر طيب أو خبيث ، أي نكتب ونسجل أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التي أثروها وخلفوها من بعدهم ، فنجزيهم على ذلك إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فمن عمل على نشر الفضيلة جوزي بها ، ومن عمد إلى نشر الرذيلة والسوء في الملاهي أو الكتب الخليعة يحاسب عليها.

وهذا

كقوله صلّى اللّه عليه وسلّم- فيما رواه مسلم عن جرير بن عبد اللّه البجلي- : « من سنّ في الإسلام سنّة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا » .

ج ٢٢ ، ص : ٢٩٧

و

روى مسلم أيضا عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده » .

ثم ذكر تعالى أن كتابة الآثار لا تقتصر على الناس ، وإنما تتناول جميع الأشياء ، فقال :
وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ أي لقد ضبطنا وأحصينا كل شيء من أعمال العباد وغيرهم في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي سجّل فيه جميع ما يتعلق بالكائنات ، كما قال تعالى : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى [طه ٢٠/ ٥٢] وقال سبحانه : وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ [القمر ٥٤/ ٥٢- ٥٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- القرآن الكريم معجزة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الخالدة إلى يوم القيامة ، وهو تنزيل من رب العالمين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢- الرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلّم رسول من عند اللّه ، أرسله اللّه بالهدى ودين الحق ، على منهج وطريق ودين مستقيم هو الإسلام.

٣- رسالة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى العرب خاصة وإلى الناس كافة ، فلم يبق بعدها عذر لمعتذر.

٤- إن رؤوس الكفر والطغيان والعناد من أهل مكة أو العرب استحقوا الخلود في نار جهنم والعذاب الدائم فيها لأنهم أصروا على الكفر ، وأعرضوا عن النظر في آيات اللّه ، والتأمل في مشاهد الكون ، وقد علم اللّه في علمه الأزلي

بقاءهم على الكفر ، لكنه أمر نبيه بدعوتهم إلى دينه لأنهم لا يعلمون سابق علم اللّه فيهم ، ولتعليمنا المنهج في دعوة الناس قاطبة إلى الإيمان باللّه والقرآن ورسالة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والبعث والحساب والجزاء.

٥- لا أمل بعد هذا في إنذارهم ولا نفع فيه بعد أن سدوا على أنفسهم منافذ الهداية ومدارك المعرفة ، ولم تتفتح بصائرهم لرؤية الحق والنور الإلهي.

٦- إنما نفع الإنذار لمن استعد للنظر في منهج الحق ، ثم آمن بالقرآن كتابا من عند اللّه ، وخشي عذاب اللّه وناره قبل المعاينة والحدوث ، فهذا وأمثاله يغفر اللّه له ذنبه ، ويدخله الجنة.

٧- البعث حق والإيمان به واجب ، واللّه قادر عليه ، وسيكون مستند الجزاء ما كتب من أعمال العباد ، وما تركوه من آثار صالحة أو سيئة ، كما أن اللّه أحصى كل شيء وضبطه من أمور الكائنات ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وقد دلّ سبب نزول الآية على أن حسنات البعيدين عن المسجد مثل حسنات القريبين منه ، وأنه إن تعذر عليهم الاقتراب من المسجد أو شقّ عليهم ، فلا يلزم القرب منه.

قصة أصحاب القرية- أنطاكية [سورة يس (٣٦) : الآيات ١٣ الى ٢٧]

(٣١٢/٢٢)

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١(٣) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١(٤) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧)
قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢(١) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)
أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (٢(٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢(٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)

ج ٢٢ ، ص : ٢٩٩

الإعراب :

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ أَصْحابَ : منصوب إما على البدل من قوله : مَثَلًا أي واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية ، فالمثل الثاني بدل من الأول ، وحذف المضاف ، وإما لأنه مفعول ثان ل اضْرِبْ. وإِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ : بدل اشتمال من أصحاب القرية.

(٣١٣/٢٢)

و إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ بدل من إذ الأولى. وإِذْ جاءَهَا : ظرف لقوله جاءَهَا.

أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ جواب الشرط محذوف ، تقديره : أئن ذكرتم ، تلقيتم التذكير والإنذار بالكفر والإنكار. وأَ إِنْ : همزة استفهام دخلت على إن الشرطية.

وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي : أكثر القراء فتحوا الياء من لِيَ إشعارا بفتح الابتداء ب لا أَعْبُدُ ليبتعدوا عن صورة الوقف على الياء لأنهم لو سكنوا لكانت صورة السكون مثل صورة الوقف. أما في قوله : ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ [النمل ٢٧/ ٢٠] فالياء ساكنة.

بِما غَفَرَ لِي رَبِّي ما : إما بمعنى الذي ، وغَفَرَ لِي : صلته ، والعائد محذوف

ج ٢٢ ، ص : ٣٠٠

تقديره : الذي غفره لي ربي ، وحذف تخفيفا ، وإما مصدرية ، أي بغفران ربي لي ، وإما استفهامية ، وفيه معنى التعجب من مغفرة اللّه ، تحقيرا لعمله وتعظيما لمغفرة ربه ، لكن في هذا الوجه ضعف لأنه لو كانت استفهامية لزم حذف الألف منها ، فتصير (بم).

البلاغة :

اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً إطناب بتكرار الفعل.

أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً استفهام للتوبيخ.

قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ مجاز بالحذف ، أي لما أعلن إيمانه قتلوه ، فقيل له : ادخل الجنة.

أَرْسَلْنا الْمُرْسَلُونَ تَطَيَّرْنا طائِرُكُمْ فيهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أي : ومثّل لهم مثلا ، والمعنى : واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية ، أي اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ، والمثل الثاني بيان للأول. والمثل : الصفة والحال الغريبة التي تشبه المثل في الغرابة. أَصْحابَ الْقَرْيَةِ قال القرطبي : هذه القرية : هي أنطاكية في قول جميع المفسرين. إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ هم أصحاب عيسى ، بعثهم إلى أهل أنطاكية للدعوة إلى اللّه.

فَكَذَّبُوهُما في الرسالة. فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ قوّينا وأيدنا بثالث ، وقرئ : فعززنا بالتخفيف : أي غلبنا وقهرنا.

إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا أي مشاركون لنا في البشرية ، فليس لكم مزية علينا تختصون بها.

وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ مما تدّعونه أنتم ، ويدّعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم. إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ أي ما أنتم إلا كاذبون في ادعاء ما تدّعون من ذلك. رَبُّنا يَعْلَمُ جار مجرى القسم ، وقد أكدوا الجواب بالقسم وباللام ، ردا على زيادة إنكارهم.

الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي التبليغ الواضح للرسالة بالأدلة الواضحة وهي معجزات عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص والمريض وإحياء الميت ، وليس علينا غير ذلك. تَطَيَّرْنا تشاءمنا بكم ، وذلك لاستغرابهم ما ادّعوه ، واستقباحهم له ونفورهم عنه. لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا تتركوا هذه الدعوة ، وتعرضوا عن هذه المقالة ، واللام لام القسم. لَنَرْجُمَنَّكُمْ بالحجارة. عَذابٌ أَلِيمٌ مؤلم ، شديد.

طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أي سبب شؤمكم معكم ، وهو الكفر والتكذيب ، فهو سبب الشؤم لا نحن.

أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ أي : أإن وعظناكم وخوفناكم وذكرناكم باللّه ، ادعيتم أن فينا الشؤم عليكم ، والمراد

بالاستفهام : التوبيخ. مُسْرِفُونَ متجاوزون الحد في الشرك ومخالفة الحق.
ج ٢٢ ، ص : ٣٠١

(٣١٥/٢٢)

وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى هو حبيب بن موسى النجار ، كان قد آمن بالرسل أصحاب عيسى ، ومنزله بأقصى البلد أي أبعد مواضعها ، قال قتادة : « كان يعبد اللّه في غار ، فلما سمع بخبر الرسل جاء يسعى » أي يشتد عدوا لما سمع بتكذيب القوم للرسل. وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي المعنى : أيّ مانع يمنعني من عبادة الذي خلقني ، وكذلك أنتم ، ما لكم لا تعبدون اللّه الذي خلقكم ؟ ! وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بعد الموت ، فيجازيكم بكفركم.
أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً استفهام بمعنى النفي ، أي لن أتخذ من غير اللّه الهة هي الأصنام ، فأعبدها وأترك عبادة من يستحق العبادة ، وهو الذي فطرني. لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً أي لا تفيدني شيئا من النفع ، كائنا ما كان. وَلا يُنْقِذُونِ لا يخلصوني من الضر الذي أرادني الرحمن به. إِنِّي إِذاً أي : إذا اتخذت من دونه آلهة. لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ واضح ، وهذا تعريض بهم. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ آمنت بالذي خلقكم ، فاسمعوا إيماني ، فرجموه فمات. وهذا تصريح بعد التعريض تشددا في الحق.
قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ قيل له عند موته : ادخل الجنة ، تكريما له بدخولها بعد قتله ، كما هي سنة اللّه في الشهداء. قالَ : يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ تمنى أن يعلموا بحاله ، ليعلموا حسن مآله ، وحميد عاقبته ، فيؤمنوا مثل إيمانه.
المناسبة :

(٣١٦/٢٢)

بعد بيان حال مشركي العرب الذين أصروا على الكفر ، ضرب الحق تعالى لهم مثلا يشبه حالهم في الإفراط والغلو في الكفر وتكذيب الدعاة إلى اللّه ، وهو حال أهل قرية أنطاكية شمال سورية على ساحل البحر المتوسط الذين كذبوا الرسل فدمرهم اللّه بصيحة واحدة ، فإذا استمر المشركون على عنادهم واستكبارهم ، كان إهلاكهم يسيرا كأهل هذه القرية ، وتكون قصتهم مع رسل اللّه ، كقصة قوم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم معه.
التفسير والبيان :
وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ أي واضرب مثلا في الغلو والعناد والكفر يا محمد

لقومك الذين كذبوك بأهل قرية أنطاكية ، حين

ج ٢٢ ، ص : ٣٠٢

أرسل اللّه إليهم ثلاثة رسل من أصحاب عيسى عليه السلام الحواريين فكذبوهم ، كما كذبك قومك عنادا ، وأصر الفريقان على التكذيب.

والقرية : أنطاكية في رأي جميع المفسرين ، والمرسلون : أصحاب عيسى أرسلهم مقررين لشريعته ، في رأي ابن عباس وكثير من المفسرين.

ثم بيّن عدد الرسل فقال :

إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما ، فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ ، فَقالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ أي حين أرسلنا إليهم رسولين ، أرسلهما عيسى عليه السلام بأمر اللّه تعالى ، فبادروا إلى تكذيبهما في الرسالة ، فأيدناهما وقويناهما برسول ثالث ، فقالوا لأهل تلك القرية : إنا مرسلون إليكم من ربكم الذي خلقكم بأن تعبدوه وحده لا شريك له ، وتتركوا عبادة الأصنام.

وكان الرسولان الأولان يوحنا وبولص ، والرسول الثالث شمعون وقيل : إنه بولص.

فتمسكوا كغيرهم من الأمم بشبهة البشرية ، كما حكى تعالى :

قالُوا : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ أي قال أصحاب القرية للرسل الثلاثة : أنتم مثلنا بشر تأكلون الطعام وتمشون في الأسواق ، فمن أين لكم وجود مزية تختصون بها علينا ، وتدّعون الرسالة ؟ واللّه الرحمن لم ينزل إليكم رسالة ولا كتابا مما تدّعون ، ويدّعيه غيركم من الرسل وأتباعهم ، وما أنتم فيما تدّعون الرسالة إلا كاذبون.

وقولهم : ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ دليل على اعترافهم بوجود اللّه ، لكنهم ينكرون الرسالة ، ويعبدون الأصنام وسائل إلى اللّه تعالى.

وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر اللّه تعالى عنهم في قوله :

ج ٢٢ ، ص : ٣٠٣

ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَقالُوا : أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا ؟ [التغابن ٦٤/ ٦] أي تعجبوا من ذلك وأنكروه. وقوله تعالى : قالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا ، فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ [إبراهيم ١٤/ ١٠].

فأجابهم الرسل :

قالُوا : رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين :

اللّه يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه ، لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزّنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ؟ كقوله تعالى :

قُلْ : كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ ، وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ [العنكبوت ٢٩/ ٥٢].

ثم ذكر الرسل مهمتهم :

وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، ولا يجب علينا إلا تبليغ الرسالة بنحو واضح ، فإذا استجبتم كانت لكم سعادة الدارين ، وإن لم تجيبوا فستعلمون عاقبة تكذيبكم.

فعند ذلك هددهم أهل القرية :

قالُوا : إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ أي قال لهم أهل القرية : إنا تشاءمنا بكم ، ولم نر خيرا في عيشنا على وجوهكم ، فقد فرقتمونا وأوقعتم الخلاف فيما بيننا ، ولئن لم تتركوا هذه الدعوة ، وتعرضوا عن هذه المقالة ، لنرجمنكم بالحجارة ، وليصيبنكم منا عذاب مؤلم أو عقوبة شديدة. وقوله : وَلَيَمَسَّنَّكُمْ بيان للرجم ، يعني : ولا يكون الرجم رجما قليلا بحجر أو حجرين ، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت ، وهو عذاب أليم. ويرى

ج ٢٢ ، ص : ٣٠٤

بعضهم أن الواو بمعنى (أو) والمراد : إما أن نقتلكم أو نسجنكم ونعذبكم في السجون.

فأجابهم الرسل :

قالُوا : طائِرُكُمْ مَعَكُمْ ،

و هذا ا

يُنْقِذُونِ

؟ هذا استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، يراد به : لن أتخذ من دون اللّه آلهة ، فأعبدها وأترك عبادة من يستحق العبادة ، وهو الذي فطرني وخلقني ، فإنه إن أرادني الرحمن بسوء لم تنفعني شفاعة هذه الأصنام التي تعبدونها ، ولا تخلصني من ورطة السوء ، فإنها لا تملك من الأمر شيئا إذ إنها لا تملك دفع الضرر ولا منعه ، ولا جلب النفع ، ولا تنقذ أحدا مما هو فيه.

إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي إن اتخذت هذه الأصنام آلهة من دون اللّه ، فإني في الحقيقة والواقع في خطأ واضح ، وجهل فاضح ، وانحراف عن الحق.

وهذا تعريض بهم ، ثم صرح بإيمانه تصريحا لا شك فيه مخاطبا الرسل :
إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ أي إني صدقت بربكم الذي أرسلكم ، فاشهدوا لي بذلك عنده.

(٣١٩/٢٢)

روي عن ابن عباس وكعب ووهب رضي اللّه عنهم : أنه لما قال ذلك ، وثبوا عليه وثبة رجل واحد ، فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه. وقال قتادة :
جعلوا يرجمونه بالحجارة ، وهو يقول : اللهم اهد قومي ، فإنهم لا يعلمون ، فلم يزالوا به حتى مات رحمه اللّه.
وكان من حبّه لهدايتهم :
قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، قالَ : يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، بِما غَفَرَ لِي رَبِّي ،
ج ٢٢ ، ص : ٣٠٦
وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ
أي قال اللّه تكريما له بعد قتله : ادخل الجنة ، لاستشهادك في سبيل إعلان الحق ، فدخلها وهو يرزق فيها ، فلما عاين نعيمها قال : يا ليت قومي يعلمون بمآلي وحسن حالي وحميد عاقبتي ، فيؤمنوا مثل إيماني ، فيصيروا إلى مثل ما أنا فيه من نعيم ، وليتهم يعلمون بما أنعم اللّه عليّ من مغفرة لذنوبي ، وبما جعلني في زمرة المكرمين المقربين الشهداء الذين منحهم ربهم الثواب الجزيل والفضل العميم. وهذا شأن المؤمن المخلص يحب الخير للناس جميعا ، قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشّا.
فقه الحياة أو الأحكام :
أرشدت الآيات إلى ما يأتي :
١- لم يترك اللّه سبحانه في قرآنه سبيلا لدعوة الناس إلى الإيمان الصحيح ، سواء بالأدلة والبراهين ، أو بإعمال الفكر والعقل ، أو بالتأمل والمشاهدة ، أو بضرب الأمثال ، أو بذكر القصص للعظة والعبرة.
والمراد من بيان قصة أصحاب القرية : توضيح أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أمر بإنذار المشركين من قومه ، حتى لا يحل بهم ما حلّ بكفار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل.
٢- يكون الرسول عادة من جنس المرسل إليهم ، حتى لا يبادروا إلى الإعراض بحجة المغايرة والمخالفة ، فتكون شبهة الكافرين ببشرية الرسل في غير محلها ، وإنما الباعث عليها الاعتزاز بالنفس والاستعلاء والاستكبار فيما يبدو.

(٣٢٠/٢٢)

٣- يؤكد الرسل عادة صدقهم بالمعجزات ، وأما رسل عيسى فقد ذكروا للقوم معجزاته ، وأقسموا باللّه أنهم رسل اللّه الذين بعثهم عيسى بأمر ربه ، وإن كذبوهم ، لم يجدوا سبيلا إلا التصريح بمهمتهم بالتحديد ، وهي إبلاغ الرسالة ، والاعلام الواضح في أن اللّه واحد لا شريك له.

ج ٢٢ ، ص : ٣٠٧

٤- لا يجد المرسل إليهم في العادة ذريعة بعد دحض حجتهم إلا ادّعاء التشاؤم بالرسل. قال مقاتل في أصحاب القرية : حبس عنهم المطر ثلاث سنين ، فقالوا : هذا بشؤمكم. ويقال : إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين.

٥- ثم إذا ضاق الأمر بهم يلجأون عادة إلى التهديد والوعيد إما بالطرد والإبعاد من البلد ، وإما بالقتل أو الرجم بالحجارة. قال الفراء في قوله :

لَنَرْجُمَنَّكُمْ : وعامة ما في القرآن من الرجم معناه القتل. وقال قتادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة. وقيل : لنشتمنكم.

وأما قوله تعالى : وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ فهو إما القتل أي الرجم بالحجارة المتقدم ، وإما التعذيب المؤلم قبل القتل كالسلخ والقطع والصلب.

٦- إن الشؤم الحقيقي من أهل القرية وهو الشرك والكفر وتكذيب الرسل ، وليس هو من شؤم المرسلين ، ولا بسبب تذكيرهم ووعظهم ، وإنما بسبب إسرافهم في الكفر ، وتجاوزهم الحدّ ، والمشرك يجاوز الحدّ.

٧- لا يعدم الحق في كل زمان أنصارا له ، وإن كانوا قلة ، وكان أهل الباطل كثرة ، فقد قيض اللّه مؤمنا من أهل القرية جاء يعدو مسرعا لما سمع بخبر الرسل ، وناقش قومه ، ورغبهم وأرهبهم ، ودعاهم إلى توحيد اللّه واتباع الرسل ، وترك عبادة الأصنام ، فإن الرسل على حق وهدى ، لا يطلبون مالا على تبليغ الرسالة ، وهذا دليل إخلاصهم وعدم اتهامهم بمأرب دنيوي ، والخالق هو الأحق بالعبادة ، وهو الذي إليه المرجع والمآب ، فيحاسب الخلائق على ما قدموا من خير أو شر.

أما الأصنام فلا تجلب نفعا ولا تدفع ضررا ، ولا تنقذ أحدا مما ألمّ به من البلاء ، فمن عبدها بعدئذ فهو في خسران ظاهر.

ج ٢٢ ، ص : ٣٠٨

٨- ثم صرح مؤمن القرية مخاطبا الرسل بأنه مؤمن باللّه ربهم ، فليشهدوا له بالإيمان.

٩- لقد كان جزاؤه المرتقب من القوم بسبب تصلبه في الدين ، وتشدده في إظهار الحق : القتل أو الموت الزؤام. وأما جزاؤه من اللّه فهو التكريم في جنان الخلد.

١٠- بالرغم من هذا الإيذاء والتعذيب أحبّ هذا المؤمن ، كشأن كل مؤمن ، أن يبادر قومه إلى الإيمان بمثل ما آمن به ، ليحظوا بما حظي به من النعيم والنجاة. قال ابن عباس : نصح قومه حيّا وميتا. و

قال ابن أبي ليلى : سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا باللّه طرفة عين : علي بن أبي طالب وهو أفضلهم ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب يس ، فهم الصدّيقون. وقد ذكره الزمخشري مرفوعا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم.

١١- قال القرطبي : وفي هذه الآية تنبيه عظيم ، ودلالة على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي ، والتشمر في تخليصه ، والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، والباغين له الغوائل ، وهم كفرة عبدة أصنام « ١ » .

---

(١) تفسير القرطبي : ١٥/ ٢٠

ج ٢٣ ، ص : ٥

[الجزء الثالث والعشرون]

[تتمة سورة يس]

تتمة قصة أصحاب القرية- تعذيب مكذبي الرسل- [سورة يس (٣٦) : الآيات ٢٨ الى ٣٢]

وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (٢٩) يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣(١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٣٢)

الإعراب :

وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ ما : إما زائدة وإما اسم معطوف على جُنْدٍ.

يا حَسْرَةً نداء مشابه للمضاف ، مثل : يا خيرا من زيد ، ويا سائرا إلى الشام ، ونداء مثل هذه الأشياء التي لا تعقل : تنبيه للمخاطبين ، كأنه يقول لهم : تحسّروا على هذا ، وادعوا الحسرة ، وقولوا لها : احضري فهذا وقتك.

كَمْ أَهْلَكْنا .. كَمْ : اسم للعدد في موضع نصب ب أَهْلَكْنا وأَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ في موضع نصب على البدل من كَمْ. وكَمْ وما بعدها من الجملة في موضع نصب ب يَرَوْا. وأَنَّهُمْ مفعول مقدر ، أي حكمنا أو قضينا أنهم لا يرجعون.

وَإِنْ كُلٌّ .. لَمَّا إِنْ مخففة من الثقيلة ، ولما خففت بطل عملها لنقصها عن مشابهة الفعل ، فارتفع ما بعدها بالابتداء. ولَمَّا جَمِيعٌ : خبره ، وما : زائدة ، وتقديره : لجميع ، وأدخلت اللام في خبرها ، لتفرق بينها وبين « إن » التي بمعنى « ما » . ومن قرأ لَمَّا جَمِيعٌ بالتشديد ، فمعناه « إلا » و « إن » بمعنى « ما » وتقديره : وما كل إلا جميع ، فيكون كُلٌّ مرفوعا بالابتداء ، وجَمِيعٌ خبره. ومُحْضَرُونَ خبر ثان.

ج ٢٣ ، ص : ٦

البلاغة :

في الآيات المتقدمة من مطلع السورة إلى هنا يوجد فيها ما يسمى بمراعاة الفواصل ، الذي يزيد في روعة البيان القرآني ، ويؤثر في سمع التالي والمستمع.

المفردات اللغوية :

وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ أي لم ننزل على قوم حبيب النجار من بعد قتلهم له.

مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ الجند : العسكر ، والمراد هنا الملائكة لإهلاكهم وللانتقام منهم. وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ ملائكة لإهلاك أحد ، لسبق قضائنا وقدرنا بأن إهلاكهم بالصيحة ، لا بإنزال الجند ، وهذا للدلالة على أن إنزال الجنود من عظائم الأمور ، وهو تحقير لشأنهم ، وتصغير لأمرهم ، فهم ليسوا أهلا لأن ننزل لإهلاكهم جندا من السماء ، بل أهلكناهم بصيحة واحدة. إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً أي ما كانت عقوبتهم إلا أن صاح بهم جبريل ، فأهلكهم. فَإِذا هُمْ خامِدُونَ ساكتون هامدون ميتون لا يسمع لهم حسّ ، كالرماد الخامد ، فالخمود : انطفاء النار ، والمقصود به هنا الموت.

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ الحسرة : الغم على ما فات ، والندم عليه ، والعباد : هؤلاء ونحوهم ممن كذب الرسل ، فأهلكوا ، ونداء الحسرة مجاز ، أي هذا أوانك فاحضري. ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ هذا سبب الحسرة وهو الاستهزاء المؤدي إلى إهلاكهم.

أَ لَمْ يَرَوْا ألم يعلموا أي أهل مكة القائلون للنبي : لست مرسلا ، والاستفهام للتقرير ، أي اعلموا. كَمْ خبرية بمعنى كثيرا ، والمعنى : إنا أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ كثيرا. مِنَ الْقُرُونِ الأمم : أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ أي ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم بعد هلاكهم ، وضمير أَنَّهُمْ عائد للمهلكين ، وضمير إِلَيْهِمْ عائد للمكذبين ، أفلا يعتبرون بذلك ؟ ! وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ إِنْ : نافية بمعنى ما ، ولَمَّا

بمعنى إلّا ، ويصح جعل « إن » مخففة من الثقيلة ، ولما : بالتخفيف ، واللام فارقة ، وما : مزيدة.
جَمِيعٌ مجموعون في الموقف بعد بعثهم. لَدَيْنا عندنا مُحْضَرُونَ للحساب.
المناسبة :

(٢/٢٣)

هذه الآيات تتمة قصة أصحاب القرية ، أبان اللّه تعالى فيها حال المكذبين رسلهم ، وأوضح سنة اللّه في أمثالهم في العذاب الدنيوي ، ثم ما يتعرضون له من
ج ٢٣ ، ص : ٧
العذاب الأخروي. وذكرت هنا في بدء الجزء ، لأن عد الأجزاء مراعى فيه العدّ اللفظي لا الاتصال المعنوي.
التفسير والبيان :
وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ أي لم ننزل على قوم المؤمن حبيب النجار من بعد قتلهم له ، لدعوتهم إلى الإيمان باللّه ، جندا من الملائكة ، وما كنا بحاجة إلى هذا الإنزال ، بل كان الأمر أيسر علينا من ذلك ، وقد سبق قضاؤنا بأن إهلاكهم بالصيحة ، لا بإنزال الجند.
وهذا لتحقير شأنهم ، فإن إنزال الملائكة لعظائم الأمور ، وهؤلاء لا يحتاجون لإهلاكهم جندا من السماء ، بل أهلكناهم بصيحة واحده ، كما قال تعالى :
إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، فَإِذا هُمْ خامِدُونَ أي ما كان إهلاكهم إلا بصيحة واحدة صاح بهم جبريل ، فأهلكهم ، فإذا هم أموات لا حراك بهم.
وقوله : إِنْ كانَتْ أي الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة ، وقوله :
واحِدَةً تأكيد لكون الأمر هينا عند اللّه ، وقوله : فَإِذا هُمْ خامِدُونَ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك.

(٣/٢٣)

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ، ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي يا هؤلاء الذين كذبتم الرسل تحسروا حسرة أليمة ، واندموا على ما فعلتم ، بسبب أنه ما جاء رسول يدعو إلى التوحيد والحق والخير إلا استهزئ به وكذّب وجحد ما أرسل به من الحق. فقوله يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ أي هذا وقت الحسرة على مكذبي الرسل ، وتنكير حَسْرَةً للتكثير. وسبب التحسر عليهم : أنهم لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم

الخالية. ولا متحسر أصلا في الحقيقة ، إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة ، حيث ظهرت الندامة عند مواجهة العذاب ومعاينته. وقيل : إنها حسرة الملائكة على الكفار حين كذبوا الرسل.

ج ٢٣ ، ص : ٨

ثم أنذر اللّه تعالى الأجيال الحاضرة والمستقبلة فقال :

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ أي ألم يتعظوا بمن أهلك اللّه قبلهم من المكذبين للرسل كعاد وثمود ، وأنهم لا رجعة لهم إلى الدنيا ، خلافا لما يزعم الدّهرية الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، كما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله : وَقالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا ، وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ .. [الجاثية ٤٥/ ٢٤].

ثم أعلمهم أيضا بوجود الحساب والعقاب في الآخرة بعد عذاب الدنيا ، فقال تعالى :

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي اللّه عز وجل ، فيجازيهم بأعمالهم كلّها خيرها وشرها ، وهذا كقوله عز وجل : وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ [هود ١١/ ١١١].

و هذا دليل على أنه ليس من أهلكه اللّه تركه ، بل بعده جمع وحساب ، وحبس وعقاب ، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ، كما قال القائل :

ولو أنّا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حيّ

و لكنا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شيّ

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- إن تكذيب الرسل ما جاؤوا به من الحق يستدعي مزيد الألم والندامة والحسرة.

٢- لا رجعة لأحد إلى الدنيا بعد الموت أو الإهلاك.

٣- إن يوم القيامة يوم الجزاء والحساب والثواب والعقاب الدائم.

ج ٢٣ ، ص : ٩

أدلة القدرة الإلهية على البعث وغيره [سورة يس (٣٦) : الآيات ٣٣ الى ٤٤]

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ

النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)
وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤(١) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (٤٢)

وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤(٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (٤٤)

الإعراب :

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها أَحْيَيْناها خبر للأرض ، والجملة خبر لآية أو صفة لها.

ج ٢٣ ، ص : ١٠

وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ما : إما اسم موصول في موضع جر بالعطف على ثَمَرِهِ.

وعَمِلَتْهُ : الصلة ، والهاء : العائد ، وإما أنها نافية في قراءة « عملت » بغير هاء ، والوجه الأول أوجه ، لاحتياج « عملت » لتقدير مفعول إذا كانت « ما » نافية. وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ الْقَمَرَ إما مرفوع بالابتداء ، وقَدَّرْناهُ الخبر ، وإما منصوب بتقدير فعل دل عليه.

قَدَّرْناهُ أي قدرنا القمر قدرناه. ومَنازِلَ أي قدرناه ذا منازل ، فحذف المضاف ، أو قدرنا له منازل ، فحذف حرف الجر من المفعول الأول.

حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ .. الكاف في موضع نصب على الحال من ضمير عادَ وهو العامل فيه وكَالْعُرْجُونِ : وزنه فعلول نحو زنبور وقرقور ، وليس على وزن فعلون لأنه ليس في كلام العرب.

أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ أن وصلتها في تأويل المصدر في موضع رفع فاعل : يَنْبَغِي.

وقرئ سابِقُ النَّهارِ بالجر بالإضافة ، وسابق النهار ، لأن التقدير : سابق النهار ، فحذف التنوين لالتقاء الساكنين.

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ آيَةٌ مبتدأ ، وخبره إما لَهُمْ وإما أَنَّا حَمَلْنا.

فَلا صَرِيخَ لَهُمْ صَرِيخَ : مبني مع لا على الفتح ، ويجوز فيه الرفع مع التنوين ، لتكرار « لا » مرة ثانية.

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا رَحْمَةً : منصوب بتقدير حذف حرف الجر ، أي إلا برحمة ، أو مفعول لأجله.

البلاغة :

وَآيَةٌ لَهُمُ التنكير للتعظيم ، أي آية عظيمة دالة على قدرة اللّه على البعث وغيره.

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها بين الموت والإحياء طباق.

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ بين الليل والنهار طباق أيضا ، وفي قوله نَسْلَخُ استعارة تصريحية ، صرح فيها بلفظ المشبه به ، حيث شبه إظهار ضوء النهار من ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة ، واستعار كلمة « السلخ » للإزالة والإخراج.

حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ تشبيه مرسل مجمل لأنه لم يذكر فيه وجه الشبه ، وهو مشتمل على ثلاثة أوضاع : الدقة ، والانحناء ، والصفرة.

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها .. قدم الفاعل على الفعل لتقوية النفي ، وللدلالة على أن الشمس مسخرة بأمر اللّه ، لا تسير في مدارها إلا بإرادة اللّه.

ج ٢٣ ، ص : ١١

وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ فيه تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ، حيث عبر عن الشمس والقمر والنجوم بضمير جمع المذكر في قوله يَسْبَحُونَ بدل : يسبح ، لأن السباحة من صفات العقلاء.

يَأْكُلُونَ والْعُيُونِ ويَعْلَمُونَ ومُظْلِمُونَ ويَسْبَحُونَ والْمَشْحُونِ ويَرْكَبُونَ سجع لطيف غير متكلف ، وكذا في قوله الْعَلِيمِ والْقَدِيمِ.

المفردات اللغوية :

وَآيَةٌ لَهُمُ علامة دالة على البعث. الْمَيْتَةُ التي لا نبات فيها ، وتقرأ بتخفيف الياء أو بالتشديد ، والأول أشيع لسلسها على اللسان. أَحْيَيْناها بالماء فصارت حية بالنبات.

وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا المراد جنس الحب كالحنطة. فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ قدم الصلة (الجار والمجرور) على الفعل للدلالة على أن معظم ما يؤكل ويعاش به هو الحب. جَنَّاتٍ بساتين ذات أشجار مثمرة كالنخيل والأعناب. وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ فتّحنا وشققنا فيها شيئا من العيون.

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ثَمَرِهِ يقرأ بفتحتين وضمتين ، أي ثمر المذكور من النخيل وغيره.

وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ قيل : ما : نافية أي لم تعمل الأيدي الثمر بل العامل له هو اللّه ، والأصح : أنها اسم موصول عطف على الثمر ، والمراد : ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما. أَفَلا يَشْكُرُونَ أنعم اللّه تعالى عليهم وهو أمر بالشكر ، من طريق إنكار تركه. سُبْحانَ تنزيها للّه عما لا يليق به.

الْأَزْواجَ كُلَّها الأنواع والأصناف المختلفة. مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ من النبات والشجر. وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ أي وخلق الأزواج من أنفسهم ، وهم الذكور والإناث من بني آدم.

وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ من أصناف المخلوقات العجيبة في البرّ والبحر ، والسماء والأرض ، مما لم يطلعهم

اللّه عليه ، ولم يجعل لهم طريقا إلى معرفته.
وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ أي وعلامة دالة لهم على القدرة العظيمة وتوحيد اللّه ووجوب ألوهيته.
نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ نفصل منه النهار ونزيله عنه ، والسلخ : إذهاب الضوء ، ومجيء الظلمة.
فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ داخلون في الظلام مفاجأة وبغتة. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها آية مستقلة أخرى ، تطلع وتسير لحد معين ينتهي إليه جريانها ودورها. ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أي ذلك الجري تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، الْعَلِيمِ المحيط علمه بكل معلوم.
قَدَّرْناهُ مَنازِلَ أي جعلنا له منازل ، والمنازل : جمع منزل ، والمراد به المسافات التي يقطعها القمر في يوم وليلة ، وهي ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر في كل ليلة في واحد منها ، فإذا صار في آخرها وهو حينئذ دقيق قوس ، عاد إلى أولها. ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما ،
ج ٢٣ ، ص : ١٢

(٨/٢٣)

و ليلة واحدة إن كان تسعة وعشرين يوما. والمنازل معروفة : وهي الشّرطان ، البطين ، الثّريّا ، الدّبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذّراع المبسوطة ، النّثرة ، الطّرف ، الجبهة ، الزّبرة ، الصّرفة ، العوّاء ، السّماك الأعزل ، الغفر ، الزّبانى ، الإكليل ، القلب ، الشّولة ، النّعائم ، البلدّة ، سعد الذّابح ، سعد بلع ، سعد السّعود ، سعد الأخبية ، الفرغ المقدم ، الفرغ المؤخّر ، الرّشاء وهو بطن الحوت.
حَتَّى عادَ في آخر منازله في رأي العين. كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ كالشمراخ المعوج ، لأنه إذا عتق يرق ويتقوس ويصفر. والْقَدِيمِ العتيق.
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها لا يصح لها ويسهل. أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ في سرعة سيره ، فتجتمع معه في الليل ، لأن لكل واحد منهما مدارا منفردا ، فلا يتمكن أحدهما من الدخول على الآخر ، وإن كانت في نظر العين تسبق الشمس القمر في كل شهر مرة.
والخلاصة : أن حرف النفي لَا للدلالة على أنها مسخرة ، لا يتيسر لها إلا ما أريد بها.
وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ أي لا يأتي قبل انقضائه ، ولا يسبقه ، ولكن يأتي عقبه ، ويجيء كل واحد منهما في وقته ، ولا يسبق صاحبه. وَكُلٌّ التنوين عوض عن المضاف إليه ، أي وكل من الشمس والقمر وبقية الكواكب والنجوم. فِي فَلَكٍ هو المدار الذي يدور فيه الكوكب ، سمي به لاستدارته كفلكة المغزل.
يَسْبَحُونَ يسيرون فيه بسهولة ، وقد نزّلوا منزلة العقلاء.

(٩/٢٣)

وَ آيَةٌ لَهُمُ علامة دالة على قدرتنا. أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ وقرئ : ذرياتهم أي أولادهم ومن يهمهم حمله الذين يبعثونهم للتجارة ، وأصل الذرية : صغار الأولاد ، ثم استعملت في الصغار والكبار ، وتطلق على الواحد والجمع ، وقيل : المراد آباؤهم الأقدمون الذين في أصلابهم هم وذرياتهم ، وإنما امتن اللّه عليهم بذكر الذرية دونهم ، لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ، وأدخل في التعجيب من قدرته ، في حمل أصولهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح. فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ السفينة المملوءة ، قيل : إنها سفينة نوح عليه السلام.

وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ أي أوجدنا بتعليمهم صناعة السفن الصغار والكبار والزوارق ، مثل سفينة نوح عليه السلام ، وقيل : المراد الإبل ، فإنها سفائن البر. ما يَرْكَبُونَ فيه ، ولعل ذلك إشارة إلى المركبات والقطارات والطائرات المستحدثة. وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ إن نرد أغرقناهم مع إيجاد السفن. فَلا صَرِيخَ لَهُمْ لا مغيث. وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ ينجون. إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ أي لا أحد ينقذهم وينجيهم إلا بإنقاذنا لرحمة وتمتيع إياهم بلذاتهم إلى انقضاء آجالهم.

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى ما يدل على الحشر بإحضار جميع الأمم إليه يوم القيامة

ج ٢٣ ، ص : ١٣

للحساب والجزاء ، ذكر ما يدل على إمكان البعث بإنبات النبات من الأرض الجدباء بالمطر ، وإيجاد البساتين وتفجير الأنهار ، لتوفير سبل المعاش بها ، مما يستدعي شكرهم على تلك النعم.

وبعد بيان أحوال الأرض التي هي المكان الكلي ، ذكر أربع آيات دالة على قدرته العظيمة من أحوال الأزمنة ، وهي تعاقب الليل والنهار ، ودوران الشمس ، ومسير القمر في منازله ، وتخصيص مدار مستقل لكل من الشمس والقمر.

ثم أردف ذلك بدليل آخر دال على القدرة المقترنة بالرحمة وهو تنقل الأولاد والأجيال في السفن العابرة مياه البحار.

التفسير والبيان :

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا ، فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ان والأشكال ، وإخراج الحب الذي هو رزق للعباد ولأنعامهم ، وهو معظم ما يؤكل ، وأكثر ما تقوم به الحياة والمعاش. وكما نحيي الأرض الميتة نحيي الموتى.

وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ أي وأوجدنا في الأرض التي أحييناها

بساتين مشجرة من نخيل وأعناب وغيرها ، وجعلنا فيها أنهارا موزعة في أماكن مختلفة ، يحتاجون إليها. وخصص النخيل والأعناب بالذكر من بين سائر الفواكه ، لأن ألذ المطعوم الحلاوة ، وهي فيها أتم ، ولأن التمر والعنب قوت وفاكهة خلافا لغيرهما ، ولأنهما أعم نفعا.

ج ٢٣ ، ص : ١٤

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلا يَشْكُرُونَ أي إن القصد من إنشاء الحب والجنات أن يأكل المخلوقون من ثمر المذكور من النخيل والأعناب ، ويأكلوا مما صنعته أيديهم من تلك الغراس والزروع أو الحبوب والثمار ، كالعصير والدبس ونحوهما ، وما ذاك كله إلا من رحمة اللّه تعالى بهم ، لا بقدرتهم وقوتهم ، فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ؟ ! وهذا أمر بالشكر من طريق إنكار تركه.

وقوله مِنْ ثَمَرِهِ عائد إلى ما ذكر قبل ذلك ، وقال الرازي : المشهور أنه عائد إلى اللّه. وقوله : وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ يشمل في رأي الرازي الزراعة والتجارة.

ولما أمرهم تعالى بالشكر ، وشكر اللّه بالعبادة ، نبّه إلى أنهم لم يقتنعوا بالترك ، بل عبدوا غيره ، وأتوا بالشرك ، فقال :

سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ أي تنزيها عن الشريك للّه الذي خلق الأنواع والأصناف كلها من مختلف الألوان والطعوم والأشكال ، من الزروع والثمار والنبات ، وخلق من النفوس الذكور والإناث ، وخلق مخلوقات شتى لا يعرفونها ، كما قال تعالى : وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ [النحل ١٦/ ٨] وقال عز وجل : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الذاريات ٥١/ ٤٩].

والخلاصة : أن خالق هذا الخلق العظيم من إنسان وحيوان ونبات وخالق أشياء لا نعلمها منزه عن الشريك والنظير ، قادر على كل شيء ، وفي الآية الأمر بالتنزيه عما لا يليق باللّه تعالى ، كالأمر بالشكر في الآية المتقدمة.

وبعد الاستدلال على إمكان البعث والحشر بأحوال الأرض المكانية ، ذكر تعالى أدلة أربعة من أحوال الأزمنة ، فقال :

ج ٢٣ ، ص : ١٥

١- وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ ، فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ أي ومن أدلة قدرته تعالى العظيمة : خلق الليل والنهار ، وتعاقب الليل والنهار دائبين ، فينزع النهار من الليل فيأتي بالضوء وتذهب الظلمة ، وينزع

الليل من النهار ، فيصبح الخلق في ظلمة ويذهب الضوء ، وهكذا يتعاقبان ، يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هذا ، كما قال تعالى : يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً [الأعراف ٧/ ٥٤] نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق ، فتشرق الشمس على نصف الكرة الأرضية ، وتغيب عن النصف الآخر ، وفي كل من الظلمة والنور نفع وخير ، ففي الظلام ترك العمل وسكون النفس والراحة من العناء ، وفي النور متعة ولذة وحركة وعمل من أجل كسب الرزق.

و قوله فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ أي داخلون في الظلام ، وإذا للمفاجاة ، أي فهم داخلون في الظلمة مفاجأة وبغتة ، لا يد لهم بعدئذ ، ولا بد من الدخول فيه.

٢- وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أي وآية مستقلة دالة على قدرته تعالى : دوران الشمس في فلكها إلى نهاية مدارها ، وذلك الدوران تقدير من اللّه القاهر الغالب كل شيء ، المحيط علمه بكل شي ء. وهناك قولان للمفسرين في تفسير المستقر : الأول- أن المراد مستقرها المكاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهي أينما كانت فهي وجميع المخلوقات تحت العرش. والثاني- أن المراد مستقرها الزماني وهو منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة « ١ » .

وقد أثبت علماء الفلك أنه زيادة على دوران الشمس الظاهري وسط النجوم بسبب دوران الأرض حول الشمس مرة في السنة ، للشمس حركتان أخريان :

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/ ٥٧١ وما بعدها.

دورة حول محورها مرة في كل ست وعشرين يوما تقريبا ، ودورة مع توابعها من الكواكب السيارة حول مركز النظام النجومي بسرعة تقدر بنحو مائتي ميل في الثانية. والمستقر في رأي العلماء في الحالة الأولى : هو المحور الثابت ، وفي الثانية : هو مركز النظام النجومي بأسره.

٣- وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ أي جعل اللّه للقمر منازل يسير فيها سيرا آخر ، وهي ثمانية وعشرون منزلا ذكرناها ، ينزل كل ليلة في واحد منها بمعدل ١٣ درجة في اليوم ، ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما ، وليلة واحدة إن كان تسعة وعشرين يوما ، فإذا صار القمر في آخرها دق وصغر واصفر وتقوس ، وعاد إلى أولها ، حتى صار كالعرجون القديم :

و هو الغصن الذي عليه طلع النخلة ، وهو أصفر عريض يعوجّ ، ويقطع منه الشماريخ ، يبقى على النخل يابسا.

ويستدل بمنازل القمر على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال عز وجل : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ : هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ [البقرة ٢/ ١٨٩] وقال تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً ، وَالْقَمَرَ نُوراً ، وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ [يونس ١٠/ ٥] وقال تبارك وتعالى : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ ، وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا [الإسراء ١٧/ ١٢].

والشمس تطلع كل يوم ، وتغرب في آخره ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفا وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ، ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار. وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور ، ثم يزداد نورا في الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء مقتبسا من الشمس ، حتى يتكامل في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم- عرجون النخل.

ج ٢٣ ، ص : ١٧

و علماء الفلك قسموا النجوم التي تقع حول مدار القمر ثمانيا وعشرين مجموعة تسمى منازل القمر. وقد كان العرب يعرفون بها الأنواء (أي الأمطار) ، ويقيسون بالنسبة إليها مواقع الكواكب السيارة ومنها الشمس.

٤- لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ أي لا يصح ولا يسهل لكل من الشمس والقمر أن يدرك أحدهما الآخر ، لأن لكل منهما مدارا مستقلا ، لا يجتمع مع الآخر فيه ، ولأن الشمس تسير مقدار درجة في اليوم ، والقمر يسير مقدار (١(٣) درجة في اليوم.

ولا تسبق آية الليل وهي القمر آية النهار وهي الشمس ، لأن لكل منهما مجالا وسلطانا ، فسلطان الشمس ومجالها بالنهار ، وسلطان القمر بالليل.

وكل من الشمس والقمر والأرض يسبح ويدور في فلكه في السماء ، كما يسبح السمك في الماء ، فالشمس تسير في مدار لها نصف قطره (٩(٣) مليون ميل ، وتتم دورتها في سنة ، والقمر يدور حول الأرض كل شهر في مدار نصف قطره (٢(٤) ألف ميل ، والأرض تدور حول الشمس في سنة ، وحول نفسها في يوم وليلة.

وهذا دليل على أن اللّه جعل لكل من الشمس والقمر والأرض مدارا مستقلا يدور فيه ، فلا يحجب

أحدهما ضوء الآخر إلا نادرا حينما يحدث كسوف الشمس أو خسوف القمر.
وبعد بيان الدليل المكاني وهو الأرض والأدلة الزمنية الأربعة المتقدمة ، أتى تعالى بدليل آخر على قدرته ، وهو تسيير الإنسان في البحر كما يسير في البر ، كما قال تعالى : وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ [الإسراء ١٧/ ٧٠] وقال هنا :
وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ أي ومن دلائل قدرته ورحمته تبارك وتعالى : تسخيره البحر ليحمل السفن ، وركوب الذرية ، أي الأولاد في السفن المملوءة بالبضائع التي ينقلونها من بلد إلى آخر ، لتوفير القوت
ج ٢٣ ، ص : ١٨
و المعاش ، كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ، لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [لقمان ٣١/ ٣١].

و قيل : الذرية : آباؤهم الذين حملوا في سفينة نوح عليه السلام ، وهي السفينة المملوءة بالأمتعة والحيوانات التي أمره اللّه تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، حفاظا على أصول المخلوقات.
والمعنى : أن اللّه حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح.
وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ أي وخلقنا للناس مثل تلك السفن سفنا برية وهي الإبل ، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبون عليها ، لكن قال الرازي : الضمير في مِثْلِهِ عائد إلى الفلك ، على قول الأكثرين ، فيكون هذا كقوله تعالى : وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ [ص ٣٨/ ٥٨] وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود في زمانهم ، وليس المراد الإبل.
ويؤيد هذا قوله تعالى هنا : وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ. ولو كان المراد الإبل ، لكان قوله : وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ فاصلا بين متصلين.
ويحتمل أن يعود الضمير إلى معلوم غير مذكور تقديره : من مثل ما ذكرنا من المخلوقات ، مثل قوله تعالى هنا : لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ « ١ » وعلى هذا ، الآية تشمل كل وسائل النقل الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات. ونظير الآية قوله تعالى : وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ [النحل ١٦/ ٨].
ودليل رحمته ولطفه تعالى حفظ الركاب في تلك الوسائط ، فقال : وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ، فَلا صَرِيخَ لَهُمْ ، وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ أي وإن نرد إغراقهم في الماء مع حمولاتهم ، فلا مغيث لهم يغيثهم مما هم فيه ، أو ينجيهم من الغرق ، ولا هم ينقذون مما أصابهم.

(١) تفسير الرازي : ٢٦/ ٨١ ، تفسير الألوسي : ٢٣/ ٢٧

ج ٢٣ ، ص : ١٩

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ إِلَّا هنا : استثناء منقطع ، تقديره : ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ، ونحفظكم من الغرق ، ونسلمكم إلى أجل مسمى ، ونمتعكم بالحياة الدنيا إلى وقت معلوم عند اللّه عز وجل ، وهو الموت.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- من الأدلة الدالة على وجود اللّه وتوحيده وكمال قدرته على البعث وإحياء الموتى وغير ذلك : إحياء الأرض الهامدة بالنبات الأخضر ، وإخراج الحب منه ، الذي هو قوام الحياة وأساس القوت والمعاش.

٢- ومن الأدلة أيضا خلق بساتين في الأرض من نخيل وأعناب ، وتفجير الينابيع في البساتين للأكل من ثمر ماء العيون ، أو من ثمر المذكور وهو ثمر الجنات والنخيل ، ومن الذي عملته أيدي الناس من الثمار ، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما اتخذوا من الحبوب كالخبز وأنواع الحلويات.

وخصص النخيل والأعناب بالذكر ، لأنهما أعلى الثمار ، كما تقدم.

٣- تستوجب هذه النعم شكر الخالق المنعم المتفضل ، وشكره بعبادته ، والإذعان لسلطانه وإرادته.

٤- يجب تنزيه الخالق عما لا يليق به ، والبعد عن صنيع الكفار الذين عبدوا غير اللّه ، مع ما رأوا من نعمه وآثار قدرته.

٥- إن آثار قدرة اللّه ومظاهرها في العالم كثيرة ، منها خلق النباتات والثمار المختلفة والألوان والطعوم والأشكال والأحجام صغرا وكبرا. ومنها خلق الأولاد

ج ٢٣ ، ص : ٢٠

و الأزواج أي ذكورا وإناثا ، ومنها خلق أصناف أخرى لا يعلمها البشر في البر والبحر والسماء والأرض.

وإذا كان اللّه قد انفرد بالخلق ، فلا ينبغي أن يشرك به.

٦- ومن العلامات الدالة أيضا على توحيد اللّه وقدرته ووجوب ألوهيته :

تعاقب الليل والنهار وما يتبعهما من ظلمة وضوء لتحقيق مصالح العباد ، وضبط السنين والحساب ، وجريان الشمس لمستقرّ لها هو محورها أو نهاية سيرها يوم القيامة ، وتقدير القمر ذا منازل هي ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة بمنزل منها ، فإذا صار في آخرها ، عاد إلى أوّلها ، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة ، ثم يستتر ، ثم يطلع هلالا ، فيعود في قطع الفلك على المنازل ، وهي منقسمة على البروج ، لكل برج منزلان وثلث.

ومنها جعل مدار مستقل وسلطان منفرد لكل من الشمس والقمر والأرض ، فلا يدخل أحدها على الآخر ، وإنما كل من الشمس والقمر والنجوم يجري في فلك خاص به.

٧- ومن دلائل قدرة اللّه ورحمته : حمل ذرية القرون الماضية والحاضرة والمقبلة في السفن المملوءة بالسلع والأمتعة ، وخلق وسائط أخرى للركوب مماثلة للسفن وهي الإبل سفائن البراري ، ووسائل النقل الحديثة في البر والجو من سيارات وقطارات وطائرات ومناطيد (أو مطاود) ونحوها.

واللّه قادر على إغراق ركاب السفن في البحار ، فيصبحون دون مغيث ولا مجير ولا منقذ مما ألم بهم ، ولكن رحمته تعالى اقتضت إبقاءهم وإنقاذهم ليتمتعوا بمتاع الحياة الدنيوية إلى آجالهم المرسومة ، وأعمارهم المحدودة ، والتمتع إلى حين هو الموت.

ج ٢٣ ، ص : ٢١

و قد عجّل اللّه عذاب الأمم السالفة ، وأخّر عذاب أمة محمد ص ، وإن كذبوه ، إلى يوم القيامة ، تكريما لهذا الرسول ص.

موقف الكفار من تقوى اللّه وآيات اللّه والشفقة على خلق اللّه [سورة يس (٣٦) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٧)

البلاغة :

قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بين الكفر والإيمان طباق.

أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ استفهام أريد به التهكم.

المفردات اللغوية :

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ للكفار اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ احذروا ما هو قدّامكم من الآفات والنوازل وعذاب الدنيا ، وما ستواجهون من عذاب الآخرة لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لتكونوا راجين لرحمة اللّه. وجواب إذا محذوف تقديره : أعرضوا ، دل عليه الآية التي بعدها.

إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ أي ما تأتيهم من آية من آيات القرآن إلا أعرضوا عنها ، ولم يلتفتوا إليها وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أي قال فقراء الصحابة أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أي تصدقوا على الفقراء من الأموال التي رزقكم اللّه قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا استهزاء بهم ، وتهكما بقولهم.

أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ في زعمكم ومعتقدكم ، وقولكم : إن الرزاق هو اللّه ، فكأنهم حاولوا إلزام المسلمين قائلين : نحن نوافق مشيئة اللّه ، فلا نطعم من لم يطعمه اللّه إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي ما أنتم في قولكم لنا ذلك مع معتقدكم هذا إلا في ضلال واضح ، حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة اللّه. ويجوز أن يكون هذا جوابا لهم ، أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

ج ٢٣ ، ص : ٢٢

(١٩/٢٣)

و هذا غلط منهم ، ومكابرة ومجادلة بالباطل ، فإن اللّه سبحانه أغنى بعض خلقه ، وأفقر بعضا لحكمة يعلمها ، وأمر الغني أن يطعم الفقير ، وابتلاه به فيما فرض عليه من الصدقة ، ليعلم الطائع من العاصي علم بيان وانكشاف ، وإقامة حجة وبرهان.

المناسبة :

بعد بيان الآيات الدالة يقينا وقطعا على وجود اللّه وتوحيده وقدرته التامة ، أخبر اللّه تعالى أن الكفار مع هذا الدليل القاطع يعرضون عن آيات ربهم ، ولا يعترفون بها ، وشأن العاقل الاقتناع بها ، ولكن هؤلاء لا يتقون اللّه ، ولا يحذرون بأن يصيبهم مثل هلاك الأمم الغابرة ، ولا يفكرون في آيات اللّه ، وليس في قلوبهم رحمة أو شفقة على عباد اللّه ، فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة ، وليسوا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ، ولا مثل العامة الذين يبنون الأمر على الأحوط.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم الماضية ، ولا بما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ، فيقول :

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أي وإذا قيل لهؤلاء المعرضين عن آيات اللّه ، المكذبين بها : احذروا أن يصيبكم مثلما أصاب من قبلكم من الأمم ، مما هو قدّامكم ، من الآفات والنوازل وعذاب الدنيا ، وخافوا ما أنتم مقدمون عليه بعد الهلاك من عذاب الآخرة ، إذا

أصررتم على الكفر حتى الموت ، لعل اللّه يرحمكم باتقائكم ذلك ، ويحميكم من عذابه ، ويغفر لكم.
وإذا قيل لهم ذلك أعرضوا عنه ، وإذا قيل لهم : اتقوا لا يتقون.
وليس إعراضهم مقتصرا على ذلك ، بل هم عن كل آية معرضون ، كما قال تعالى :
ج ٢٣ ، ص : ٢٣

(٢٠/٢٣)

وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ أي وما تجيء هؤلاء المشركين آية من آيات اللّه على التوحيد وصدق الرسل إلا شأنهم الإعراض عنها ، وعدم الالتفات إليها ، وترك التأمل بها ، وعدم الانتفاع بها ، لتعطيل طاقة الفكر والنظر المرشد إلى الإيمان وتصديق الرسول ص.
وفضلا عن سوء الاعتقاد باللّه ورسوله ص ، تركوا الشفقة على خلق اللّه ، كما قال تعالى :
وَإِذا قِيلَ لَهُمْ : أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟ أي وإذا طلب منهم الصدقة ، وأمروا بالإنفاق مما رزقهم اللّه على الفقراء والمحاويج ، أجابوا المؤمنين استهزاء بهم ، وتهكما بقولهم : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم : لو شاء اللّه لأغناهم ، ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة اللّه تعالى فيهم.
وكان هذا الاحتجاج باطلا ، لأن اللّه تعالى إذا ملّك عبدا مالا ، ثم أوجب عليه فيه حقا ، فكأنه انتزع ذلك القدر منه ، فلا معنى للاعتراض. وقد صدقوا في قولهم : لو شاء اللّه أطعمهم ، ولكن كذبوا في الاحتجاج بذلك.
وقوله : مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ترغيب في الإنفاق ، فإن اللّه رزقكم ، فإذا أنفقتم فهو يخلف لكم الرزق ثانيا كما رزقكم أولا ، وهو أيضا ذم على البخل الذي هو في غاية القبح ، فإن أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير ، وفي هذا ذم لهم على ترك الشفقة على خلق اللّه.
ومع هذا كله ، عابوا الآمرين لهم بالإنفاق واتهموهم بالضلال ، فقالوا تتمة لكلامهم :
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي ما أنتم في أمركم لنا بالإنفاق إلا في خطأ واضح ، وانحراف عن جادة الهدى والرشاد.
ج ٢٣ ، ص : ٢٤

(٢١/٢٣)

و قوله إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا .. يفيد الحصر. وهذا فهم خطأ من المشركين ، لأن حكمة اللّه اقتضت تفاوت الناس في الرزق ، فهو يقبض الرزق عمن يشاء ، ويبسطه لمن يشاء ، وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ ، إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ [الشورى ٤٢/ ٢٧] فقد أغنى قوما ، وأفقر آخرين ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالعطاء والشكر : فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى [الليل ٩٢/ ٥- ١٠].

وقال ابن جرير عن قوله تعالى : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ : ويحتمل أن يكون من قول اللّه عز وجل للكفار حين ناظروا المؤمنين ، وردوا عليهم ، فقال لهم : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ قال ابن كثير : وفي هذا نظر ، واللّه أعلم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على أمور ثلاثة هي :

أولا- إن المشركين قوم تمادوا في الغي والضلال والعناد والكبر ، ولم يتأملوا في أحداث الماضي ، ووقائع الزمان ، وأحوال الأمم التي أهلكهم اللّه بتكذيبهم رسلهم ، ولم ينظروا في مستقبل الحياة الآخرة ، فتراهم إذا قيل لهم : اتقوا اللّه ، لا يتقون.

ثانيا- وهم أيضا شأنهم وديدنهم الإعراض عن آيات اللّه ، والتكذيب لها ، وعدم الانتفاع بها ، لتركهم النظر المؤدي إلى الإيمان باللّه وتصديق الرسول ص.

ثالثا- كما أنهم أخلّوا بتعظيم الخالق ، حرموا العطف والشفقة على الإنسانية ، وانعدمت عندهم عاطفة الرحمة بالمخلوقات ، إذ قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم اللّه ، فبخلوا وتهكموا ، وهو شأن البخلاء في كل عصر.

ج ٢٣ ، ص : ٢٥

إنكار الكفار يوم البعث وبيان أنه حق لا شك فيه [سورة يس (٣٦) : الآيات ٤٨ الى ٥٤]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

الإعراب :

يَخِصِّمُونَ الأصل : يختصمون بوزن « يفتعلون » فحذف حركة التاء ، ولم ينقلها إلى الخاء ، وأبدل من التاء صادا ، وأدغم الصادين ببعضهما ، وكسر الخاء لسكونها وسكون الصاد الأولى ، لأن الأصل في التقاء الساكنين الكسر. وقرئ يَخِصِّمُونَ بفتح الياء والخاء ، بنقل تتمة التاء إلى الخاء ، وقرئ أيضا يَخِصِّمُونَ بكسر الياء والخاء ، وقد كسر الياء اتباعا لكسرة الخاء ، والكسر للاتباع كثير في كلامهم ، مثل قسيّ وعصي وخفي. وقرئ « يخصمون » كيضربون ، أي يخصم بعضهم بعضا.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ الجار والمجرور في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل فَإِذا هُمْ إذا هنا ظرفية للمفاجاة.

يا وَيْلَنا إما منادى مضاف ، فويل : هو المنادي ، ونا : هو المضاف إليه ، ونداء الويل كنداء الحسرة في قوله تعالى : يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ. وإما أن يكون المنادي محذوفا ، ووَيْلَنا منصوب على المصدر ، كأنهم قالوا : يا هؤلاء ويلا لنا ، فلما أضيفت حذفت اللام الثانية.

هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ مبتدأ وخبر ، وما مصدرية أو موصولة محذوفة العائد.

(٢٣/٢٣)

ج ٢٣ ، ص : ٢٦

البلاغة :

مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا استعارة ، شبه حال موتهم بحال نومهم ، أي من بعثنا من موتنا.

هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ فيه إيجاز بالحذف ، أي تقول لهم الملائكة ذلك ، أي وعدكم به الرحمن.

المفردات اللغوية :

مَتى هذَا الْوَعْدُ متى يتحقق ويجيء ما وعدتمونا به وهو وعد البعث ما يَنْظُرُونَ ينتظرون إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً هي نفخة إسرافيل الأولى في الصور ، وهي التي يموت بها أهل الأرض جميعا تَأْخُذُهُمْ وَ

فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً

قَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ

أي ما كانت الفعلة إلا النفخة الأخيرة التي نفخها إسرافيل في الصور ، فإذا هم مجموعون عندنا بسرعة بمجرد تلك الصيحة للحساب والجزاء والعقاب. قال البيضاوي : وفي كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر ، واستغناؤهما عن الأسباب المألوفة في الدنيا. وتنكير صَيْحَةً للتكثير.

فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي يقال لهم ذلك ، تصويرا للموعود ، وتمكينا له في النفوس.

ج ٢٣ ، ص : ٢٧

المناسبة :

بعد بيان إعراض الكفار عن التقوى ، وامتناعهم من الإنفاق ، أبان اللّه تعالى سبب ذلك وهو إنكارهم للبعث ، واستعجالهم له ، استهزاء به ، ثم أوضح أنه حق لا مرية فيه ، وأنه سيأتيهم الموت بغتة ، وهم في غفلة عنه ، وأن البعث أمر سهل على اللّه لا يحتاج إلا إلى نفخة واحدة في الصور.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم :

(٢٤/٢٣)

وَ يَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ؟ أي ويقول المشركون استعجالا للبعث استهزاء وسخرية وتهكما بالمؤمنين : متى يأتي هذا الوعد بالبعث الذي وعدتمونا به ، وتهددونا به ، إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدون ؟ ! والخطاب للرسول ص والمؤمنين الذين دعوهم إلى الإيمان باللّه وباليوم الآخر ، فأجابهم اللّه تعالى :

ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ أي ما ينتظرون للعذاب والقيامة إلا نفخة واحدة في الصور ، هي نفخة الفزع التي يموت بها جميع أهل الأرض فجأة ، وهم يختصمون فيما بينهم في البيع والشراء ونحوهما من أمور الدنيا أي وهم متشاغلون في شؤون الحياة من معاملة وحديث وطعام وشراب وغير ذلك ، كما قال تعالى : فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [الأعراف ٧/ ٩٥] وقال سبحانه : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [الزخرف ٤٣/ ٦٦].

وقوله جل وعز : إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً هي النفخة الأولى في الصور ، كما قال عكرمة ، ويؤيده ما رواه ابن جرير عن ابن عمر قال : لينفخنّ في الصور ،

ج ٢٣ ، ص : ٢٨

و الناس في طرقهم وأسواقهم ومجالسهم ، حتى إن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومانه ، فما يرسله أحدهما من يده حتى ينفخ في الصور ، فيصعق به ، وهي التي قال اللّه : ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ ، وَهُمْ يَخِصِّمُونَ.

و

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ص : « لتقومنّ الساعة ، وقد نشر الرجلان ثوبهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومنّ الساعة ، والرجل يليط « ١ » حوضه ، فلا يسقي منه ،

ولتقومنّ الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (نعجته) ، فلا يطعمه ، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه (فمه) ، فلا يطعمها » .

(٢٥/٢٣)

ثم أبان تعالى سرعة حدوث الموت العام أو الصيحة ، فقال :

فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بما له من أملاك وما عليه من ديون ، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم ، ولا يتمكنون من الرجوع إلى منازلهم التي كانوا خارجين عنها.

ثم أخبر اللّه تعالى عن نفخة ثانية هي نفخة البعث والنشور من القبور ، فقال :

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ أي ونفخ في الصور نفخة ثانية للبعث والنشور من القبور ، فإذا جميع المخلوقين يخرجون من القبور ، يسرعون المشي إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء ، كما قال تعالى : يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً ، كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ [المعارج ٧٠/ ٤٣].

ثم ذكر ما يطرأ عليهم بعد البعث من الأهوال والمخاوف فقال تعالى :

قالُوا : يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا أي قال المبعوثون : يا هلاكنا من الذي بعثنا من قبورنا بعد موتنا ؟ وهي قبورهم التي كانوا يعتقدون في دار

---

(١) يليط حوضه ، وفي رواية : « يلوط حوضه » أي يطينه.

ج ٢٣ ، ص : ٢٩

الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، وظنوا لما شاهدوا من الأهوال وما استبد بهم من الفزع ، أنهم كانوا نياما. وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.

هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ أي هذا ما وعد به اللّه وصدق في الإخبار عنه الأنبياء المرسلون ، فهم رجعوا إلى أنفسهم ، فاعترفوا أنهم بعثوا من الموت ، وأقروا بصدق الرسل ، يوم لا ينفع التصديق. فهذا الكلام من قول الكفار ، وهو رأي عبد الرحمن بن زيد ، واختاره الشوكاني وغيره.

(٢٦/٢٣)

و اختار ابن جرير وابن كثير أن هذا جواب الملائكة أو جواب المؤمنين ، كقوله تبارك وتعالى : وَقالُوا : يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ. هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [الصافات ٣٧/ ٢٠- ٢١].

ثم أوضح اللّه تعالى سرعة البعث ، فقال :

إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة ، فإذا هم أحياء مجموعون لدينا بسرعة للحساب والجزاء ، كما قال تعالى : فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات ٧٩/ ١٣- ١٤] وقال عز وجل : وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ [النحل ١٦/ ٧٧].

وأردف بعدئذ ما يكون في ذلك من القضاء العادل ، فقال تعالى :

فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي في يوم القيامة لا تبخس نفس شيئا من عملها مهما قلّ ، ولا توفون إلا ما عملتم من خير أو شر.

ج ٢٣ ، ص : ٣٠

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- كان الرد الحاسم على استعجال الكفار قيام الساعة استهزاء أنها تأتي فجأة كلمح البصر أو هي أقرب ، وتحدث بنفخة واحدة هي نفخة إسرافيل في وقت يختصم الناس في أمور دنياهم ، فيموتون في مكانهم. وهذه نفخة الصّعق.

٢- من آثار الموت المفاجئ بتلك النفخة أنهم لا يتمكنون من العودة إلى ديارهم إذا كانوا خارجين منها ، ولا يستطيعون الإيصاء إلى غيرهم بما لهم وما عليهم. وقيل : لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضا بالتوبة ، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم.

٣- ثم تأتي النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور من القبور ، فهما نفختان ، لا ثلاث ، بدليل هذه الآية : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. و

روى المبارك بن فضالة عن الحسن البصري قال : قال رسول اللّه ص : « بين النفختين أربعون سنة ، الأولى يميت اللّه بها كل حيّ ، والأخرى يحيي اللّه بها كلّ ميت » .

٤- يتعجب أهل البعث ويذهلون ويفزعون مما يرون من شدائد الأهوال ، فيتساءلون عمن أخرجهم من قبورهم ، مفضلين عذاب القبر ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.

٥- النفخة الثانية أيضا وهي نفخة البعث والنشور سريعة جدا ، فإذا حدثت تجمّع الناس جميعا

وحضروا مسرعين إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء ، كما قال تعالى : مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ [القمر ٥٤/ ٨].

٦- الحساب حق وعدل ، والجزاء قائم على العدل المطلق ، فلا ينقص من

ج ٢٣ ، ص : ٣١

ثواب العمل أي شيء مهما قل ، ولا يجزى الناس إلا على وفق ما عملوا من خير أو شر.

جزاء المحسنين [سورة يس (٣٦) : الآيات ٥٥ الى ٥٨]

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (٥٦) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨)

الإعراب :

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ أَصْحابَ : اسم إِنَّ ، وخبرها : إما فِي شُغُلٍ وإما فاكِهُونَ.

وفِي شُغُلٍ : متعلق ب فاكِهُونَ ويجوز أن يكونا خبرين. ولا يجوز جعل فَالْيَوْمَ خبرا ، لأنه ظرف زمان ، وظروف الزمان لا تكون أخبارا عن الجثث. وفَالْيَوْمَ منصوب على الظرف ، وعامله فِي شُغُلٍ وتقديره : إن أصحاب الجنة كائنون في شغل اليوم.

هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ هُمْ : مبتدأ ، وَأَزْواجُهُمْ : عطف عليه ، ومُتَّكِؤُنَ : خبر المبتدأ ، وفِي ظِلالٍ : متعلق ب مُتَّكِؤُنَ.

و عَلَى الْأَرائِكِ. صفة ل ظِلالٍ ويجوز جعل : فِي ظِلالٍ وعَلَى الْأَرائِكِ ومُتَّكِؤُنَ أخبارا متعددة لمبتدأ واحد.

لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ فاكِهَةٌ : مبتدأ ، ولَهُمْ : خبره ، وفِيها : معمول الخبر ، وهو لَهُمْ ويجوز جعل كل من لَهُمْ وفِيها خبرين للمبتدأ الذي هو فاكِهَةٌ ، ويجوز أيضا جعل لَهُمْ وصفا ل فاكِهَةٌ فلما تقدم صار في موضع نصب على الحال ، ويجوز أيضا جعل فِيها صفة ل فاكِهَةٌ فلما تقدم عليها صار في موضع نصب على الحال.

وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ ما : إما اسم موصول بمعنى الذي : مبتدأ وَلَهُمْ خبره ، وصلته : يَدَّعُونَ ، والعائد محذوف ، وإما نكرة موصوفة ، وصفتها يَدَّعُونَ وإما مصدرية ، فتكون مع يَدَّعُونَ في تأويل المصدر. ويدعون أي يتمنون ويشتهون ، وأصله (يدتعيون) بوزن يفتعلون فأبدل من التاء دالا ، ونقلت حركة الياء إلى ما قبلها ، فسكنت الياء ، والواو بعدها ساكنة ، فاجتمع ساكنان ، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين.

ج ٢٣ ، ص : ٣٢

سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ سَلامٌ : بدل مما يدعون ، مرفوع على البدل من ما أي ولهم أن يسلم اللّه عليهم ، وهذا منى أهل الجنة. وقَوْلًا : مصدر مؤكد لقوله تعالى :

وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ سَلامٌ قال الزمخشري : والأوجه أن ينتصب على الاختصاص. ويصح جعل سَلامٌ وصفا ل ما إذا جعلتها نكرة موصوفة ، أي ولهم شيء يدعونه سلام ، ويصح جعله خبرا ل ما.

المفردات اللغوية :

(٢٩/٢٣)

فِي شُغُلٍ الشغل : الشأن الذي يشغل الإنسان عما سواه ، إما لمسرة أو لمساءة. والمراد به هنا : أنهم مشغولون بما هم فيه من اللذات ، بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، يشتغلون بذلك عن الاهتمام بأمر أهل النار. وهو شغل متعة ، لا شغل تعب ، لأن الجنة لا نصب فيها. فاكِهُونَ متنعمون متلذذون. فِي ظِلالٍ جمع ظل ، وهو ما لا تصيبه الشمس. الْأَرائِكِ جمع أريكة : وهو السرير المزيّن في قبة أو بيت ، أو الفراش ، فالأرائك :

الأسرّة التي في الحجال. يَدَّعُونَ أي يتمنون ويشتهون.

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى حدوث البعث لا شك فيه ، وما يكون في يوم القيامة من الجزاء العادل ، بيّن هنا ما أعده للمحسنين ، ثم أعقبه في الآيات التالية بما أعده للمسيئين ، ترغيبا في العمل الصالح ، وترهيبا من سوء الأعمال.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن حال أهل الجنة فيقول :

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ أي إن المؤمنين الصالحين إذا نزلوا في روضات الجنات يوم القيامة ، كانوا في شغل عن غيرهم ، بما يتمتعون به من اللذات ، والنعيم المقيم ، والفوز العظيم ، بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

فهم في شغل عما فيه أهل النار من العذاب ، وهم متنعمون متلذذون معجبون بالنعيم.

ج ٢٣ ، ص : ٣٣

و ليس التمتع وحدهم وإنما هم في أنس وسرور مع أزواجهم ، فقال تعالى :

هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ ، عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ أي إنهم وحلائلهم في الجنة في ظلال الأشجار التي لا تصيبها الشمس ، لأنه لا شمس فيها ، وهم فيها متكئون على السرر المستورة بالخيام والحجال

(المظلة الساترة). والأرائك كما بينا : الأسرّة التي في الحجال. وهذه المتعة في الظلال ، وعلى الأسرّة والفرش الوثيرة الناعمة هي حلم الإنسان وغاية ما يطمح إليه.

(٣٠/٢٣)

و المتعة ليست روحية وإنما هي مادية ، فقال تعالى :

لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ ، وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ أي تقدم لهم الفواكه من جميع أنواعها ، ولهم غير ذلك كل ما يتمنون ويشتهون ، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذّ.

وقوله : لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ ولم يقل « يأكلون » إشارة إلى اختيارهم وملكهم وقدرتهم.

والنعمة الأسمى من كل ما يجدون : سلام اللّه عليهم ، فقال تعالى :

سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ أي إن ما يتمنونه هو تحية اللّه لهم بالسلام أي الأمان من كل مكروه ، يقول لهم : سلام عليكم يا أهل الجنة ، كما قال تعالى :

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ : سَلامٌ [الأحزاب ٣٣/ ٤٤] أو بوساطة الملائكة ، كما قال تعالى : وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ : سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [الرعد ١٣/ ٢٣- ٢٤]

والمعنى أن اللّه يسلم عليهم بوساطة الملائكة ، أو بغير وساطة ، مبالغة في تعظيمهم ، وذلك متمناهم.

ج ٢٣ ، ص : ٣٤

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يلي :

١- إن أصحاب الجنة يتمتعون فيها متعة مادية وليست روحية فقط ، فهم في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي في النار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم.

٢- يتمتع أهل الجنة بنعيمها هم وأزواجهم ، تحت ستور تظللهم ، وعلى الأرائك (أي السّرر في الحجال ، كالناموسيات) متكئون.

٣- لهم أنواع من الفاكهة لا تعد ولا تحصى ، ولهم كل ما يتمنون ويشتهون ، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.

٤- ولهم أكمل الأشياء وآخرها الذي لا شيء فوقه وهو السلام من اللّه الرب الرحيم ، إما بوساطة الملائكة ، أو بغير وساطة ، مبالغة في تعظيمهم ، وذلك أقصى ما يتمنونه.

جزاء المجرمين [سورة يس (٣٦) : الآيات ٥٩ الى ٦٨]

(٣١/٢٣)

وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)

ج ٢٣ ، ص : ٣٥

الإعراب :

أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ في موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر ، وتقديره : ألم أعهد إليكم بألا تعبدوا ، فحذف حرف الجر ، فاتصل الفعل به.

البلاغة :

أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ .. وَأَنِ اعْبُدُونِي بينهما طباق السلب ، أحدهما سلب والآخر إيجاب.

أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ أَفَلا يَعْقِلُونَ استفهام إنكاري للتوبيخ.

فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ بين المضي والرجوع طباق.

المفردات اللغوية :

وَ امْتازُوا تميزوا وانفردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم ، أي ويقال للمجرمين : اعتزلوا في الآخرة عن الصالحين. أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ أوصي وآمر على لسان رسلي ، والعهد : الوصية ، وهذا من جملة ما يقال لهم تقريعا وإلزاما للحجة. أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ألا تطيعوه ، والمراد : عبادة غير اللّه من الآلهة الباطلة ، مما زين به الشيطان وأمر به. عَدُوٌّ مُبِينٌ بيّن العداوة. وَأَنِ اعْبُدُونِي وحدوني وأطيعوني ، أي ألم أعهد إليكم بترك عبادة الشيطان ، وبعبادتي. هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أي طريق معتدل قويم ، وهو دين الإسلام.

جِبِلًّا خلقا وجمعا عظيما ، جمع جبيل كقديم ، وقرئ بضم الباء. أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ عداوة الشيطان وإضلاله لكم. هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ بها في الدنيا على ألسنة الرسل. اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ادخلوها وقاسوا حرها بسبب كفركم باللّه في الدنيا ، وطاعتكم للشيطان ، وعبادتكم للأوثان.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ أي نمنعها من الكلام ، والمراد أفواه الكفار. وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ وغيرها ، بأن يخلق اللّه فيها القدرة على الكلام. بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أي يقترفون ، فكل عضو ينطق بما صدر منه ، قال البيضاوي : أي بظهور آثار المعاصي عليها ، ودلالتها على أفعالها ، أو بإنطاق اللّه تعالى إياها. لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ أي أعميناهم ، والطمس : إزالة

ج ٢٣ ، ص : ٣٦

الأثر بالمحو. فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ أي ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم ليمصوا فيه. فَأَنَّى يُبْصِرُونَ أي فكيف يبصرون الطريق والحق حينئذ ؟ أي لا يبصرون.

(٣٣/٢٣)

لَمَسَخْناهُمْ أي لو شئنا تغيير صورتهم إلى صورة أخرى قبيحة. عَلى مَكانَتِهِمْ أي مكانهم ، بحيث يجمدون فيه ، وقرئ : مكاناتهم جمع مكانة ، بمعنى مكان ، أي في منازلهم. فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا ذهابا. وَلا يَرْجِعُونَ أي ولا رجوعا ، أي لم يقدروا على ذهاب ولا عودة.

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ ومن نطل عمره. نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ نغير خلقه ونقلبه فيه ، ونجعله على عكس ما كان عليه أولا من القوة والطراوة ، فيصبح بعد قوته وشبابه ضعيفا هرما.

أَ فَلا يَعْقِلُونَ ؟ أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسخ والبعث ، فيؤمنوا.

المناسبة :

بعد بيان حال المحسنين في الآخرة ، أعقبه تعالى ببيان حال المجرمين في الدنيا والآخرة ، ففي الآخرة يميزون عن المؤمنين ، ويصلون نار جهنم خالدين فيها أبدا بسبب كفرهم واتباع وساوس الشيطان ، وفي الدنيا لم يعاجلهم بالعقوبة رحمة منه ، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم ، أو يمسخ صورهم ويجعلهم كالقردة والخنازير ، وأعطاهم الفرصة الكافية من العمر في الدنيا ليتمكنوا من النظر والاهتداء ، قبل أن يضعفوا ويعجزوا عن البحث والإدراك ، وذلك تحذير واضح لهم.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن حال الكفار يوم القيامة بتمييزهم عن المؤمنين في موقفهم ، فيقول :

وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ أي يقال للمجرمين الكافرين في الآخرة :

تميزوا في موقفكم عن المؤمنين ، كما قال تعالى في آية أخرى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ [يونس ١٠/ ٢٨] وقال سبحانه : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ [الروم ٣٠/ ١٤] يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ [الروم ٣٠/ ٤٣] أي يصيرون صدعين فرقتين.

ج ٢٣ ، ص : ٣٧

أو المراد : يمتاز المجرمون بعضهم عن بعض ، فاليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة ، والماديون والملحدون فرقة ، وهكذا.

ثم أبان اللّه تعالى سبب تمييزهم عن غيرهم ، موبخا ومقرعا لهم على كفرهم ، فقال :

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ أي ألم أوصكم وآمركم وأتقدم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم ألا تطيعوا الشيطان فيما يوسوس به إليكم من معصيتي ومخالفة أمري ، فإن الشيطان ظاهر العداوة لكم ، بدءا من أبيكم آدم عليه السلام.

وبعد النهي عن عبادة غير اللّه أمر تعالى بعبادته ، فقال :

وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أي وأن وحّدوني وأطيعوني فيما أمرتكم به ، ونهيتكم عنه ، وهذا المأمور به والمنهي عنه هو الطريق المعتدل القويم ، وهو دين الإسلام.

ثم أخبر اللّه تعالى عن مساعي الشيطان في إضلال السابقين ، فقال :

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ أي لقد أغوى الشيطان خلقا كثيرا ، وزين لهم فعل السيئات ، وصدهم عن طاعة اللّه وتوحيده ، أفلم تعقلوا عداوة الشيطان لكم ، وتبتعدوا عن مثل ضلالات السابقين ، حتى لا تعذبوا مثلهم.

ثم بيّن اللّه تعالى مآل أهل الضلال قائلا لهم يوم القيامة تقريعا وتوبيخا :

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ أي هذه النار التي وعدتم بها في الدنيا وحذرتكم منها على ألسنة الرسل فكذبتموهم ، وقد برزت لهم لإرهابهم.

ج ٢٣ ، ص : ٣٨

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ادخلوها وذوقوا حرها اليوم ، بسبب كفركم باللّه في الدنيا ، وتكذيبكم بها ، وطاعتكم للشيطان ، وعبادتكم للأوثان.

وفي هذا الكلام إشارة إلى شدة ندامتهم وحسرتهم من وجوه ثلاثة « ١ » :

١- قوله تعالى : اصْلَوْهَا وهو أمر تنكيل وإهانة ، كقوله تعالى لفرعون : ذُقْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان ٤٤/ ٤٩].

٢- قوله تعالى : الْيَوْمَ الذي يدل على أن العذاب حاضر ، وأن لذاتهم قد مضت ، وبقي العذاب اليوم.

٣- قوله تعالى : بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الذي ينبئ عن الكفر بنعمة عظيمة ، وحياء الكفور من المنعم من

أشد الآلام ، كما قال بعضهم :

أ ليس بكاف لذي نعمة حياء المسيء من المحسن

ثم أبان اللّه تعالى مدى مواجهتهم بالجرم الذي ارتكبوه دون أن يستطيعوا إنكاره ، فقال :

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أي في هذا اليوم الرهيب ، يختم اللّه على أفواه الكافرين والمنافقين ختما لا يقدرون معه على الكلام ، ويستنطق جوارحهم بما عملت ، فتنطق أيديهم وأرجلهم بما اقترفت ، ليعلموا أن أعضاءهم التي كانت أعوانا لهم على المعاصي ، صارت شهودا عليهم.

وجعل الكلام للأيدي والشهادة للأرجل ، لأن أكثر الأفعال تتم بمباشرة الأيدي ، كما قال تعالى : وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ [يس ٣٦/ ٣٥] وقال سبحانه :

وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة ٢/ ١٩٥] أي ولا تلقوا بأنفسكم ،

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦/ ١٠١ [.....]

ج ٢٣ ، ص : ٣٩

و الشاهد على العمل ينبغي أن يكون غيره ، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود ، لتعذر إضافة الأفعال إليها.

روى مسلم والنسائي وابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه أن النبي ص قال : « يقول العبد يوم القيامة : لا أجيز علي إلا شاهدا من نفسي ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بعمله ، ثم يخلّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدا لكنّ وسحقا ، فعنكنّ كنت أناضل » .

ثم أوضح اللّه تعالى بعض مظاهر قدرته عليهم من إذهاب البصر والمسخ وسلب الحركة ، فقال :

وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ ، فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ ، فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ؟ أي ولو نريد لأذهبنا أعينهم وأعميناهم ، فصاروا لا يبصرون طريق الهدى ، فلو بادروا إلى الطريق المألوفة لهم ليسلكونها ، لم يستطيعوا ، وكيف يبصرون الطريق وقد ذهبت أبصارهم ؟

وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ ، فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا ، وَلا يَرْجِعُونَ أي لو شئنا لبدّلنا خلقهم ، وحولنا صورهم إلى صور أخرى أقبح منها كالقردة والخنازير ، وهم في أمكنتهم ومواضعهم التي هم فيها يرتكبون السيئات ، فلا يتمكنون من الذهاب والمضي أمامهم ، ولا الرجوع وراءهم ، بل يلزمون حالا

واحدا ، لا يتقدمون ولا يتأخر

ثم حذرهم مَمَّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ، أَفَلا يَعْقِلُونَ ؟

أي ومن نطل عمره ، نرده إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط ، أفلا يدركون ويتفكرون أنهم كلما تقدمت بهم السن ، ضعفوا وعجزوا عن العمل ؟ وأننا أعطيناهم الفرصة

ج ٢٣ ، ص : ٤٠

الكافية من العمر للبحث والنظر والتفكير الصحيح ، فإذا طالت أعمارهم بعدئذ أكثر من ذلك ، فلن يفيدهم طول العمر شيئا. وفي هذا قطع لأعذارهم بأنه لم تتوافر لديهم الفرصة المواتية للبحث والنظر.

(٣٧/٢٣)

و الآية مثل : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ [الروم ٣٠/ ٥٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١- إن سياسة العزل للمجرمين ستطبق في الآخرة بنحو تام وشامل ، فيميز المجرمون عن المؤمنين ، تحقيرا لهم ، وإعدادا لسوقهم إلى نار جهنم ، وذلك حين يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ، فيقال لهم : اخرجوا من جملتهم.

وقال الضحاك : يمتاز المجرمون بعضهم من بعض ، فيمتاز اليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثان فرقة.

٢- يعاتب الكفار سلفا في الدنيا قبل أن يعاقبوا في الآخرة ، فيقال لهم من جهة الحق : ألم أوصكم وأبلّغكم على ألسنة الرسل ألا تطيعوا الشيطان في معصيتي ، وأن توحدوني وتعبدوني ، فإن عبادتي دين قويم.

٣- يؤكد تعالى تحذيره من الشيطان قائلا : لقد أغوى الشيطان بوساوسه خلقا كثيرا ، أفلا تعتبرون بالآخرين ، وألا تعقلون عداوته ، وتعلموا أن الواجب طاعة اللّه تعالى.

٤- وتقول خزنة جهنم للكفار : هذه جهنم التي وعدتم ، فكذبتم بها.

روي عن أبي هريرة أن رسول اللّه ص قال : « إذا كان يوم القيامة ، جمع اللّه الإنس

ج ٢٣ ، ص : ٤١

و الجن والأوّلين والآخرين في صعيد واحد ، ثم أشرف عنق من النار على الخلائق ، فأحاط بهم ، ثم ينادي مناد : هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ فحينئذ تجثو الأمم على

ركبها ، وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها
[الحج ٢٢/ ٢] ، تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى ، وَما هُمْ بِسُكارى ، وَلكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ
[الحج ٢٢/ ٢] » .

(٣٨/٢٣)

٥- إن أعضاء الإنسان التي كانت أعوانا في حق نفسه ، صارت عليه شهودا في حق ربّه. والسبب في التعبير بكلام الأيدي وشهادة الأرجل أن اليد مباشرة للعمل ، فتحتاج إلى شهادة غيرها.
ومن وقائع الشهادة يوم القيامة أن المشركين قالوا كما حكى القرآن عنهم :
وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ [الأنعام ٦/ ٢٣] فيختم اللّه على أفواههم ، حتى تنطق جوارحهم.
٦- لو شاء اللّه لأعمى الكفار عن الهدى ، فلا يبصرون طريقا إلى منازلهم ولا غيرها ، ولكنه لم يفعل رحمة بهم ، وليتمكنوا من النظر الصحيح المؤدي إلى الإيمان باللّه وحده لا شريك له.
٧- ولو شاء اللّه لبدل خلقة الكفار إلى ما هو أقبح منها جزاء على كفرهم ، ولجعلهم حجرا أو جمادا أو بهيمة ، كالقردة والخنازير ، وحينئذ لا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ، ولا يرجعوا وراءهم ، كما أن الجماد لا يتقدم ولا يتأخر ، ولكنه تعالى أيضا لم يفعل ، لرحمته الواسعة.
٨- لا حاجة لإطالة أعمار الناس أكثر مما قدر تعالى لهم ، لأنه كلما طال العمر ازداد الإنسان ضعفا.
والمقصود بالآية وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ .. الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ، ولهذا قال تعالى في ختام الآية : أَفَلا يَعْقِلُونَ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم
ج ٢٣ ، ص : ٤٢
صيرورتهم إلى سن الشيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ، ولا انتقال عنها ، ولا محيد عنها ، وهي الدار الآخرة. ثم أفلا يعقلون أن من فعل هذا بهم قادر على بعثهم مرة أخرى ؟ !
إثبات وجود اللّه ووحدانيته وبيان خواص الرسالة [سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٩ الى ٧٦]

(٣٩/٢٣)

وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (٧٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْناها لَهُمْ

فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (٧(٢) وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣)
وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧(٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥)
فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (٧٦)

الإعراب :

فَمِنْها رَكُوبُهُمْ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم ، وقرئ : ركوبهم وركوبتهم ، وهما ما يركب ، كالحلوب والحلوبة. حذف التاء من الأول ، كقولهم : امرأة صبور وشكور ، وكلاهما بمعنى مفعول.

البلاغة :

لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ بين الجملتين ما يسمى بالمقابلة ، قابل بين الإنذار والإعذار ، وبين المؤمنين والكفار.

مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً استعارة تمثيلية ، شبه قيامه بالخلق والتكوين بمن يعمل أمرا بيديه ، ويتقنه بذاته ، واستعار لفظ العمل للخلق.

وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ بعد قوله : فَمِنْها رَكُوبُهُمْ عام بعد خاص ، لتعظيم النعمة.

ج ٢٣ ، ص : ٤٣

أَ فَلا يَشْكُرُونَ استفهام إنكاري للتقريع والتوبيخ.

يُسِرُّونَ ويُعْلِنُونَ بينهما طباق.

وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ تشبيه بليغ ، أي كالجند في الخدمة والدفاع.

المفردات اللغوية :

وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ رد لقول المشركين في مكة : إن محمدا شاعر ، وما أتى به من القرآن شعر ، أي ما علمناه الشعر ، بتعليم القرآن ، فإنه لا يماثله لفظا ولا معنى ، لأنه غير موزون ولا مقفّى ، والشعر : كلام موزون مقفّى. فالضمير في عَلَّمْناهُ للنبي ص. وَما يَنْبَغِي لَهُ أي ما يصح له الشعر ، ولا يتأتى منه ، ولا يسهل عليه لو طلبه. إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ أي ما القرآن إلا عظة أو موعظة وإرشاد من اللّه. وَقُرْآنٌ مُبِينٌ أي وكتاب سماوي مظهر للأحكام والشرائع وغيرها ، يتلى في أثناء العبادة.

لِيُنْذِرَ القرآن أو الرسول ص مَنْ كانَ حَيًّا عاقلا ما يخاطب به فهما ، أو حيّ القلب ، مستنير البصيرة. وَيَحِقَّ الْقَوْلُ يجب العذاب ويثبت. عَلَى الْكافِرِينَ الذين يصيرون إلى الكفر ، وهم كالميتين لا يعقلون ما يخاطبون به. أَوَلَمْ يَرَوْا يعلموا ، والاستفهام للتقرير ، والواو الداخلة على لَمْ للعطف. أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ للناس. مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا مما تولينا إحداثه وعملناه وأبدعناه بلا شريك ولا معين أَنْعاماً هي الإبل والبقر

والغنم ، وخصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع. فَهُمْ لَها مالِكُونَ متملكون ، ضابطون قاهرون ، يتصرفون بها كيف شاؤوا ، ولو خلقناها وحشية لنفرت منهم ، ولم يقدروا على ضبطها.
وَذَلَّلْناها لَهُمْ سخرناها لهم ، وجعلناها منقادة لهم. فَمِنْها رَكُوبُهُمْ مركوبهم. وَمِنْها يَأْكُلُونَ ما يأكلون لحمه.
وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ كأصوافها وأوبارها وأشعارها. وَمَشارِبُ من لبنها ، جمع مشرب بمعنى الموضع ، أو المصدر. أَفَلا يَشْكُرُونَ المنعم بها عليهم فيؤمنوا ، إذ لو لا خلقه لها وتذليله إياها لما حصّلوا هذه المنافع المهمة.

(٤١/٢٣)

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً من الأصنام ونحوها يعبدونها ، ولا قدرة لها على شيء ، ولا فائدة منها.
لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ رجاء أن ينصروهم في وقت الأزمات والشدائد.
لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ أي لا تستطيع آلهتهم مناصرتهم في شيء ما ، وقد نزلوا منزلة العقلاء.
وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ أي وهم لآلهتهم من الأصنام جنود يذودون عنهم ، ثم هم محضرون في النار معهم. فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ فلا يهمّك قولهم في اللّه بالإلحاد والشرك ، وفيك بالتكذيب ، قائلين
ج ٢٣ ، ص : ٤٤
لك : لست مرسلا. إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ نعلم السر والجهر ، فنجازيهم عليه ، وهو تعليل النهي على الاستئناف.
المناسبة :
بعد أن ذكر اللّه تعالى أصلين من أصول الدين الثلاثة ، وهما الوحدانية في قوله : وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ والبعث أو الحشر في قوله : هذِهِ جَهَنَّمُ .. اصْلَوْهَا الْيَوْمَ ذكر الأصل الثالث وهو الرسالة في الآيتين الأوليين :
وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ ... الآية.
ثم إنه تعالى أعاد الكلام على الوحدانية وأقام الأدلة الدالة عليها في بقية هذه الآيات.
التفسير والبيان :
ينفي الحق تبارك وتعالى صفة الشعر عن القرآن ، وخاصية الشاعرية عن الرسول ص ، فيقول :
وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ أي ليس النبي شاعرا ، وما يصح له الشعر ، ولا يتأتى منه ولا يسهل عليه لو طلبه ، فليس هو في طبعه ، ولا يحبه ، وقد جعله اللّه أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وإنما علمه اللّه قرآنا هو أسمى من الشعر ، ونوع آخر غير الشعر.

و الشعر : كلام عربي له وزن خاص ، ينتهي كل بيت منه بحرف خاص يسمى قافية ، ولا بد في القصيدة من وحدة القافية ، أي الحرف الأخير من كل بيت. ويعتمد الشعر على الخيال الخصب ، والتصوير الرائع ، والعاطفة المشبوبة ، ولا يتبع الشاعر فيه ما يمليه العقل والمنطق ، ولا يتحرى الصدق والدقة في إرسال أوصاف المديح والهجاء والرثاء والغزل وغير ذلك ، ويبالغ الشاعر في التصوير والوصف ، وما همّه إلا انتزاع الإعجاب من السامعين بقوله ، لذا وصف

تعالى الشعراء بقوله : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ [الشعراء ٢٦/ ٢٢٥- ٢٢٦] وقال العرب : أعذب الشعر أكذبه قال أبو حيان : والشعر : إنما هو كلام موزون مقفّى ، يدل على معنى تنتخبه الشعراء من كثرة التخييل وتزويق الكلام وغير ذلك ، مما يتورع المتدين عن إنشاده ، فضلا عن إنشائه « ١ » .

أما القرآن الكريم فخبره صدق ، وكلامه عظة واقعية ، ومنهجه التشريع الذي يسعد البشر ، وقصده الترغيب في فضائل الأعمال وغرر الخصال والأخلاق ، والترهيب من الانحراف والرذيلة ، وتقرير أحكام العبادة الصحيحة والمعاملة الرشيدة.

فالآية دلت على نفي كون القرآن شعرا في قوله تعالى : وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ ، ونفي كون النبي شاعرا في قوله تعالى : وَما يَنْبَغِي لَهُ وإنما علّمه اللّه القرآن الذي يمتاز بخاصيّة معينة تختلف عن الشعر المعروف وعن النثر المألوف.

وهي رد قاطع على قول العرب أهل مكة : إن القرآن شعر أو سحر أو من عمل الكهان ، وإن محمدا شاعر ، قاصدين بذلك إبطال صفة الوحي به من عند اللّه ، وتكذيب خاصيّة الرسالة.

وأما ما ورد على لسان الرسول ص من أقوال موزونة ، فهو مجرد سليقة اتفاقية من غير تكلف ولا صنعة ولا قصد ، مثل قوله يوم حنين وهو راكب البغلة البيضاء يقدم بها في نحور العدو :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

---

(١) البحر المحيط : ٧/ ٣٤٥

و

قوله ص حينما نكبت أصبعه في غار :

إن أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل اللّه ما لقيت

بل إن الخليل بن أحمد الفراهيدي ما عدّ المشطور من الرجز شعرا.

ولكنه ص كان يتمثل أحيانا ببعض الأشعار لشعراء العرب ، مثل تمثله ببيت طرفة بن العبد في معلّقته المشهورة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

و

قد صح فيما رواه ابن أبي حاتم وابن جرير عن عائشة رضي اللّه عنها أنه كان يقول :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزود بالأخبار

فقال أبو بكر رضي اللّه عنه : ليس هذا هكذا ، فقال ص : « إني لست بشاعر ولا ينبغي لي » .

و

روى ابن سعد وابن أبي حاتم عن الحسن : « أنه ص كان يتمثل بهذا البيت هكذا :

كفى بالإسلام والشيب ناهيا للمرء

، و

الرواية : كفى الشيب والإسلام للمرء.

ناهيا ، فقال أبو بكر : أشهد إنك رسول اللّه ، ما علمك الشعر ، وما ينبغي لك » .

و

ثبت في الصحيح أنه ص تمثّل يوم حفر الخندق بأبيات عبد اللّه بن رواحة رضي اللّه عنه ، ولكن تبعا لقول أصحابه الذين كانوا يرتجزون ، وهم يحفرون ويقولون :

لا همّ لو لا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا

ج ٢٣ ، ص : ٤٧

و ثبّت الأقدام إن لاقينا إن الأولى قد بغوا علينا

إذا أرادوا فتنة أبينا

و يرفع ص صوته بقوله : أبينا ، ويمدّها.

وعدم تعليمه الشعر ، لأن اللّه إنما علّمه القرآن العظيم الذى : لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت ٤١/ ٤٢].

و القرآن ليس بشعر ولا تخيلات ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يؤثر ، وإنما هو دستور للحياة الإسلامية ، ومواعظ وإرشادات ، كما قال تعالى :

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ أي ما القرآن إلا ذكر من الأذكار ، وموعظة من المواعظ ، وكتاب سماوي واضح ظاهر جلي لمن تأمله وتدبره ، يتلى في المعابد ، ويسترشد في كل شؤون الحياة.

لذا قال تعالى محدّدا مهمة القرآن ومهمة رسول اللّه ص :

لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ أي لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض ، كقوله تعالى : لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ [الأنعام ٦/ ١٩] ولكن إنما ينتفع بنذارته من هو حيّ القلب ، مستنير البصيرة ، ولكي تثبت به وتجب كلمة العذاب على الكافرين ، الممتنعين من الإيمان به ، وهذا في مقابلة صفة المؤمنين وهم أحياء القلوب ، أما الكافرون فهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أشبه بالأموات في الحقيقة ، لعدم تأثرهم بعظات القرآن ، وانعدام يقظتهم لاتباع الحق والهدى.

والخلاصة : أن الآية دالة على أن القرآن رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين.

ثم أعاد تعالى الكلام في الوحدانية وأتى ببعض أدلتها ، فقال :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ أي أو لم

ج ٢٣ ، ص : ٤٨

يشاهد هؤلاء المشركون باللّه عبدة الأصنام وغيرهم أن اللّه خلق لهم هذه الأنعام (و هي الإبل والبقر والغنم) التي سخرها لهم ، وأوجدها من أجلهم من غير وساطة ولا شريك ، وجعلهم مالكين لها ، يقهرونها ويضبطونها ويتصرفون بها كيف شاؤوا ، وهي ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، ولو شاء لجعلها مستعصية عليهم ، مستوحشة نافرة منهم ، فلا يستفيدون منها ، فترى الولد الصغير يقود البعير الكبير ، بل ولو كان القطار مائة بعير أو أكثر.

ثم أبان اللّه تعالى منافعها الملموسة ، فقال :

وَذَلَّلْناها لَهُمْ ، فَمِنْها رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْها يَأْكُلُونَ أي وجعلناها لهم مسخّرة مذللة منقادة لهم ، لا تمتنع مما يريدون منها ، حتى الذبح ، فمنها مركوبهم الذي يركبونه في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، ومنها ما يأكلون من لحمها.

وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ ، أَفَلا يَشْكُرُونَ ؟ أي ولهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل منها ، كالاستفادة من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ، وهي لهم مشارب أي يشربون من

ألبانها ، أفلا يشكرون خالق ذلك ومسخره وموجد هذه النعم لهم ، بعبادته وطاعته ، وترك الإشراك به غيره.

وهذا حثّ صريح على شكر الخالق المنعم بعبادته وطاعته ، وهو أبسط ما يوجبه الوفاء ، وتقدير المعروف والإحسان.

ولكن الكفار تنكروا لهذا الواجب ، وكفروا بأنعم اللّه ، واستمروا في ضلالهم وتركوا عبادة اللّه ، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصرة ، فقال تعالى :

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ، لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ أي واتخذ هؤلاء المشركون

ج ٢٣ ، ص : ٤٩

الأصنام ونحوها آلهة يعبدونها من دون اللّه ، يبتغون بذلك أن تنصرهم وترزقهم وتقربهم إلى اللّه زلفى.

ولكنها في الواقع لا تقدر على شيء ، ولا تحقق فائدة لعبادها ، لذا قال تعالى مبينا خيبة أملهم :

لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ، وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ أي لا تقدر هذه الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأذل وأحقر ، بل لا تقدر على نصرة أنفسها ، ولا على الانتقام ممن أساء إليها ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل ، لذا كان الثابت بطلان ما رجوه منها ، وأمّلوه من نفعها.

(٤٦/٢٣)

و الكفار المشركون جند طائعون للأصنام ، يغضبون لها في الدنيا ، وهي لا تستطيع نصرهم ، ولا تقدم لهم خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا ، إنما هي أصنام.

وقوله : مُحْضَرُونَ أي يخدمونهم ، ويدفعون عنهم ، ويغضبون لهم ، وليس للآلهة استطاعة على شيء ، ولا قدرة على النصر. أو إنهم يوم القيامة محضرون لعذابهم ، لأنهم يجعلونهم وقودا للنار.

ثم سلّى اللّه رسوله عما يلقاه من أذى المشركين ، فقال :

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ أي فلا يهمنك تكذيبهم لك وكفرهم باللّه ، وأذاهم ، وجفاؤهم ، وقولهم : هؤلاء آلهتنا ، وأنها شركاء للّه في المعبودية ، أو قولهم لرسول اللّه ص : أنت شاعر ، أو ساحر ، أو كاهن ونحو ذلك.

فإنا نحن نعلم جميع ما هم فيه ، نعلم سرهم وجهرهم ، ونعلم ما يسرون لك من العداوة ، وإنا مجازوهم بذلك ، ومعاقبوهم عليه.

ج ٢٣ ، ص : ٥٠

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١- ليس القرآن شعرا ، ولا محمّد ص شاعرا ، فلا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلا به ، كسر وزنه ، وإنما كان همّه فقط الإفادة من المعاني.

٢- إن إصابة النبي ص الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر ، فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن ، وليس ذلك شعرا ولا في معناه ، كقوله تعالى :

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ [آل عمران ٣/ ٩٢] وقوله : نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ [الصف ٦١/ ١٣] وقوله : وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ [سبأ ٣٤/ ١٣] وقوله : فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ [الكهف ١٨/ ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات.

٣- روى ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن إنشاد الشعر ، فقال : لا تكثرن منه ، فمن عيبه أن اللّه يقول : وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ ، وَما يَنْبَغِي لَهُ.

(٤٧/٢٣)

٤- ما ينبغي ولا يصح للنبي ص أن يقول الشعر ، وذلك من أعلام النبوة ، ولا اعتراض لملحد على هذا بما يتفق الوزن فيه من القرآن وكلام الرسول ص ، لأن ما وافق وزنه وزن الشعر ، ولم يقصد به إلى الشعر ، ليس بشعر ، ولو كان شعرا لكان كل من نطق بموزون من العامة الذين لا يعرفون الوزن شاعرا.

٥- إن الذي يتلوه النبي ص على الناس هو ذكر من الأذكار ، وعظة من المواعظ ، وقرآن بيّن واضح مشتمل على الآداب والأخلاق ، والحكم والأحكام ، والتشريع المحقق لسعادة البشر.

ج ٢٣ ، ص : ٥١

٦- إن الغرض من إنزال القرآن إنذار من كان حيّ القلب ، مستنير البصيرة ، وإيجاب الحجة بالقرآن على الكفرة.

٧- من أدلة وجود اللّه ووحدانيته : خلق الإنسان والحيوان والنبات ، فإنه سبحانه خلق كل ذلك ، وأبدعه ، وعمله من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة.

ومن فضله ونعمته على الناس تذليل الأنعام لهم ، وتسخيرها لمنافعهم في الركوب ، وأكل اللحوم وشرب الحليب والألبان ، وصنع الأسمان ، حتى إن الصبي يقود الجمل العظيم ويضربه ويوجهه كيف شاء ، وهو له طائع. وهذا كله وغيره يوجب شكر الخالق المنعم وهو اللّه على نعمه ، بعبادته وطاعته وإخلاص ذلك له.

٨- بالرغم من وجود الآيات الدالة على قدرة اللّه ، اتخذ الكفار المشركون من دون اللّه آلهة ، لا قدرة لها على فعل ، طمعا في نصرتها وأملا في مساعدتها لهم إن نزل بهم عذاب.

والحقيقة أن تلك الآلهة المزعومة لا تستطيع نصر عابديها ، ولا جلب الخير لهم ، ولا دفع الشر

والضر عنهم ، ومع ذلك فإن الكفار جند طائعون لهذه الآلهة ، يمنعون عنهم ويدفعون عنهم ، ويغضبون لهم في الدنيا ، فهم لها بمنزلة الجند والحرس ، وهي لا تستطيع أن تنصرهم. وقيل : إن الآلهة جند للعابدين يوم القيامة ، محضرون معهم في النار ، فلا يدفع بعضهم عن بعض. وفي الخبر :

إنه يمثّل لكل قوم ما كانوا يعبدونه في الدنيا من دون اللّه ، فيتبعونه إلى النار ، فهم لهم جند محضرون. وهذا المعنى

ثبت في صحيح مسلم وكذا في جامع الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ص قال : « يجمع اللّه الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يطّلع عليهم رب العالمين ، فيقول : ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد ، ج ٢٣ ، ص : ٥٢

فيمثّل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار ناره ، فيتبعون ما كانوا يعبدون ، ويبقى المسلمون » .

٩- سلا اللّه عز وجل نبيه ص ، فقال له : لا يحزنك قولهم : شاعر ، ساحر ، روي أن القائل عقبة بن أبي معيط ، فنفى اللّه ذلك عن رسوله.

١٠- إن اللّه تعالى عليم مطلع على ما يسرّ الكافرون ويظهرون من القول والعمل ، فيجازيهم بذلك يوم القيامة.

إثبات البعث [سورة يس (٣٦) : الآيات ٧٧ الى ٨٣]

أَ وَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١)

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨(٢) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)

الإعراب :

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ الهمزة للإنكار مع إفادة التعجب ، والواو للعطف على مقدر ، أي ألم يتفكر الإنسان ويعلم.

البلاغة :

خَصِيمٌ مُبِينٌ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ من صيغ المبالغة.

ج ٢٣ ، ص : ٥٣

أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ استعارة تمثيلية ، شبه سرعة إنجازه الأشياء بأمر المطاع من غير امتناع ولا تأخير.

مَلَكُوتُ صيغة مبالغة من الملك ، أي الملك الواسع التام كالجبروت والرحموت للمبالغة.

المفردات اللغوية :

أَوَلَمْ يَرَ أو لم يعلم. الْإِنْسانُ أي إنسان ، ويشمل من كان سبب النزول ، وهو العاص بن وائل السهمي وأبي بن خلف. أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ أنا خلقناه من أضعف الأشياء ، والنطفة : الذرة من مادة الحياة وهي المني. فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ الخصيم : الشديد الخصومة لنا ، المبالغ في الجدل إلى أقصى الغاية ، والمبين : البيّن في نفي البعث.

وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا أي أورد في شأننا قصة غريبة هي في غرابتها كالمثل ، إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة ، ونفى القدرة على إحياء الموتى ، مقارنا ذلك بما عجز عنه ، وقائسا قدرة اللّه على قدرة العبد. وَنَسِيَ خَلْقَهُ نسي خلقنا إياه ، من المني ، وهو أغرب من مثله. قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ الرميم : البالية أي ما بلي من العظام ، ولم يقل : رميمة لأنه اسم لا صفة ،

روي أن العاصي بن وائل أو أمية بن خلف أو أبي بن خلف « ١ » أخذ عظما رميما ، ففتته ، وقال للنبي ص : أترى يحيي اللّه هذا بعد ما بلي ورمّ ؟ فقال ص : « نعم ، ويدخلك النار »

وفيه دليل على أن العظم ذو حياة ، فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء.

قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ أي فإن قدرته كما كانت ، لامتناع التغير فيه ، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها. وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ أي وهو بكل مخلوق عليم جملة وتفصيلا ، قبل خلقه وبعد خلقه ، يعلم تفاصيل المخلوقات وأجزاء الأشخاص المتفتتة ، ومواقعها وطريق تمييزها ، وضمّ بعضها إلى بعض على النمط السابق.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً أي أن اللّه يسرّ لكم الانتفاع بالحطب ، تحرقونه للطبخ والدفء ، وقد كان أخضر رطبا ، أو أن هناك شجرا يسمى المرخ ، وشجرا آخر يسمى العفار ، إذا قطع منهما عودان ، وضرب أحدهما على الآخر ، انقدحت منهما النار ، وهما أخضران ، وفي أمثال العرب : « في كل شيء نار ، واستمجد المرخ والعفار » ، فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ

(١) قال أبو حيان : أقوال أصحها أنه أبي بن خلف ، رواه ابن وهب عن مالك (البحر المحيط ٧٠/ ٣٤٨) ثم أضاف قائلا : ووهم من نسب إلى ابن عباس أن الجائي بالعظم هو عبد اللّه بن أبي بن سلول ، لأن السورة والآية مكية بإجماع ، ولأن عبد اللّه بن أبي لم يهاجر قط هذه المهاجرة.

ج ٢٣ ، ص : ٥٤

تقدحون منه النار ، وتوقدونها من ذلك الشجر ، بعد أن كان أخضر. وهذا دالّ على القدرة على البعث ، فإنه تعالى جمع فيه بين الماء والنار والخشب ، فلا الماء يطفئ النار ، ولا النار تحرق الخشب. وإبراز الشيء من ضدّه : وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر أبدع شيء ، وهو دالّ على قدرة اللّه تعالى.

(٥١/٢٣)

أَ وَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ أي إن من قدر على خلق السموات والأرض ، وهما في غاية العظم ، يقدر على إعادة خلق البشر الذي هو صغير ضعيف بَلى أي هو قادر على ذلك ، وبلى كلمة جواب كنعم ، تأتي بعد كلام منفي ، وكان الجواب من اللّه للدلالة على أنه لا جواب سواه. وَهُوَ الْخَلَّاقُ الكثير الخلق الْعَلِيمُ الواسع العلم بكل شيء ، فهو كثير المخلوقات والمعلومات.

إِنَّما أَمْرُهُ شأنه في الإيجاد. إذا أَرادَ شَيْئاً خلق شي ء. أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ أي فهو يكون ، أي يحدث ، وهو تمثيل لتأثير قدرته في مراده من غير تأخر وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة ، قطعا للشبهة في قياس قدرة اللّه تعالى على قدرة الخلق ، فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ .. أي تنزيه عما ضربوا له من المثل ، وتعجيب مما قالوا فيه ، مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ الملك التام والقدرة ، كالرحموت والرهبوت والجبروت ، زيدت الواو والتاء للمبالغة وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ تردون في الآخرة.

سبب النزول :

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : جاء العاص بن وائل إلى رسول اللّه ص بعظم حائل ، ففتّه ، فقال : يا محمد : أيبعث هذا بعد ما أرمّ ؟

قال : نعم ، يبعث اللّه هذا ، ثم يميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت الآيات : أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ إلى آخر السورة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة والسّدّي نحوه ، وسمّوا الإنسان أبي بن خلف. وهذا هو الأصح كما قال أبو حيان ، لما رواه ابن وهب عن مالك.

وبناء عليه ،
قال المفسّرون : إن أبي بن خلف الجمحي جاء إلى
ج ٢٣ ، ص : ٥٥

رسول اللّه ص بعظم حائل ، ففتته بين يديه ، وقال : يا محمد ، يبعث اللّه هذا بعد ما أرمّ ؟ فقال : نعم ، يبعث اللّه هذا ، ويميتك ، ثم يحييك ، ثم يدخلك نار جهنم ، فنزلت هذه الآيات.
وعلى أي حال ، يقول علماء أصول الفقه : إن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ، كما في قوله تعالى : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها [المجادلة ٥٨/ ١] نزلت في امرأة واحدة ، وأراد الكل في الحكم ، فكذلك كل إنسان ينكر اللّه أو الحشر ، فهذه الآية ردّ عليه ، فتكون الآية عامة.
المناسبة :
بعد بيان الأدلة الدّالة على قدرة اللّه عزّ وجلّ ، ووجوب طاعته وعبادته ، وبطلان الشرك به ، ذكر تعالى شبهة منكري البعث ، وأجاب عنها بأجوبة ثلاثة : هي أن الإعادة مثل البدء بل أهون ، وقدرة اللّه على إيجاد النار من الشجر الأخضر ، وخلق ما هو أعظم من الإنسان ، وهو خلق السموات والأرض ، وفي النهاية : فورية تكوين الأشياء بقول : كُنْ فَيَكُونُ.
التفسير والبيان :
أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ألم يعلم كل إنسان أننا بدأنا خلقه من نطفة (مني) من ماء مهين ، هي أضعف الأشياء ، ثم جعلناه بشرا سويّا ، ثم تراه يفاجئنا بأنه ناطق مجادل بيّن جريء في جدله ، فقوله خَصِيمٌ ناطق ، ومُبِينٌ إشارة إلى قوة عقله.
والمراد : أو لم يستدلّ من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن اللّه ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شيء ضعيف حقير ، كما قال تعالى : أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ، فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ ، إِلى قَدَرٍ
ج ٢٣ ، ص : ٥٦
مَعْلُومٍ
[المرسلات ٧٧/ ٢٠- ٢٢] ، وقال سبحانه : إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ [الإنسان ٧٦/ ٢] أي من نطفة من أخلاط متفرقة.

فشأن هذا المخلوق أن يشكر النعمة ، لا أن يطغى ويتجبر ، وينكر البعث والإعادة.

وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ أي وذكر أمرا عجيبا كالمثل في الغرابة على استبعاد إعادة اللّه ذي القدرة العظيمة للأجساد والعظام الرميمة ، ونسي نفسه ، وأن اللّه تعالى خلقه من العدم إلى الوجود ، فأنكر أن اللّه يحيي العظام البالية ، قائسا قدرة اللّه على قدرة العبد ، حيث لم يكن ذلك في مقدور البشر.

فأجابه اللّه تعالى بقوله :

قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ أي قل أيها الرسول لهذا المشرك المنكر البعث : يحيي اللّه تلك العظام البالية الذي أبدع خلقها وأوجدها في المرة الأولى من غير شيء من العدم ولم يكن شيئا مذكورا ، وهو لا تخفى عليه خافية من الأشياء ، سواء أكانت مجموعة أم مجزأة مشتتة في أنحاء الأرض ، ولا يخرج عن علمه أي شيء كائنا ما كان ، ولو في أعماق الأرض أو البحر أو أجواف الإنسان أو الحيوان أو اختلط بالتراب والنبات. وقد قال العلماء : إن الذرّة لا تفنى ، وتقرر نظرية (لافوازيه) المعروفة : أنه لا يوجد شيء من العدم ، والموجود لا ينعدم.

ودليل ثان هو :

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً ، فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أي وهو الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء ، حتى صار خضرا نضرا ذا ثمر يانع ، ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار ، ومن قدر على ذلك ، فهو قادر على

ج ٢٣ ، ص : ٥٧

ما يريد ، لا يمنعه شيء ، فهذا التحوّل والتقلّب من عنصر الرطوبة إلى عنصر الحرارة ، يدل على إمكان إعادة الرطوبة إلى ما كان يابسا باليا. والمشاهد أن شجر السّنط يوقد به النار وهو أخضر.

(٢٣/٥٤)

و قيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار ، وليس معه زناد ، فيأخذ عودين أخضرين منهما ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد تماما. ومثل ذلك احتكاك السّحب المولّد لشرارة البرق.

ودليل ثالث أعجب مما سبق :

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ أي إن من خلق السّموات السّبع بما فيها من الكواكب السّيارة والثّوابت ، والأرضين السّبع بما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار ، وهي أعظم من خلق الإنسان ، إن من خلق ذلك قادر على خلق مثل البشر

وإعادة الأجسام ، وهي أصغر وأضعف من السّموات والأرض ، بلى هو قادر على ذلك ، وهو الكثير الخلق ، الواسع العلم ، فقوله الْخَلَّاقُ إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله الْعَلِيمُ إشارة إلى شمول العلم.

والخلاصة : أن خلق الأشياء العظيمة برهان قاطع على خلق ما دونها ، كما قال تعالى : لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ [غافر ٤٠/ ٥٧] ، وقال سبحانه : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى ؟ بَلى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الأحقاف ٤٦/ ٣٣].

وتأكيدا للبيان ونتيجة لما سبق ، قال تعالى :

ج ٢٣ ، ص : ٥٨

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ أي إنما شأنه سبحانه في إيجاد الأشياء وإرادتها أن يقول للشي ء : كُنْ فإذا هو كائن فورا ، من غير توقّف على شيء آخر أصلا.

ومقتضى ثبوت القدرة التامة للّه تعالى : تنزيهه عما وصفوه به ، فقال :

فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أي تنزّه اللّه عما لا يليق به من السوء أو النقص ، فهو الذي له ملكية الأشياء كلها ، وله القدرة الكاملة على التّصرف فيها كما يريد ، وبيده مفاتح كلّ شيء ، وإليه لا إلى غيره مرجع العباد بعد البعث في الدار الآخرة ، فيجازي كل إنسان بما عمل ، فليعبده الناس جميعا وليوحّدوه ويطيعوه ، تحقيقا لمصلحتهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- عجبا لأمر الإنسان ، سواء العاص بن وائل السّهمي ، أو أبيّ بن خلف الجمحي (و هو الأصح) أو أمية بن خلف أو غيرهم ، كيف خلقه اللّه من يسير الماء ، وأضعف الأشياء ، ثم يصبح مخاصما ربّه ، مجادلا في الخصومة ، مبيّنا للحجة ، أي أنه صار بعد أن لم يكن شيئا مذكورا خصيما مبينا. قال أبو حيان :

قبّح تعالى إنكار الكفرة البعث حيث قرر أن عنصره الذي خلق منه هو نطفة ماء مهين خارج من مخرج النجاسة ، أفضى به مهانة أصله أن يخاصم الباري تعالى ، ويقول : من يحيي الميت بعد ما رمّ مع علمه أنه منشأ من موات.

٢- لقد نسي هذا الإنسان الضعيف المخلوق أن اللّه أنشأه من نطفة ، ثم جعله إنسانا حيّا سويا ، فهذا دليل حاضر من نفسه على إمكان البعث ، وقد احتج اللّه عزّ وجلّ على منكري البعث بالنشأة الأولى ،

فكيف يقول الإنسان : من يحيي هذه العظام البالية ؟ !

ج ٢٣ ، ص : ٥٩

و الجواب : أنّ النّشأة الثانية مثل النّشأة الأولى ، فمن قدر على النّشأة الأولى قدر على النّشأة الثانية ، وأن اللّه عالم بكلّ الأشياء ، سواء الأجسام العظام أو الذّرات الصغار.

٣- في قوله تعالى : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ دليل على أن في العظام حياة ، وأنها تنجس بالموت ، وهو قول أبي حنيفة ، وقال الشافعي :

لا حياة فيها.

(٥٦/٢٣)

٤- من أدلة وحدانيته تعالى وكمال قدرته على إحياء الموتى : ما يشاهده الناس من إخراج المحروق اليابس من العود الندي الطري ، فإن الشجر الأخضر من الماء ، والماء بارد رطب ضدّ النار ، وهما لا يجتمعان ، فأخرج اللّه منه النار ، فيدلّ ذلك على أنه تعالى هو القادر على إخراج الضدّ من الضدّ ، وهو على كلّ شيء قدير.

٥- إنّ الذي خلق السموات والأرض التي هي أعظم من خلق الناس قادر على أن يبعثهم مرة أخرى.

٦- إذا أراد اللّه خلق شيء لا يحتاج إلى تعب ومعالجة ، وإنما أمره نافذ فورا ، ولا يتوقف على شيء آخر.

٧- إن اللّه تعالى نزّه نفسه عن العجز والشرك ، لتعليم الناس ، وإبراز الحقيقة ، فبيده مفاتح كلّ شيء ، ومردّ الناس ومصيرهم بعد مماتهم إليه تعالى ، ليحاسب كلّ امرئ على ما قدم في دنياه من خير أو شرّ.

ج ٢٣ ، ص : ٦٠

بسم اللّه الرحمن الرحيم

سورة الصافات

مكيّة ، وهي مائة واثنتان وثمانون آية.

تسميتها :

سميت سورة الصافات لافتتاحها بالقسم الإلهي بالصّافات وهم الملائكة الأطهار الذين يصطفّون في السماء كصفوف الناس في الصلاة في الدنيا.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من نواح ثلاث :

١- وجود الشبه بين أول هذه السورة وآخر يس السورة المتقدمة في بيان قدرته تعالى الشاملة لكل شيء في السموات والأرض ، ومنه المعاد وإحياء الموتى ، لأن اللّه تعالى كما في يس هو المنشئ السريع الإنجاز للأشياء ، ولأنه كما في مطلع هذه السورة واحد لا شريك له ، لأن سرعة الإنجاز لا تتهيأ إلا إذا كان الخالق الموجد واحدا.

(٢٣/٥٧)

٢- هذه السورة بعد يس كالأعراف بعد الأنعام ، وكالشعراء بعد الفرقان في تفصيل أحوال القرون الماضية ، المشار إليهم وإلى إهلاكهم في سورة يس المتقدمة في قوله سبحانه : أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ [٣١].

ج ٢٣ ، ص : ٦١

٣- توضح هذه السورة ما أجمل في السورة السابقة من أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين في الدنيا والآخرة.

مشتملاتها :

موضوع هذه السورة كسائر السّور المكية في بيان أصول الاعتقاد : وهي التوحيد ، والوحي والنبوة ، وإثبات البعث والجزاء.

وقد تحدثت عن مغيبات ثلاثة : هي الملائكة ، والجنّ ، والبعث والجزاء في الآخرة ، فابتدأت بالكلام عن الملائكة الصّافات قوائمها أو أجنحتها في السماء استعدادا لتنفيذ أمر اللّه ، والزّاجرات السّحاب لتصريفه كيفما يشاء اللّه ، والذين أقسم اللّه بهم للدلالة على التوحيد وخلق السموات والأرض ، وتزيينها بالكواكب.

ثم أشارت إلى الجنّ ومطاردتهم بالشّهب الثاقبة المرصودة لهذا الغرض ، للرّدّ على المشركين الجاهليين الذين زعموا وجود نسب وقرابة بين اللّه تعالى وبين الجنّ ، وأبانت موقف المشركين من البعث وإنكاره وأحوالهم في الدنيا والآخرة ، وردت عليهم ردّا قاطعا حاسما بأنهم محشورون في زجرة صيحة واحدة وهم داخرون أذلة صاغرون وأنهم لا يفتنون إلا ذوي العقول الضعيفة ، وتوبيخهم على قولهم : الملائكة بنات اللّه ، وتنزيه اللّه عن ذلك.

وأبانت هذه السورة أيضا سوء أحوال الكافرين في القيامة ، وذكرتهم بالحوار الذي دار بينهم وبين المؤمنين في الدنيا ، ثم حسمت الأمر ببيان مآل كل من الفريقين ، حيث يخلد المؤمنون في الجنة التي وصف نعيمها ، ويخلد الكافرون في النار التي وصف جحيمها ، للعبرة والعظة وبيان العاقبة.

(٢٣/٥٨)

و ناسب هذا الاستعراض التذكير الموجز بقصص بعض الأنبياء السابقين ،

ج ٢٣ ، ص : ٦٢

و هم نوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وموسى ، وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس عليهم السلام. ولكنها فصّلت قصة إبراهيم في موقفين حاسمين : أولهما- تحطيمه الأوثان. وثانيهما- إقدامه على ذبح ابنه ، ليتجلى للناس جميعا مدى (الإيمان والابتلاء والتضحية) فإنه بادر لتنفيذ أمر ربّه ، ممتحنا صبره ، مجتازا بالإيمان والصدق محنة الابتلاء ، مضحيّا في سبيل رضوان اللّه بابنه الذي رزقه ، فأكرمه اللّه بالفداء الذي جعل سنّة في الأضحية.

كذلك فصلت السورة قصة يونس عليه السلام العجيبة ، وإنقاذه من بطن الحوت ، لتوبته وكونه من الذاكرين اللّه ، المصلّين له.

وختمت السورة بالإشارة إلى ما بدئت به من وصف الملائكة بأنهم الصّافون المسبّحون ، وبيان نصرة اللّه لأنبيائه وأوليائه في الدنيا والآخرة ، ومدح المرسلين وسلام اللّه عليهم ، وتنزيه اللّه عن أوصاف المشركين ، وثناؤه على نفسه وحمده لذاته بأنه رب العزة ورب العالمين.

فضل هذه السّورة :

أخرج النّسائي عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما قال : « كان رسول اللّه ص يأمرنا بالتّخفيف ، ويؤمّنا بالصّافات » .

إعلان وحدانية اللّه [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِالرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (٢) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (٣) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (٤) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ (٥)

ج ٢٣ ، ص : ٦٣

البلاغة :

إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ التأكيد بإن واللام بسبب إنكار المخاطبين للوحدانية.

المفردات اللغوية :

وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا أقسم اللّه بالملائكة التي تصف في السماء للعبادة كصفوف الناس في الصلاة في الدنيا ، انتظارا لتنفيذ أمر اللّه ، ويكون ترتيبهم في الصفوف بحسب مراتبهم في التقدّم والفضيلة.

فَالزَّاجِراتِ زَجْراً الملائكة التي تزجر السحاب أي تسوقه. وأصل الزّجر : الدّفع بقوة الصوت ، يقال : زجرت الإبل والغنم : أي أفزعتها بالصوت والصياح ، ثم استعمل في السوق والحثّ على الشي ء.

فَالتَّالِياتِ ذِكْراً

الملائكة التي تتلو القرآن وتقرؤه. إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ هذا جواب القسم بالملائكة على أن اللّه واحد لا شريك له ، وهو خطاب للمشركين الذين أنكروا التوحيد.

رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ ربّ ذلك كله : أي خالقه ومالكه ، والْمَشارِقِ : مشارق الشمس ، أي وربّ المغارب أيضا ، فللشمس كلّ يوم مشرق ومغرب.

والمعنى : أن وجود هذه المخلوقات على هذا النحو البديع من أوضح الأدلّة على وجود اللّه وقدرته.

التفسير والبيان :

أقسم اللّه تعالى بالملائكة الصّافّات صفوفا للعبادة أو الصّافّات أجنحتها في السماء ، انتظارا لأمر اللّه تعالى ، والذين هم يقومون بوظائف متعددة ، منها : أنهم يسوقون السّحب إلى مكان معين بالتدبير المأمور به فيها ، أو أنهم يزجرون الناس ويردعونهم عن المعاصي بإلهام الخير ، ويزجرون الشياطين عن الوسوسة والإغواء.

ومنها : أنهم يتلون آيات اللّه على أنبيائه ، أو على أوليائه. لقد أقسم اللّه بأن معبودكم أيها المخاطبون الذي يجب إخلاص العبادة له ، هو واحد لا شريك له ، وهو خالق السموات والأرض وما بينهما من العوالم والمخلوقات ، ومالك ذلك كله ، وهو ربّ مشارق الشمس ومغاربها ، فأعلنوا في نفوسكم توحيد اللّه ، وأخلصوا له العبادة ، وأفردوه بالطاعة ، فوجود هذه المخلوقات من أوضح الدلائل على وجود الصانع وقدرته ووحدانيته.

(٢٣/٦٠)

ج ٢٣ ، ص : ٦٤

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١- أقسم اللّه تعالى بالملائكة ، وللّه أن يقسم على ما يشاء ، في أي وقت يشاء.

٢- ذكرت الآيات صفات ثلاثا للملائكة ، وهي : أولا- وقوف الملائكة صفوفا إما لأداء العبادات كما أخبر تعالى عنهم : وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ [الصّافّات ٣٧/ ١٦٥] ، وإما أنها تصف أجنحتها في الهواء منتظرين وصول أمر اللّه إليهم ، وثانيا- زجر السحاب ، أي سوقه وتحريكه والإتيان به من موضع إلى

موضع ، أو زجر الناس عن المعاصي بالإلهام والتأثير في القلوب ، أو زجر الشياطين عن التّعرض لبني آدم بالشّر والإيذاء. وثالثا– قراءة كتاب اللّه تعالى في الصلاة ، وعلى الأنبياء ، والأولياء للتذكير بها وغرس الشرائع في النفوس ، والصفة الثالثة مذكورة في آية أخرى هي : فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً ، عُذْراً أَوْ نُذْراً [المرسلات ٧٧/ ٥– ٦].

هذا .. وقد ورد في السّنة النّبوية حديثان صحيحان عن كيفية صفوف الملائكة :

الأول–

ما أخرجه مسلم عن حذيفة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ص : « فضّلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا ، وجعل لنا ترابها طهورا إذا لم نجد الماء » .

والثاني–

ما أخرجه مسلم أيضا والنسائي وابن ماجه عن جابر بن سمرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ص : « ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند

ربّهم ؟ قلنا : وكيف تصفّ الملائكة عند ربّهم ؟ قال ص : يتمّون الصّفوف المتقدّمة ، ويتراصّون في الصّف » .

٣– كان جواب هذا القسم العظيم أن اللّه واحد لا شريك له ، ولا ثاني له ، فهو قسم مشفوع بالبرهان الذي يثبت وحدانية اللّه تعالى.

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنه واحد

٤– الدّليل على وجود اللّه الصانع ووحدانيته وقدرته كونه الخالق المالك للسموات والأرض وما بينهما من المخلوقات ، ولمشارق الشمس ومغاربها ، فللشمس كل يوم مشرق ومغرب بعدد أيام السّنة ، تطلع كل يوم من واحد منها ، وتغرب في واحد ، ولها في كل عام مشرقان : أقصى مشرق في الشمال ، وأقصى مشرق في الجنوب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب ، لدلالتها عليه ، وقد صرح بها في قوله عزّ وجلّ : فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ ، إِنَّا لَقادِرُونَ [المعارج ٧٠/ ٤٠] ، وفي آية أخرى : رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ [الرحمن ٥٥/ ١٧] ، يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر ، فالآية الأولى لبيان مشرق الشمس الخاص كل يوم ، والآية الثانية تبين أن لها في كل عام مشرقين.

تزيين السماء بالكواكب [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٦ الى ١٠]

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (١٠)

ج ٢٣ ، ص : ٦٦

الإعراب :

بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ الْكَواكِبِ : بدل من بِزِينَةٍ ، وقرئ بنصب الكواكب : إما بأن أعمل الزينة في الكواكب ، أي زيّنّا الكواكب ، مثل أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً أن أن أطعم يتيما ، وإما بنصبه على البدل من موضع بِزِينَةٍ وهو النصب ، وإما بنصبه ب (أعني). وقرئ بترك تنوين بِزِينَةٍ وجرّ الْكَواكِبِ على وجهين : الجر على الإضافة ، أو بدل من بِزِينَةٍ وحذف تنوين بِزِينَةٍ لالتقاء الساكنين. والإضافة للبيان ، أي المبينة ب الْكَواكِبِ.

وَحِفْظاً منصوب بفعل مقدر ، أي حفظناها بالشّهب.

(٢٣/٦٢)

لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى أتى ب إِلَى وإن كان يَسَّمَّعُونَ لا يفتقر إلى حرف جرّ ، إما بحمل يَسَّمَّعُونَ على (يصغون) ، وإما بحذف المفعول ، وتقديره : لا يسّمّعون القول ، مائلين إلى الملأ الأعلى.

دُحُوراً منصوب على المصدر ، تقديره : يدحرون دحورا.

البلاغة :

كُلِّ جانِبٍ عَذابٌ واصِبٌ شِهابٌ ثاقِبٌ وكذلك في الآية بعدها طِينٍ لازِبٍ فيها ما يسمى بمراعاة الفواصل أحد المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية :

السَّماءَ الدُّنْيا هي أقرب السموات لأهل الأرض ، أي القربى منكم ، وهي مؤنث الأدنى.

الْكَواكِبِ هي النجوم والأجرام السماوية ، وتزيين السماء إما بها أو بضوئها. مارِدٍ عات خارج عن الطاعة ، وحفظ السماء من الشياطين برميها بالشهب. لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى كلام مستأنف مبتدأ لبيان حالهم بعد ما حفظ اللّه السماء منهم ، ولا يجوز جعله صفة لكل شيطان ، فإنه يقتضي أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون. ويَسَّمَّعُونَ أي يتسمّعون. والْمَلَإِ الجماعة المجتمعون على رأي ، والمراد بهم هنا الملائكة في السماء. والْمَلَإِ الْأَعْلى أهل السماء الدنيا فما فوقها. وَيُقْذَفُونَ يرجمون بالشهب ، وهم الشياطين. مِنْ كُلِّ جانِبٍ من آفاق السماء.

دُحُوراً طردا وإبعادا. وَلَهُمْ في الآخرة. عَذابٌ واصِبٌ دائم أو شديد.

الْخَطْفَةَ مصدر للمرة الواحدة ، وهي الاختلاس والأخذ بسرعة على غرّة. والاستثناء في قوله : إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ من ضمير يَسَّمَّعُونَ أي لا يسمع إلا الشيطان الذي سمع الكلمة من

ج ٢٣ ، ص : ٦٧

الملائكة ، فأخذها بسرعة. فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ شعلة ساطعة من النار ، وهي ما يرى كأن كوكبا انقض. ثاقِبٌ مضيء فيحرقه ، أو يثقب ما ينزل عليه.

المناسبة :

(٢٣/٦٣)

هذه الآيات تتضمن دليلا آخر على وجود اللّه تعالى وقدرته ، ذكر بعد الدليل الأول وهو خلق السموات والأرض ، وتبين أنه تعالى زيّن السماء الدنيا القريبة من البشر لمنفعتين ، هما : تحصيل الزينة ، والحفظ من الشيطان المارد.

وبالرغم من أن هذه الثوابت مركوزة- كما قال الرازي- في الكرة الثامنة ، ما عدا القمر في السادسة ، فإن التعبير جاء على وفق الرؤية والنظر حسب الظاهر ، فأهل الأرض إذا نظروا إلى السّماء ، يرونها ويشاهدونها مزينة بهذه الكواكب ، كجواهر مشرقة متلألئة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة.

التفسير والبيان :

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ جمّل اللّه سبحانه السماء الدنيا التي هي أقرب السموات إلى الأرض بزينة جميلة فائقة الجمال هي الكواكب ، فإنها في أعين الناظرين لها كالجواهر المتلألئة.

وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ أي وحفظناها حفظا من كلّ شيطان عات متمرد عن الطاعة ، إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ، لذا قال تعالى :

لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى أي لا تقدر الشياطين أن يتسمّعوا لحديث الملأ الأعلى وهم الملائكة أهل السماء الدنيا فما فوقها ، لأنهم يرمون بالشهب ، وذلك إذا تكلموا بما يوحيه اللّه تعالى من شرعه وقدره.

ج ٢٣ ، ص : ٦٨

و هاتان الخاصتان أو المنفعتان للسّموات ، جاءت آيات كثيرة تقررهما مثل قوله تعالى : وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ ، وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ ، وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ [الملك ٦٧/ ٥] ، وقوله عزّ وجلّ : وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ ، وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ ، إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ، فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ [الحجر ١٥/ ١٦- ١٨].

(٢٣/٦٤)

وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ أي يرمون بالشّهب من كلّ جهة يقصدون السماء منها ، إذا أرادوا الصعود لاستراق السمع.

دُحُوراً ، وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ أي يدحرون دحورا ، ويطردون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ، ولهم في الآخرة عذاب دائم مستمر موجع ، كما قال تعالى في الآية المتقدمة : وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ.

إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ، فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة ، وهي الكلمة ، يسمعها من السماء ، فيلقيها إلى الذي تحته ، ويلقيها الآخر إلى من تحته ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها بقدر اللّه تعالى قبل أن يأتيه الشهاب ، فيحرقه ، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن ، كما جاء في الحديث.

فخاطف الكلمة العارضة يتبعه اللّه بنجم مضيء ، أو بشعلة مستنيرة ، فتحرقه ، وربما لا تحرقه ، فيلقي إلى إخوانه الكهان ما خطفه. والخطف : أخذ الشيء بسرعة. والثاقب : المضي ء.

والملحوظ الثابت أن الشياطين قبل بعثة نبينا محمد ص كانت ترمى أحيانا ، وأحيانا لا ترمى ، وبعد البعثة تعرضوا للرمي من كل جانب ، وزيد في حفظ السماء ، فلم يتمكنوا من استراق السمع ، إلا بأن يختطف أحدهم كلمة ، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض ، فيلقيها إلى إخوانه ، وبهذا بطلت

الكهانة ، وثبتت النبوة والرسالة « ١ » ، وأصبح المقرر شرعا منعهم من التنصّت ، كما قال تعالى : إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ [الشعراء ٢٦/ ٢١٢] ، وقال سبحانه واصفا المرحلتين : وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ ، فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً [الجنّ ٧٢/ ٨- ٩].

قال الرازي : دلت التواريخ المتواترة على أن حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجيء النبي ص ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ص بزمان طويل ، ذكروا ذلك ، وتكلموا في سبب حدوثه ، وإذا ثبت أن ذلك كان موجودا قبل مجيء النبي ص ، امتنع حمله على مجيء النبي ص ، والأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ص ، لكنها كثرت في زمان النبي ص ، فصارت بسبب الكثرة معجزة « ٢ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- إن تزيين السماء الدنيا بالكواكب لمنفعتين ، هما : تحصيل الزينة ، والحفظ من الشيطان المارد.
٢- وصف تعالى أولئك الشياطين بصفات ثلاث : هي أنهم لا يسّمعون إلى الملأ الأعلى وهم الملائكة ، وأنهم يقذفون من كل جانب دحورا ، أي طردا وإبعادا ، ولهم عذاب واصب ، أي دائم مستمر موجع.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٥/ ٦٦
(٢) تفسير الرازي : ٢٦/ ١٢١

و سميت الملائكة بالملإ الأعلى ، لأنهم يسكنون السموات ، وأما الإنس والجنّ فهم الملأ الأسفل ، لأنهم سكان الأرض.
واختلف العلماء على قولين : هل كان هذا القذف قبل المبعث ، أو بعده لأجل المبعث ؟ وقد جاءت الأحاديث عن ابن عباس بذلك ، وستذكر في سورة « الجن » . ويجمع بينها كما تقدم بأنها كانت ترمى وقتا ، ولا ترمى وقتا ، وترمى من جانب ولا ترمى من جانب ، فصاروا يرمون دائما واصبا من كل جانب.
٣- قوله تعالى : إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ استثناء من قوله :
وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ أي لا يسمع الشياطين شيئا مما يوحيه اللّه تعالى مما يقوله من شرعه وقدره إلا الشيطان الذي خطف الخطفة ، أي اختلس الكلمة على وجه المسارقة.

و مضمون الأحاديث الصحاح في هذا : أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء ، لاستراق السمع ، فيقضي اللّه أمرا من أمور الأرض ، فيتحدث به أهل السماء ، فيسمعه منهم الشيطان الأدنى ، فيلقيه إلى الذي تحته ، فربما أحرقه شهاب ، وقد ألقى الكلام ، وربما لم يحرقه ، كما بيّنا ، فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان ، فيكذبون معها مائة كذبة ، وتصدق تلك الكلمة ، فيصدّق الجاهلون جميع الكلام ، فلما جاء اللّه بالإسلام ، حرست السماء بشدة ، فلا يفلت شيطان سمع شيئا. والكواكب الراجمة : هي التي يراها الناس تنقضّ. وليست بالكواكب الجارية في السماء ، لأن هذه لا ترى حركتها ، والراجمة ترى حركتها ، لأنها قريبة منا.

إثبات المعاد- الحشر والنشر والقيامة [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١ الى ٢١]
فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢)

وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١(٣) وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١(٤) وَقالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَ إِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (١٨) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)

الإعراب :

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ تاء عَجِبْتَ بالفتح : تاء المخاطب. وقرئ بالضم : إما إخبارا عن اللّه من إنكار الكفار البعث ، مع بيان القدرة على الابتداء ، حتى بلغ هذا الإنكار منزلة يقال فيه : عجبت ، وإما بتقدير : قل عجبت ، وحذف القول في كلام العرب كثير.

(٦٧/٢٣)

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ قال الزمخشري : فَإِنَّما جواب شرط مقدر ، وتقديره : إذا كان ذلك ، فما هي إلا زجرة واحدة.

البلاغة :

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ طباق بين التعجب والسخرية.

المفردات اللغوية :

فَاسْتَفْتِهِمْ فاستخبر مشركي مكة المنكرين للبعث أو بني آدم ، إما على سبيل التقرير أو التوبيخ. أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا أهم أقوى أجساما وأعظم أعضاء وأشق إيجادا ، أم من خلقنا من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما ، والمشارق ، والكواكب ، والشهب الثواقب ؟

والإتيان بمن هنا : لتغليب العقلاء. إِنَّا خَلَقْناهُمْ أي خلقنا أصلهم آدم. مِنْ طِينٍ لازِبٍ أي لزج يلصق باليد. والمعنى : كيف يستبعدون المعاد ، وهم مخلوقون من هذا الخلق الضعيف ؟

ج ٢٣ ، ص : ٧٢

و إن خلقهم ضعيف ، فلا يتكبروا بإنكار النبي والقرآن المؤدي إلى هلاكهم اليسير.

بل للانتقال من غرض إلى آخر ، وهو الإخبار بحال النبي ص وبحالهم عَجِبْتَ يا محمد من تكذيبهم إياك ، ومن إنكارهم قدرة اللّه تعالى وإنكار البعث. وَيَسْخَرُونَ أي وهم يستهزئون من تعجبك ومما تقوله من إثبات البعث.

وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ أي وإذا وعظوا بالقرآن لا يتعظون.

وَإِذا رَأَوْا آيَةً معجزة دالة على الصدق من معجزات الرسول ص ، كانشقاق القمر.

يَسْتَسْخِرُونَ يبالغون في السخرية والاستهزاء. وَقالُوا : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أي وقالوا : ما هذا الذي تأتينا به وهو القرآن إلا سحر ظاهر واضح.

(٦٨/٢٣)

أَ إِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أي أنبعث إذا متنا ، وكرروا الهمزة مبالغة في الإنكار ، وإشعارا بأن البعث في رأيهم مستنكر في نفسه ، وفي هذه الحالة أشد استنكارا. أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ الهمزة للاستفهام ، وهو عطف بالواو على محل إن واسمها : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أو عطف على ضمير : لَمَبْعُوثُونَ والفاصل همزة الاستفهام ، أي أو آباؤنا الأولون مبعوثون ؟ .

قُلْ : نَعَمْ تبعثون. وَأَنْتُمْ داخِرُونَ صاغرون ذليلون. فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ أي صيحة واحدة ، وهو جواب شرط مقدر ، أي إذا كان ذلك ، فإنما البعث زجرة ، أي صيحة واحدة هي النفخة الثانية ، يقال : زجر الراعي غنمه ، أي صاح عليها وأمرها بالإعادة. فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ أي فإذا الخلائق قيام من مراقدهم أحياء ، ينظرون ما يفعل بهم. وَقالُوا الكفار.

يا وَيْلَنا هلاكنا ، وهو مصدر لا فعل له من لفظه ، ويقال وقت الهلاك. الدِّينِ الحساب والجزاء. هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الحكم والقضاء بين الخلائق وتمييز المحسن من المسي ء. وهو من قول الملائكة.

المناسبة :

افتتح اللّه تعالى هذه السورة بإثبات وجود الخالق وقدرته ووحدانيته بدليل واضح وهو خلق السموات والأرض وما بينهما ، وخلق المشارق والمغارب ، وأعقب ذلك بإثبات المعاد وهو الحشر والنشر والقيامة.

ومن المعلوم أن المقصد الأصلي للقرآن الكريم هو إثبات الأصول الأربعة :

وهي الإلهيات ، والمعاد ، والنبوة ، وإثبات القضاء والقدر.

ج ٢٣ ، ص : ٧٣

التفسير والبيان :

(٦٩/٢٣)

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا ؟ أي سل أيها الرسول هؤلاء المنكرين للبعث : أيهم أشد خلقا ، أي أصعب إيجادا ، هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة ؟ والآية نزلت في الأشد بن كلدة وأمثاله ، سمي بالأشد لشدة بطشه وقوته.

والسؤال للتوبيخ والتقريع ، فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقا منهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم ينكرون البعث ؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا ، كما قال اللّه عز وجل : لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [غافر ٤٠/ ٥٧] وقال سبحانه : أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ [يس ٣٦/ ٨١].

ثم أوضح اللّه تعالى مدى هذا التفاوت ، فقال :

إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ أي إنا خلقنا أصلهم وهو آدم من طين لزج يلتصق باليد. فإذا كانوا مخلوقين من هذا الشيء الضعيف ، فكيف يستبعدون المعاد ؟ وهو إعادة الخلق من التراب أيضا ، أو من الماء الذي خالط التراب إذا مات الإنسان في الماء ، ولم ينكر ذلك من هو أقوى منهم خلقا وأعظم وأكمل.

والمعنى : أن هذه الأجسام قابلة للحياة ، إذ لو لم تكن قابلة للحياة ، لما صارت حية في المرة الأولى ، والإله قادر على خلق هذه الحياة في هذه الأجسام.

ثم انتقل البيان القرآني من أسلوب لأسلوب ، فقال تعالى :

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ أي لا حاجة لاستفتائهم ، فهم قوم معاندون ، وأنت يا محمد تتعجب من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، لأنك موقن إيقانا تاما بصنع اللّه وقدرته ، وبما أخبر اللّه تعالى به من إعادة الأجسام بعد فنائها ،

ج ٢٣ ، ص : ٧٤

و هم على النقيض من ذلك يسخرون ويستهزئون مما تقول لهم من إثبات البعث ، ومما تريهم من الأدلة والآيات. أو عجبت من قدرة اللّه على هذه الخلائق العظيمة ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة اللّه ، أو عجبت من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث.

وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ أي وإذا وعظوا بموعظة من مواعظ اللّه ورسوله ، لا يتعظون ولا ينتفعون بها ، لاستكبارهم وعنادهم وقسوة قلوبهم.

وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ أي وإذا شاهدوا دليلا واضحا ، أو معجزة من معجزات الرسول ص التي ترشدهم إلى التصديق والإيمان ، يبالغون في السخرية والاستهزاء ، ويتنادون للتهكم والتضاحك ، ومشاركة الآخرين في السخرية.

وَقالُوا : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أي وقالوا : ما هذا الذي تأتينا به من الدلائل إلا سحر واضح ظاهر ، فلا يؤبه له ، ولا ننخدع به ، وهو من تراث الأقدمين المشعوذين.

ثم خصصوا إنكارهم بالبعث ، فقالوا :

أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً ، أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ أي إن من أعجب ما تقول : أنبعث أحياء بعد أن متنا ، وصرنا ترابا وعظاما نخرة ؟

أَ وَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ ؟ وهل يبعث أيضا آباؤنا وأجدادنا الأقدمون الغابرون الذين مضى على موتهم أحقاب طويلة الأمد ؟ فإن بعثهم أشد غرابة.

فأجابهم اللّه تعالى بقوله :

قُلْ : نَعَمْ ، وَأَنْتُمْ داخِرُونَ أي قل أيها الرسول لهم : نعم ، تبعثون أحياء مرة أخرى ، بعد صيرورتكم ترابا ، وأنتم في هذا الحشر والنشر صاغرون

ج ٢٣ ، ص : ٧٥

ذليلون حقيرون تحت القدرة العظيمة ، كما قال تعالى : وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ [النمل ٢٧/ ٨٧] وقال : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ [غافر ٤٠/ ٦٠].

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ أي إن الأمر سهل جدا في قدرة اللّه ، وليس البعث صعبا ولا عسيرا ، فإنما البعث صيحة واحدة من إسرافيل بالنفخ في الصور بأمر واحد من اللّه عز وجل يدعوهم للخروج من الأرض ، فإذا الناس قاطبة قيام من مراقدهم في الأرض ، أحياء بين يدي اللّه تعالى ، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

ثم حكى اللّه تعالى ملامتهم لأنفسهم إذا عاينوا أهوال القيامة بقوله :

وَقالُوا : يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ أي وقال منكر والبعث الذين كذبوا به في الدنيا : لنا الويل والهلاك ، فقد حلّ موعد الجزاء والعقاب على ما قدمنا من أعمال من الكفر باللّه والتكذيب للرسل. دعوا على أنفسهم بالويل والثبور والهلاك ، لأنهم يومئذ يعلمون ما حل بهم.

فأجابتهم الملائكة بقولهم :

هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ أي هذا يوم الحكم والقضاء المبرم بين الناس ، الذي يفصل فيه بين المحسن والمسيء ، ويبين المحق من المبطل ، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- استدل اللّه تعالى على إثبات المعاد من وجهين :

أحدهما- إنه تعالى قدر على ما هو أصعب وأشد وأشق من خلق الإنسان وهو

ج ٢٣ ، ص : ٧٦

خلق السموات والأرض والجبال والبحار ، فوجب أيضا أن يقدر على إعادة خلق الإنسان.

الثاني- إنه تعالى قدر على خلق الإنسان في المرة الأولى ، والفاعل وهو اللّه والقابل للخلق وهو الإنسان باقيان كما كانا ، فوجب أن تبقى القدرة عليه في الحال الثانية ، وهي البعث أو الحشر والنشر.

فدل ذلك على أن البعث والقيامة أمر جائز ممكن.

٢- كان خلق آدم عليه السلام من الطين ، وكذا خلق كل إنسان من الطين ، لأن تكوينه من الدم ، والدم يتولد من الغذاء ، والغذاء إما حيواني وإما نباتي ، وحياة الحيوان والنبات من تراب الأرض ، فمنه تنتج الثمار والحبوب والأعشاب وغيرها بعد سقيها بالماء.

٣- لقد تعجب الرسول ص من إنكار مشركي مكة وغيرهم للبعث ، لما استقر في قلبه من مشاهدة قدرة اللّه العظمى ، وعجيب صنعه ، ومبلغ إرادته ومشيئته.

٤- بعد تقرير اللّه تعالى الدليل القاطع في إثبات إمكان البعث والقيامة حكى اللّه تعالى أشياء عن المنكرين :

أولها- تعجب النبي ص من إصرارهم على الإنكار ، وهم يسخرون منه في إصراره على الإثبات ، كما تقدم ، مما يدل على أن أولئك الأقوام كانوا في غاية التباعد ، وفي طرفي النقيض.

ثانيها- أنهم إذا وعظوا بالقرآن وغيره من المسلّمات العقلية لا يتعظون ولا ينتفعون به.

ج ٢٣ ، ص : ٧٧

ثالثها- أنهم إذا رأوا معجزة يبالغون في السخرية ويدعون غيرهم إلى مشاركتهم في السخرية والاستهزاء.

رابعها- أن سبب سخريتهم من الآية والمعجزة اعتقادهم أنها من باب السحر.

٥- بعد إثبات إمكان البعث والقيامة بالدليل العقلي ، أقام اللّه تعالى الدليل السمعي القاطع على وقوع القيامة بقوله : نَعَمْ جوابا على إنكارهم البعث ، بعد الموت وصيرورتهم وأسلافهم ترابا وعظاما بالية.

٦- وبعد الإثبات بالدليلين العقلي والسمعي لجواز حدوث القيامة ووقوعها ذكر تعالى بعض أحوال القيامة وهي ثلاث حالات :

الحالة الأولى- أن القيامة ما هي إلا صيحة واحدة من إسرافيل بالنفخ في الصور ، بأمر اللّه لدعوة الناس للخروج من الأرض ، فيمتثلون فورا ، وإذا هم قيام من قبورهم أحياء ، ينظرون إلى أهوال القيامة ، وإلى بعضهم بعضا.

الحالة الثانية– من وقائع القيامة أن المكذبين بعد القيام من القبور يقولون : يا هلاكنا ، هذا هو الجزاء الذي نجازى فيه على أعمالنا من الكفر وتكذيب الرسل.

الحالة الثالثة– تجيبهم الملائكة : هذا يوم الفصل الحاسم ، يوم الحكم والقضاء ، الذي يفصل فيه بين المحسن والمسي ء.

ج ٢٣ ، ص : ٧٨

مسئولية المشركين في الآخرة وأسبابها [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٢٢ الى ٣٧]

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (٢(٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (٢(٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (٢(٤) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٢٧) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (٣١)

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (٣(٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣(٣) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣(٤) إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦)

بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)

الإعراب :

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ ما : استفهامية ، مبتدأ ، ولَكُمْ : خبره ، ولا تَناصَرُونَ : جملة في موضع نصب على الحال من الضمير المجرور في لَكُمْ مثل : مالك قائما.

يَسْتَكْبِرُونَ موضع الجملة إما منصوب على أنه خبر « كان » وجملتها في موضع رفع خبر إن ، وإما مرفوع على أنه خبر « إن » و « كان » ملغاة.

البلاغة :

فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ أسلوب تهكمي في الهداية ، لأنها تكون إلى طريق النعيم ، لا إلى صراط الجحيم.

عَنِ الْيَمِينِ استعارة لجهة الخير أو للقوة والشدة أو لجهة الدين.

ج ٢٣ ، ص : ٧٩

إذا قِيلَ لَهُمْ : لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ إيجاز بالحذف ، أي قولوا : لا إله إلا اللّه ، وحذف لدلالة السياق عليه.

المفردات اللغوية :

احْشُرُوا يقال للملائكة : اجمعوا ، من الحشر : وهو الجمع. الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم بالشرك فهم المشركون ، وهو أمر من اللّه للملائكة بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف.

وَأَزْواجَهُمْ أمثالهم وأشباههم ، فيحشر عابد الصنم مع عبدة الصنم ، وعابد الكواكب مع عبدتها ، وأصحاب الخمر معا ، وأصحاب الزنى معا. وقيل : أزواجهم : قرناؤهم من الشياطين. وَما كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يحشر المعبودون من غير اللّه من الأصنام والأوثان وغيرها ، زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ، وهو عام مخصوص بقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ [الأنبياء ٢١/ ١٠١].

فَاهْدُوهُمْ دلوهم وعرفوهم طريقها ليسلكوه. إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ طريق النار.

وَقِفُوهُمْ احبسوهم في الموقف أو عند الصراط « ١ » إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ عن عقائدهم وأعمالهم.

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ لا ينصر بعضكم بعضا بالتخليص من العذاب كحالكم في الدنيا ، وهذا يقال لهم توبيخا وتقريعا. بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ منقادون خاضعون لعجزهم ، وأصل الاستسلام : طلب السلامة ، ويلزمه الانقياد عرفا. وهذا أيضا يقال لهم.

يَتَساءَلُونَ يتلاومون ويتخاصمون ، فيسأل بعضهم بعضا للتوبيخ. وقالُوا قال الأتباع للمتبوعين. عَنِ الْيَمِينِ عن أقوى الوجوه ، وعن جهة الخير التي نأمنكم منها ، لحلفكم أنكم على الحق ، فصدقناكم واتبعناكم. والمعنى : أنكم أضللتمونا. قالُوا قال المتبوعون لهم. بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أي إنكم كنتم في الأصل غير مؤمنين ، فلم يحدث منا الإضلال الذي يؤدي إلى الرجوع عن الإيمان إلينا. مِنْ سُلْطانٍ تسلط عليكم ، وقوة وقهر ، نقهركم على متابعتنا.

طاغِينَ مختارين الطغيان والضلال مثلنا ، ومتجاوزين الحد في العصيان.

فَحَقَّ عَلَيْنا وجب علينا جميعا. قَوْلُ رَبِّنا بالعذاب ، وهو : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. إِنَّا لَذائِقُونَ إنا جميعا لذائقون العذاب بذلك القول. فَأَغْوَيْناكُمْ دعوناكم إلى الغيّ والضلال. غاوِينَ ضالين. فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ هذا قول اللّه تعالى ، فإنهم يوم القيامة جميعا الأتباع والمتبوعون مشتركون في العذاب ، لاشتراكهم في الغواية.

---

(١) الواو لا توجب الترتيب ، فيصح أن يكون الحبس والإيقاف في الموقف ، ويجوز أن يكون عند

الصراط.

ج ٢٣ ، ص : ٨٠

إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ أي مثل ذلك الفعل نفعل بالمشركين غير هؤلاء ، أي نعذبهم ، سواء التابع منهم والمتبوع.

إِنَّهُمْ كانُوا .. أي إن هؤلاء. يَسْتَكْبِرُونَ عن كلمة التوحيد أو على من يدعوهم إليها. لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ يعنون محمدا ص. بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ رد من اللّه تعالى عليهم ، فإن هذا النبي ص جاء بالقرآن المشتمل على الوعد والوعيد ، وإثبات الآخرة. والمعنى : إن ما جاء به من التوحيد حق ثبت بالبرهان ، وتوافق عليه المرسلون.

المناسبة :

بعد إثبات وجود اللّه وعلمه وقدرته ووحدانيته ، وإثبات القيامة ، ذكر تعالى أحوال الكفار في الآخرة حيث يساقون إلى نار جهنم ، دون أن يجدوا لهم نصيرا وعونا يخلصهم من العذاب ، ثم يتلاومون فيما بينهم ، ويتخاصم الأتباع والمتبوعون ، ولكنهم جميعا متساوون في العذاب ، بسبب إعراضهم استكبارا عن كلمة التوحيد في الدنيا ، وافترائهم على الرسول ص بأنه لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ مع أنه جاء بالحق الثابت الذي لا محيد عنه وهو التوحيد الذي دعا إليه المرسلون جميعا.

التفسير والبيان :

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ ، مِنْ دُونِ اللَّهِ يأمر اللّه الملائكة بجمع أصناف ثلاثة في موقف الحساب : وهم الظالمون المشركون ، وأزواجهم أمثالهم وأشباههم ، ومعبودوهم الذين كانوا يعبدونهم من غير اللّه ، من الأوثان والأصنام معا ، زيادة لهم في الحسرة والتخجيل على شركهم ومعصيتهم.

والظلم هنا : الشرك ، لقوله تعالى : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان ٣١/ ١٣].

فهذا خطاب من اللّه للملائكة ، أو خطاب الملائكة بعضهم لبعض ، أي اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات وأنواعهم وضرباءهم.

ج ٢٣ ، ص : ٨١

يحشر المشركون وأشباههم في الشرك ومتابعوهم في الكفر ومشايعوهم في تكذيب الرسل وقرناؤهم من الشياطين ، يحشر كل كافر مع شيطانه. كذلك يحشر أصحاب المعاصي مع بعضهم ، فيجمع أهل الزنى معا ، وأهل الربا معا ، وأصحاب الخمر معا .. وهكذا.

فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ أي أرشدوا وعرّفوا هؤلاء المحشورين طريق جهنم ، زيادة في ازدرائهم والتهكم بهم.

وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ أي احبسوهم في الموقف للحساب والسؤال عن عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم التي صدرت منهم في الدنيا. و

في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن ابن مسعود : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » .

ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ أي يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ما بالكم لا ينصر بعضكم بعضا ، كما كنتم في الدنيا ؟ وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر ، فقيل لهم يوم القيامة : ما لكم غير متناصرين ؟ .

بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ أي بل إنهم اليوم منقادون لأمر اللّه ، لا يخالفونه ، ولا يحيدون عنه ، لعجزهم عن الحيلة ، فلا ينازعون في شيء أبدا.

وفي هذا الموقف في ساحات القيامة ، يتلاومون فيما بينهم ، ويتخاصم الأتباع والرؤساء ، فقال تعالى : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ أي أقدم الأتباع والرؤساء من هؤلاء الكفار ، يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ وتقريع ومخاصمة ، في موقف القيامة ، كما يتخاصمون في دركات النار ، كما في آية : فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ. قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُلٌّ فِيها ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ [إبراهيم ٤٠/ ٤٨- ٤٧].

ج ٢٣ ، ص : ٨٢

قالُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ أي قال الأتباع للرؤساء : إنكم كنتم تأتوننا من جهة الخير ، فتصدوننا عنه. وقيل : إن اليمين مجاز مستعار من القوة والقهر ، أي كنتم تأتوننا من ناحية القهر والقوة وبحكم السيطرة والرياسة لكم علينا في الدنيا ، حتى تحملونا على الضلال ، وتقسرونا عليه. وقيل : تأتوننا من جهة الدّين ، فتهونون علينا أمره وتنفرونا عنه ، كما هو الشأن اليوم في كثير من الرؤساء والرفاق.

و كلمة قالُوا جواب عن سؤال مقدر ، فهو استئناف بياني.

فأجاب الرؤساء بجوابين :

١- قالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أي بل إنكم أنتم أبيتم الإيمان ، وأعرضتم عنه ، مع تمكنكم منه ، مختارين الكفر ، فقلوبكم هي القابلة للكفر والعصيان ، وكنتم من الأصل على الكفر. وكلمة قالُوا أي المخاطبون وهم قادة الكفر أو الجن.

٢- وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ أي لم يكن لنا عليكم من حجة وتسلط نسلبكم به اختياركم وتمكنكم ، بل كان فيكم طغيان وتجاوز الحد في الكفر ، ومجاوزة للحق الذي جاءتكم به الأنبياء ، وكنتم مختارين الطغيان ، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الدين الحق ، وما كان منا إلا الدعوة ، وكانت منكم الإجابة اختيارا لا جبرا.

فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ أي وجب علينا وعليكم حكم ربنا ، ولزمنا قول ربنا ، وهو قوله : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ فلنذوقن ما وعدنا به ، ونحن ذائقو العذاب لا محالة يوم القيامة. قال أبو حيان :

والظاهر أن قوله : إِنَّا لَذائِقُونَ إخبار منهم أنهم ذائقون العذاب جميعهم الرؤساء والأتباع.

ج ٢٣ ، ص : ٨٣

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ أي إنا أضللناكم ، ودعوناكم إلى الضلالة ، وإلى ما نحن فيه من الغواية ، فاستجبتم لنا.

ثم بعد هذا النقاش والجدل بين الأتباع والرؤساء ، وصف اللّه تعالى العذاب الذي يحل بالفريقين ، فقال :

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ أي إن التابعين والمتبوعين أو الأتباع والقادة مشتركون حينئذ جميعا في العذاب لا محالة ، كما اشتركوا في الضلال والكفر ، والجميع في النار ، كل بحسبه.

واشتراكهم في العذاب عدل ككل المجرمين الكافرين ، لذا قال تعالى :

إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ أي مثل ذلك الجزاء نفعل بالمشركين ، ويجازى كل عامل بما قدم.

وسبب العذاب هو ما قاله تعالى :

إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ : لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ ، يَسْتَكْبِرُونَ أي إنهم كانوا إذا دعوا إلى كلمة التوحيد وهي لا إله إلا اللّه ، استكبروا عن القبول ، وأعرضوا عن قولها كما يقولها المؤمنون.

وَيَقُولُونَ : أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا لقول شاعر مجنون ،

يسرح في الخيال ، ويخلط في الأقوال ، يعنون رسول اللّه ص. وبهذا أنكروا في الكلام الأول الوحدانية ، وفي الثاني أنكروا الرسالة.

فرد اللّه عليهم تكذيبا لهم بقوله :

بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ أي إن النبي ص جاء بالحق في جميع ما شرعه اللّه له ، وأوله التوحيد ، وصدّق في ذلك الأنبياء المرسلين فيما جاؤوا به

ج ٢٣ ، ص : ٨٤

من التوحيد والوعد والوعيد وإثبات المعاد ، ولم يخالفهم في تلك الأصول ، ولا جاء بشيء يغاير ما أتوا به من قبله ، فكيف يصح وصفه بالشاعر أو المجنون ؟

قال تعالى : ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ [فصلت ٤١/ ٤٣] وقال سبحانه : مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ [فاطر ٣٥/ ٣١].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يلي :

١- يحشر الملائكة ويسوقون بأمر اللّه تعالى الكفار إلى موقف السؤال ، وهم ثلاثة أنواع : الظالمون ، وأزواجهم (أمثالهم) والأشياء التي كانوا يعبدونها.

والمراد بالظالمين : الكافرون ، لكونهم عابدين لغير اللّه تعالى.

وهذا يدل على أن الظالم المطلق هو الكافر ، ويفهم منه أن كل وعيد ورد في حق الظالم ، فالمراد منه الكفار ، ويؤكده قوله تعالى : وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة ٢/ ٢٥٤].

و قوله تعالى : وَأَزْواجَهُمْ فسر بأقوال ثلاثة الظاهر منها أولها ، ويجوز إرادتها كلها :

الأول- أشباههم من الكفرة ، فاليهودي مع اليهودي ، والنصراني مع النصراني ، وهكذا ، لقوله تعالى : وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً [الواقعة ٥٦/ ٧].

الثاني- قرناؤهم من الشياطين ، لقوله تعالى : وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ [الأعراف ٧/ ٢٠٢].

الثالث- المراد : نساؤهم اللواتي على دينهم.

٢- يوقف الكفار للحساب ثم يساقون إلى النار ، فيكون الإيقاف أو الحبس قبل السوق إلى الجحيم ، ويكون بين الآيتين فَاهْدُوهُمْ ووَ قِفُوهُمْ تقديم

ج ٢٣ ، ص : ٨٥

و تأخير. وقيل : يساقون إلى النار أولا ، ثم يحشرون للسؤال إذا قربوا من النار ، ويكون سؤالهم عن عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم.

وهذا كله دليل على أن الكافر يحاسب.

٣- يقال لهم على جهة التقريع والتوبيخ : ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ أي لا ينصر بعضكم بعضا ، فيمنعه من عذاب اللّه.

٤- في ذلك الموقف الرهيب لا حيلة لهم ، وهم منقادون خاضعون لأمر اللّه ، مستسلمون لعذاب اللّه عز وجل.

٥- تظهر هناك صورة من النقاش والجدل والتخاصم والتلاوم بين الرؤساء والأتباع ، لقوله سبحانه : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ أي يسأل بعضهم بعضا ، والمراد بالتساؤل : التخاصم ، فليس المقصود منه تساؤل المستفهمين ، بل هو تساؤل التوبيخ واللوم.

يقول الأتباع لمن دعاهم إلى الضلالة : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ أي تأتوننا عن طريق الخير وتصدوننا عنها ، أو تأتوننا عن اليمين التي نحبها ونتفاءل بها لتغرونا بذلك من جهة النصح ، والعرب تتفاءل بما جاء عن اليمين وتسميه السانح ، أو تأتوننا من قبل الدّين ، فتهونون علينا أمر الشريعة وتنفروننا عنها.

قال القرطبي عن الأخير : وهذا القول حسن جدا ، لأن من جهة الدين يكون الخير والشر ، واليمين بمعنى الدّين ، أي كنتم تزينون لنا الضلالة.

وقيل : اليمين بمعنى القوة ، أي تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر ، قال اللّه تعالى :

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ [الصافات ٣٧/ ٩٣] أي بالقوة ، وقوة الرجل في يمينه.

ج ٢٣ ، ص : ٨٦

فيجيبهم الرؤساء : بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أي لم تؤمنوا قط حتى ننقلكم من الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم على الكفر وألفتموه. ولم يكن لنا عليهم سلطان وقهر وحجة في ترك الحق ، بل كنتم قوما ضالين متجاوزين الحد ، فوجب علينا وعليكم قول ربّنا ، فكلنا ذائقو العذاب ، كما أخبر اللّه على ألسنة الرسل :

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة ٣٢/ ١٣].

وقالوا أيضا : لقد أغويناكم وأضللناكم ، أي زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر ، إنا كنا غاوين بالوسوسة والاستدعاء.

٦- ثم أخبر اللّه تعالى عنهم : فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ أي يكون القادة والأتباع جميعا في

نار جهنم ، سواء الضال والمضل ، كل بحسبه.
٧- إن مقتضى العدل الإلهي والسنن الرباني أن يعاقب المجرمون المشركون على جرمهم العظيم ، وهو إنكار الوحدانية والاستكبار عن كلمة التوحيد ، وتكذيب الرسل ، أو التكذيب بالتوحيد ، والتكذيب بالنبوة.

و قد صدر منهم الأمران جميعا ، أما إنكار التوحيد ففي قوله تعالى : إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ : لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ ، يَسْتَكْبِرُونَ وأما تكذيب الرسل فهو في قوله سبحانه : وَيَقُولُونَ : أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ أي لقول شاعر مجنون ، فجمعوا بين إنكار الوحدانية وإنكار الرسالة.
فردّ اللّه عز وجل عليهم بقوله : بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ أي إن الرسول ص جاء بالقرآن والتوحيد ، وصدّق الأنبياء المرسلين قبله فيما جاؤوا به من التوحيد ونفي الشريك.
ج ٢٣ ، ص : ٨٧
جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين المخلصين [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٣٨ الى ٦١]
إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢)
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٤) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (٤٧)
وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٥٠) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢)
أَ إِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)

أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (٦١)
الإعراب :
إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ الْعَذابِ : مجرور بالإضافة ، من إضافة الفاعل لمفعوله.

وقرئ بنصب العذاب على تقدير النون في لَذائِقُوا كما يقال : ولا ذاكر اللّه إلا قليلا.
فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فَواكِهُ : بدل من رِزْقٌ في قوله تعالى : أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ.
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ظرف أو حال من ضمير مُكْرَمُونَ أو خبر ثان لأولئك. وكذلك عَلى سُرُرٍ إما حال أو خبر.
ج ٢٣ ، ص : ٨٨
لا فِيها غَوْلٌ غَوْلٌ : مبتدأ ، وفِيها : خبره ، ولا يجوز أن يبنى غَوْلٌ مع لا للفصل بينهما ب فِيها.
هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ بفتح نون مُطَّلِعُونَ وقرئ بالكسر ، وهو ضعيف جدا ، لأنه جمع بين نون الجمع والإضافة ، وكان ينبغي أن يكون « مطلعيّ » بياء مشددة ، لأن النون تسقط للإضافة.
فَاطَّلَعَ بالتشديد ، وقرئ بالتخفيف « اطلع » وهما فعلان ماضيان.
إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى مَوْتَتَنَا : منصوب على المصدر ، كأنه قال : ما نحن نموت إلا موتتنا الأولى ، كما تقول : ما ضربت إلا ضربة واحدة.
البلاغة :
إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ التفات من الغيبة إلى الخطاب من إنهم إلى إنكم ، لزيادة التقبيح والتشنيع عليهم.
قاصِراتُ الطَّرْفِ كناية ، كنّى بذلك عن الحور العين ، لأنهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ تشبيه مرسل مجمل ، حذف منه وجه الشبه ، فصار مجملا.
المفردات اللغوية :

إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ بالإشراك وتكذيب الرسل إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إلا مثل ما عملتم ، أو جزاء ما عملتم إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أي المؤمنين الذين أخلصوا للّه في العبادة ، أو أخلصهم اللّه لعبادته واصطفاهم لدينه ، وهو استثناء منقطع أُولئِكَ لَهُمْ في الجنة رِزْقٌمَعْلُومٌ
أي معروف الخصائص من الدوام والانتظام وتمحض اللذة فَواكِهُ ما يؤكل تلذذا لا لحفظ الصحة والتغذي ، لأن أهل الجنة مستغنون عن حفظها ، بخلق أجسامهم للأبد وَهُمْ مُكْرَمُونَ أي ولهم من اللّه إكرام عظيم برفع درجاتهم عنده ، وسماع كلامه تعالى ولقائه في الجنة.
وهم أيضا مكرمون في نيل الرزق ، فإنه يصل إليهم من غير تعب ولا سؤال ، كما عليه رزق الدنيا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ أي في جنات ليس فيها إلا النعيم.
عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ أي على أسرّة يتكئون عليها ، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ، كل منهم مسرور بلقاء

أخيه ، لا ينظر بعضهم قفا بعض. يُطافُ عَلَيْهِمْ على كل منهم بِكَأْسٍ بإناء فيه الشراب مِنْ مَعِينٍ أي من خمر يجري على وجه الأرض ، كالعيون والأنهار بَيْضاءَ

ج ٢٣ ، ص : ٨٩

أشد بياضا من اللبن لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ أي لذيذة لمن شربها ، بخلاف خمر الدنيا ، فإنها كريهة عند الشرب ، قال الحسن البصري : خمر الجنة أشد بياضا من اللبن ، له لذة لذيذة لا فِيها غَوْلٌ أي لا تغتال عقولهم فتذهب بها ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ يسكرون ، بخلاف خمر الدنيا. قرئ بفتح الزاي وكسرها ، من نزف الشارب وأنزف : سكر ، فهو نزيف ومنزوف.

(٨٥/٢٣)

قاصِراتُ الطَّرْفِ قصرن أبصارهن على أزواجهن ، فلا يردن غيرهم عِينٌ أي ضخام الأعين حسانها ، جمع عيناء : وهي المرأة الواسعة العين مع حسنها كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ شبههن في الصفاء والبياض المخلوط بشيء من الصفرة ببيض النعام المستور بريشه من الريح والغبار.

والمكنون : المصون من الغبار ونحوه. وهذا اللون وهو البياض المشوب بصفرة أحسن ألوان النساء.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ أي أقبل بعض أهل الجنة على بعض ، حال شربهم ، يسألون عن أحوالهم التي كانت في الدنيا ، وذلك من تمام نعيم الجنة قَرِينٌ خليل وصاحب في الدنيا ، كافر بالبعث ، منكر له. لَمَدِينُونَ مجزيون بأعمالنا ، ومحاسبون بها ، بعد أن صرنا ترابا وعظاما ؟ قالَ المؤمن ذلك القائل لإخوانه مُطَّلِعُونَ معي إلى النار ، لننظر حال ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة ، كيف منزلته في النار ؟

فَاطَّلَعَ ذلك المؤمن إلى النار فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ رأى قرينه في وسط النار قالَ له شماتة إِنْ كِدْتَ قاربت ، وإِنْ : مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن واللام هي الفارقة لَتُرْدِينِ لتهلكني بإغوائك وتوقعني في النار وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي ورحمته علي بالإيمان والهداية لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ معك في النار ، المسوقين للعذاب أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ أي أنحن مخلدون غير ميتين ؟ وهو قول أهل الجنة إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى غير موتتنا التي في الدنيا ، وهذا قول صادر من دواعي الابتهاج والسرور بما أنعم اللّه عليهم من نعيم الجنة الذي لا ينقطع ، فهو استفهام تلذذ وتحدث بنعمة اللّه تعالى ، من تأييد الحياة وعدم التعذيب وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ أي لسنا بمعذبين.

(٨٦/٢٣)

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أي إن ما فيه أهل الجنة من النعمة والخلود والأمن من العذاب ، لهو الفوز الساحق الذي لا يقدر قدره. ويحتمل أن يكون هذا من كلام أهل الجنة ، وأن يكون كلام اللّه تقريرا لما يقولون. لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ أي هذه هي التجارة الرابحة ، وهو الهدف الأمثل الذي يسعى إليه العاملون ، لا العمل للدنيا الزائفة ، فلنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون ، لا لحظوظ الدنيا المشوبة بالآلام ، السريعة الزوال. ويحتمل أن يكون هذا أيضا من كلام أهل الجنة أو كلام اللّه.

ج ٢٣ ، ص : ٩٠

المناسبة :

بعد أن حكى اللّه تعالى تكذيب الكفار بالتوحيد وبالنبوة ، نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور ، مبينا أن حوار الأتباع والرؤساء من أهل الضلال لا فائدة فيه ، فإن العذاب شامل الفريقين ، وأن الجزاء العدل في الآخرة على وفق العمل في الدنيا ، ثم استثنى اللّه تعالى العباد الذين اصطفاهم لطاعته ، وأخلصوا العبادة لربهم ، فهم في ألوان متنوعة من النعيم المادي في الجنة من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وكذا من النعيم المعنوي حيث لا يشغلهم همّ ولا نصب ، ويستذكرون أحوالهم في الدنيا ، وأحاديثهم مع بعض القرناء الأخلاء.

التفسير والبيان :

يبين اللّه تعالى حال المكذبين الضالين ، وهو أيضا خطاب للناس ، فيقول :

إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ أي إنكم أيها الكفار لتذوقن العذاب المؤلم في نار جهنم الذي يدوم ولا ينقطع.

وَما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أي إن جزاءكم لحق وعدل لا ظلم فيه ، وهو عقابكم على أعمالكم من الكفر والمعاصي ، فهي سبب الجزاء : وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت ٤١/ ٤٦] وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً [الكهف ١٨/ ١٩].

بعد بيان حال المجرمين المتكبرين عن قبول التوحيد المصرّين على إنكار النبوة ، ذكر تعالى حال المخلصين في كيفية الثواب ، فقال :

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ، أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ، فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ أي ولكن عباد اللّه الذين أخلصهم اللّه لطاعته وتوحيده ، وأخلصوا العمل للّه ، ناجون لا يذوقون العذاب ولا يناقشون الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم ، كما

ج ٢٣ ، ص : ٩١

قال تعالى : وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ .. [العصر ١٠٣/ ١- ٣] كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ .. [المدثر ٧٤/ ٣٨- ٣٩]. والْمُخْلَصِينَ صفة مدح ، لأن كونهم عباد اللّه يلزم منه أن يكونوا مخلصين.

ولهؤلاء المخلصين رزق من اللّه ، معلوم حسنه وطيبه ودوامه دون انقطاع في الجنة ، يعطونه بكرة وعشيا ، وإن لم يكن ثمة بكرة وعشية ، فيتمتعون بلذيذ الفواكه المتنوعة أي الثمار كلها ، فهي أطيب ما يأكلونه ، وذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم ، فهم يخدمون ويرفهون ، ولهم أيضا إكرام عظيم برفع درجاتهم في الجنة عند ربهم ، ويسمعون كلامه ويلقونه في رحاب الجنان.

وفي هذا دلالة على أن تناولهم الفاكهة إنما هو تلذذ لا للتغذي والقوت ، لأنهم مستغنون عنه ، لأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد. ووصف رِزْقٌ بمعلوم ، أي عندهم.

وبعد بيان مأكولهم ، وصف اللّه تعالى مساكنهم ، فقال :

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ أي إن هذا الرزق يأتيهم في جنات ذات نعيم مقيم ومتاع دائم ، وهم على أسرة يتكئون عليها ، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ، بسرور وابتهاج ، لا ينظر بعضهم في قفا بعض ، فصاروا يجمعون بين المتعة المادية الجسدية ، والمتعة الروحية الإنسانية.

و بعد بيان صفة المأكل والمسكن ذكر تعالى صفة الشراب ، فقال :

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ أي يدار عليهم بآنية من خمر تجري في أنهر ، والمعين : الماء الجاري ، فهي تخرج من العيون كما يخرج الماء دون انقطاع ، وسمي معينا لظهوره.

ثم وصف اللّه تعالى خمر الجنة البعيدة عن آفات خمر الدنيا ، فقال :

بَيْضاءَ لَذَّةٍ « ١ » لِلشَّارِبِينَ ، لا فِيها غَوْلٌ ، وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ أي ذات لون أبيض شديد البياض ، لذيذة الطعم ، طيبة الرائحة ، لا كخمر الدنيا المرّة ذات النكهة المزعجة ، وهي لا تذهب بالعقول ، ولا تؤدي إلى صداع الرأس ، ووجع البطن ، وأنواع الأمراض ، كما هو شأن خمر الدنيا ، فهي بخلاف خمر الدنيا في جميع تلك الأوصاف ، لا تضر النفس والعقل والمال والشخصية ، بسبب نزع مادة الغول أي الكحول منها. وفي هذا إيماء إلى مفاسد خمر الدنيا من صداع وفساد وسكر ، وعربدة وهذيان ، وإفساد للدم ، وجهاز الهضم كله.

وبعد بيان صفة مشروبهم ذكر تعالى صفة زوجاتهم ، فقال :

وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ أي لديهم زوجات عفيفات ، لا ينظرن إلى غير أزواجهن ، ولا يردن

غيرهم ، ذوات عيون واسعة حسان. والعين جمع عيناء : وهي النجلاء الواسعة في جمال ، الحسناء المنظر ، وبه يتبين أنه تعالى وصف عيونهن بالحسن والعفة ، كما قال تعالى في الحور العين : خَيْراتٌ حِسانٌ [الرحمن ٥٥/ ٧٠].

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ أي كأن ألوانهن من البياض المشوب بأدنى الصفرة ، كالبيض المحصون المصون المستور الذي لم تمسه الأيدي ، ولم يتلوث بالريح والغبار. وهذا اللون أحسن ألوان النساء.

وبعد بيان ألوان المتعة المادية لأهل الجنة في المآكل والمشارب والمساكن والأزواج ، ذكر اللّه تعالى بعض أنواع المتع النفسية ، فقال :

)

---

(١) لذة : صفة بالمصدر على سبيل المبالغة ، أو على حذف ، أي ذات لذة ، أو على تأنيث لذ بمعنى لذيذ.

فسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، ج ٢٣ ، ص : ٩٣

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ أي أقدم بعضهم حال شربهم واجتماعهم ومعاشرتهم في مجالسهم ، يسأل بعضا آخر عن أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا ، وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من تمام نعيم الجنة.

ومن موضوعات التساؤل قوله تعالى :

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ ، يَقُولُ : أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ، أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ أي قال مؤمن من أهل الجنة : كان لي صاحب في الدنيا كافر بالبعث منكر له ، يقول : أنحن إذا متنا وصرنا ترابا متفتتا وعظاما بالية ، أنكون محاسبين بعدئذ على أعمالنا ، ومبعوثين نجازى على ما قدمنا في الدنيا ؟ فذلك أمر مستحيل غير معقول ولا مقدور لأحد ، فهل أنت مصدق مثل هذه الخرافات ؟

قالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟ قال المؤمن لجلسائه : انظروا معي إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين الذي قال لي تلك المقالة ، كيف يعذب ، وكيف يجازى الجزاء الأوفى ؟

فَاطَّلَعَ ، فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ أي فنظر ذلك المؤمن إلى أهل النار ، فرأى قرينه في وسط جهنم ، يتلظى بحرّها.

قالَ : تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ، وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أي قال المؤمن لقرينه الكافر على

جهة التوبيخ : لقد قاربت أن توقعني في الردى والهلاك بالإغواء ، وتهلكني بدعوتك إياي إلى إنكار البعث والقيامة ، ولو لا رحمة ربي وعصمته من الضلال ، وتوفيقه وإرشاده لي إلى الحق ، وهدايته لي إلى الإسلام ، لكنت من المحضرين معك في النار للعذاب.

ثم عاد ذلك المؤمن إلى مخاطبة جلسائه من أهل الجنة ، فقال :

ج ٢٣ ، ص : ٩٤

(٢٣/٩٠)

أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ أي قال المؤمن لجلسائه ابتهاجا وسرورا بما أنعم عليهم من نعيم الجنة الدائم : أنحن مخلّدون منعّمون أبدا ، فلا نموت إلا الموتة الأولى الحادثة في الدنيا ، ولسنا معذّبين كما يعذّب الكفار أصحاب النار ؟

هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى اللّه لهم ألا يذوقوا إلا الموتة الأولى ، بخلاف الكفار ، فإنهم فيما هم فيه من العذاب يتمنون الموت كل ساعة. والمؤمن يقول هذا القول تحدثا بنعمة اللّه واغتباطا بحاله وبمسمع من قرينه توبيخا له ، يزداد به عذابا ، وأما المؤمن فيسعد ويغبط نفسه بالخلود في الجنة ، والإقامة في النعيم ، بلا موت ولا عناء.

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ أي إن هذا النعيم الدائم المقيم وهذا الفضل العميم الذي نحن فيه لهو النجاح الباهر ، والفوز الأكبر الذي لا يوصف ، ولمثل هذا النعيم والفوز ، ليعمل العاملون في الدنيا ، ليحظوا به ، لا أن يعملوا فحسب لحظوظ الدنيا الفانية ، المقترنة بالمخاطر والآلام والمتاعب الكثيرة. والخلاصة : أن المطلوب هو العمل للآخرة وللجنة الخالدة ، لا أن يقصر العمل على المكاسب الدنيوية فقط.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١- إن عذاب الكفار والمجرمين أمر حق وعدل ومؤكد الوقوع.

٢- هذا الجزاء يكون بسبب العمل المنكر وهو الشرك والمعاصي ، وهذا رد على من قد يقول : كيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده ؟

ج ٢٣ ، ص : ٩٥

٣- إن تنفيذ الأمر الإلهي واجتناب القبيح والمعصية يتطلبان الترغيب في الثواب ، والترهيب من العقاب ، لذا استثنى اللّه من الإخبار بالعذاب عباده الذين أخلصوا العمل للّه تعالى ، فهم ناجون غير معذبين.

٤- إن ثواب المؤمنين المخلصين هو الجنة ، وفيها الرزق المعلوم الصفات وهو الدائم الذي لا ينقطع ، المشتمل على أطيب المآكل من الثمار المختلفة الرطبة واليابسة ، في بساتين يتنعمون فيها ، ولهم إكرام من اللّه جل وعز برفع الدرجات وسماع كلامه ولقائه.

ولا ينظر بعضهم في قفا بعض ، وإنما يجلسون على أسرّة يتكئون عليها متقابلين وجها لوجه ، غير متدابرين.

وذلك الرزق مشتمل أيضا على أطيب المشارب من خمور تقدم لهم بكؤوس مترعة ، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها ، وإنما تجري كما تجري العيون على وجه الأرض ، وخمر الجنة أشد بياضا من اللبن ، طيبة الطعم ، وطيبة الريح ، لا تغتال عقولهم ، ولا تذهب بها بشربها ، ولا يصيبهم منها مرض ولا صداع ، ولا يسكرون منها.

ولهم أزواج من النساء العفيفات اللاتي قصرن طرفهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم ، وهن حسان العيون ، ذوات جمال ولون بديع كبيض النعام المصون ، يخالط لونها صفرة قليلة ، وهو أحسن ألوان النساء.

٥- يتجاذب أهل الجنة أطراف الأحاديث المسلّية التي يتذكرونها في الدنيا ، إتماما للأنس في الجنة ، فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا.

ومن موضوعات أحاديثهم : قصة المؤمن والكافر ، يقول المؤمن من أهل الجنة : كان لي في الدنيا قرين أي صديق ملازم ، فسألني متعجبا : هل أنت من

ج ٢٣ ، ص : ٩٦

المصدقين بالبعث والجزاء ؟ وهل نحن مجزيون محاسبون بعد الموت ، وهل يعقل أن نعود أحياء بعد أن متنا وصرنا ترابا وعظاما نخرة ؟

و تتمة الموضوع أن يقول المؤمن لأهل الجنة : هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين ومآله ؟ فلم يفعلوا ، وإنما اطلع هو ، فوجد قرينه معذبا في وسط النار. فيقول له موبخا : واللّه ، لقد قاربت أن توقعني في النار ، وتهلكني ، ولو لا فضل ربي ورحمته وعصمته من الضلال والباطل ، وإنعامه بالإرشاد والتوفيق إلى الحق ، لكنت محضرا معك في النار مثلك.

٦- ثم يعود ذلك المؤمن إلى خطاب جلسائه الذين هم من أهل الجنة ، بعد أن يعلموا أنهم لا يموتون

حين يمثل الموت بصورة كبش أملح فيذبح ، بعد أن كانوا لا يعلمون بذلك في أول دخولهم في الجنة ، فيقول مغتبطا مبتهجا : أنحن مخلّدون منعّمون ، فما نحن بميتين ولا معذّبين ؟

٧- النتيجة من القصة والحديث المتبادل : هي أن الظفر بنعيم الجنان هو الفوز الأعظم ، ولمثل هذا العطاء والفضل ينبغي أن يعمل العاملون العمل الصالح المؤدي إلى تلك النعمة الكبرى.

وقوله تعالى : إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن لما رأى ما أعد اللّه له في الجنة وما أعطاه ، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة ، ويحتمل أن يكون هو من قول اللّه عز وجل لأهل الدنيا ، أي قد سمعتم ما في الجنة من الخيرات والجزاء ، فليعمل العاملون لمثل هذا ، كما تقدم إيجازه.

ج ٢٣ ، ص : ٩٧

جزاء الظالمين وأنواع العذاب في جهنم [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٦٢ الى ٧٤]

أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦)

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)

الإعراب :

إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ : إما وصف لشجرة ، وإما خبر بعد خبر ، وإما في موضع نصب على الحال من ضمير تَخْرُجُ. وفِي أَصْلِ الْجَحِيمِ : اي منبتها في قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

البلاغة :

أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ في قوله : خَيْرٌ أسلوب تهكمي للتهكم بهم.

مُنْذِرِينَ الْمُنْذَرِينَ بينهما جناس ناقص ، يراد بالأول الرسل ، وبالثاني الأمم.

طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ تشبيه مرسل مجمل حذف منه وجه الشبه ، أي في الهول والشناعة وتناهي القبح.

المفردات اللغوية :

أَذلِكَ المذكور لهم. خَيْرٌ نُزُلًا ضيافة ، والنزل : ما يعد للنازل ضيفا وغيره من طعام وشراب. أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ شجرة معدة لأهل النار ، وهي شجرة صغيرة الورق تنبت

ج ٢٣ ، ص : ٩٨

بتهامة ، لها ثمر مرّ كريه الرائحة ، يكره أهل النار على تناوله ، فهم يتزقمونه. والتزقم : البلع مع الجهد والألم. إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ أي أنبتناها في قعر جهنم ، لتكون محنة للكافرين من أهل مكة ، إذ قالوا : كيف ذلك ، والنار تحرق الشجر ، فكيف تنبته ؟ ولم يعلموا أن من قدر على خلق ما يعيش في النار ، فهو أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق ، وهناك أشياء نشاهدها اليوم غير قابلة للاحتراق.

(٩٤/٢٣)

فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ أي تنبت في قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها. طَلْعُها ثمرها أو حملها المشبّه بطلع النخل ، وأصل الطلع : ثمر النخلة أول ظهوره ، أطلق على ثمر هذه الشجرة مجازا. كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ شبه المحسوس بالمتخيل ، وإن كان غير مرئي ، للدلالة على أن ثمرها في غاية القبح ، ونهاية البشاعة ، كتشبيه الفائق في الحسن بالملك ، وقيل : الشياطين : حيات هائلة قبيحة المنظر ، لها أعراف. فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فإن الكفار لآكلون من تلك الشجرة مع قبحها لشدة جوعهم. فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ الملء : حشو الوعاء بما لا زيادة عليه. لَشَوْباً الشوب : الخلط ، يقال : شاب الطعام أو الشراب : خلطه بشيء آخر. حَمِيمٍ ماء شديد الحرارة ، يشربونه ، فيختلط بالمأكول من شجرة الزقوم ، فيصير شوبا له.

مَرْجِعَهُمْ مصيرهم. لَإِلَى الْجَحِيمِ إلى دركاتها أو إلى نفسها ، وهذا دليل على أنهم يخرجون من النار لشراب الحميم ، وأنه خارجها ، لقوله تعالى : هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ [الرحمن ٥٥/ ٤٣- ٤٤] يوردون إليه ، كما تورد الإبل إلى الماء ، ثم يردون إلى الجحيم.

أَلْفَوْا وجدوا. يُهْرَعُونَ يزعجون إلى اتباعهم ، ويسرعون إسراعا شديدا ، وهو تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال. والإهراع : الإسراع الشديد. وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ قبل قومك. أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ من الأمم الماضية.

(٩٥/٢٣)

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ أنبياء أنذروهم من العواقب. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ أي مصير الكافرين من الأمم وهو العذاب. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ إلا الذين تنبهوا بإنذارهم ، فأخلصوا دينهم للّه ، فنجوا من العذاب ، والمخلصين : بفتح اللام : هم الذين أخلصهم اللّه للعبادة والطاعة ، وبكسر اللام : هم الذين أخلصوا في العبادة.

المناسبة :

بعد بيان ما أعده اللّه تعالى للأبرار في جنات النعيم من مآكل ومشارب وغيرها ، ذكر تعالى ما أعده للأشرار في نار جهنم ، من أنواع المآكل والمشارب بسبب تقليدهم الآباء في الكفر باللّه وعبادة الأصنام والأوثان.

ج ٢٣ ، ص : ٩٩

التفسير والبيان :

أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ أهذا المذكور من نعيم الجنة وما فيها مآكل ومشارب وملاذ وغيرها خير ضيافة وعطاء ، أم شجرة الزقوم ذات الطعم المرّ الشنيع ، التي في جهنم ؟ وهذا نوع من التهكم والسخرية بهم ، فهو طعام أهل النار يتزقمونه ، وهو نزلهم وضيافتهم.

إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ أي إنا جعلنا تلك الشجرة اختبارا للكافرين ، حين افتتنوا بها وكذبوا بوجودها ، فقالوا : كيف تكون الشجرة في النار ، والنار تحرق ما فيها ؟

وهذا الاستبعاد لجهلهم بأن بعض الأشياء غير قابل للاحتراق ، ولأنهم لم يعلموا ولم يلاحظوا أن من قدر على خلق إنسان يعيش في النار ، فهو أقدر على خلق شجر فيها لا يحترق.

وصفات تلك الشجرة ما قاله تعالى :

١- إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ أي إنها شجرة تنبت في قعر النار وقرار جهنم ، وترتفع أغصانها إلى دركاتها.

٢- طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ أي إن ثمرها وما تحملها كأنه في تناهي قبحه وشناعة منظره كأنه رؤوس الشياطين ، تبشيعا لها وتكريها لذكرها ، فشبّه المحسوس بالمتخيل غير المرئي ، والعرب تشبّه قبيح الوجه بالشيطان ، وتشبه جميل الصورة بالملك ، كما جاء في القرآن حكاية على لسان صواحبات يوسف عليه السلام : ما هذا بَشَراً ، إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ [يوسف ١٢/ ٣١].

وقيل : إن الشياطين هي حيّات لها رؤوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيات.

ج ٢٣ ، ص : ١٠٠

ثم ذكر اللّه تعالى أن هذه الشجرة مأكل الكفار أهل النار ، فقال :

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها ، فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ أي إنهم يأكلون من ثمر هذه الشجرة السيء الريح والطعم والطبع ، فيملئون بطونهم منه ، بالإكراه والاضطرار ، لأنهم لا يجدون غير هذه الشجرة ونحوها ، كما قال تعالى : لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ، لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ [الغاشية ٨٨/ ٦- ٧] فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة.

روى ابن أبي حاتم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه ص تلا هذه الآية ، وقال : « اتقوا اللّه حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ » « ١ » .

وبعد وصف طعامهم ، وصف تعالى شرابهم بما هو أبشع منه ، قائلا :

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ أي ثم إن لهم بعد الأكل منها لشرابا من ماء شديد الحرارة يخالط طعامهم. والمقصود من كلمة ثُمَّ بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول. ومكان هذا الماء خارج جهنم ، لقوله تعالى :

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ أي مرجعهم بعد شرب الحميم وأكل الزقوم إلى دار الجحيم. وهذا يدل على أنهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم ، مما يدل على أن الحميم في موضع خارج عن الجحيم ، فهم يوردون الحميم لشربه ، كما تورد الإبل إلى الماء ، ثم يردّون إلى الجحيم ، كما قال تعالى : هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ [الرحمن ٥٥/ ٤٣- ٤٤].

---

(١) قال الترمذي : حسن صحيح.

و بعد وصف عذابهم في أكلهم وشربهم ذكر اللّه تعالى علة العذاب قائلا :

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ ، فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ أي إنهم وجدوا وصادفوا آباءهم على الضلال ، فاقتدوا بهم وقلدوهم ، من غير تعقل ولا تدبر ، ولا حجة وبرهان ، فهم يتبعون آباءهم في سرعة ، كأنهم حرّضوا على ذلك ، وأزعجوا إلى اتباع

ثم بيّن اللآلهة أخرى.

ولكن رحمته تعالى لم تتركهم دون إنذار ، فقال :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ أي أرسل اللّه في الأمم الماضية أنبياء ورسلا ينذرونهم بأس اللّه ، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به ، وعبد غيره ، لكنهم تمادوا في مخالفة رسلهم وتكذيبهم فأهلكهم اللّه ، كما قال :

فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ فانظر أيها الرسول والمخاطب كيف كان مصير الكافرين المكذبين ، أهلكهم اللّه ودمّرهم وصاروا إلى النار ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، ثم استثنى تعالى منهم المؤمنين قائلا :

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أي لكن نجى اللّه عباده الذين اصطفاهم وأخلصهم لطاعته ، بتوفيقهم إلى الإيمان والتوحيد ، والعمل بأوامر اللّه ، ففازوا بجنان الخلد ، ونصرهم في الدنيا.

(٩٨/٢٣)

و يفهم من هذه التسلية للرسول ص أنه يجب عليه أن يكون له أسوة بمن

ج ٢٣ ، ص : ١٠٢

تقدمه من الرسل ، فيصبر كما صبروا ، ويستمر على دعوته ، وإن تمرد المرسل إليهم ، فليس عليه إلا البلاغ.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- لا مجال للمقارنة بين ما أعده اللّه لعباده الأبرار من نعيم في الجنان ، وما أعده للأشرار من عذاب في النيران.

٢- إن طعام أهل النار هو الزقّوم الثمر المرّ الكريه الطعم والرائحة ، العسير البلع ، المؤلم الأكل ، كما قال تعالى : إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ [الدخان ٤٤/ ٤٣- ٤٦].

٣- إن الإخبار عن وجود شجرة الزقوم في قعر جهنم فتنة وابتلاء واختبار للكفار الذين قالوا : كيف تكون الشجرة في النار وهي تحرق النار ؟ لكن كان هذا القول جهلا منهم ، إذ إن هناك أشياء نشاهدها اليوم غير قابلة للاحتراق ، ولا يستحيل في العقل أن يخلق اللّه في النار شجرا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق اللّه فيها الأغلال والقيود والحيّات والعقارب وخزنة النار.

٤- وصف اللّه تعالى هذه الشجرة بصفتين : الأولى- إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم أي منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها. والصفة الثانية- ثمرها وحملها في قبحه وشناعته كأنه رؤوس الشياطين ، وهذا الشبه متصور في نفوس العرب ، وإن كان غير مرئي. ومن ذلك قولهم لكل قبيح : هو

كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة كصورة الملك.

ومنه قوله تعالى مخبرا عن صواحبات يوسف : ما هذا بَشَراً ، إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ [يوسف ١٢/ ٣١] وهذا تشبيه تخييلي.

ج ٢٣ ، ص : ١٠٣

و قال الزجاج والفرّاء : الشياطين حيات لها رؤوس وأعراف ، وهي من أقبح الحيّات وأخبثها وأخفها جسما.

٥- لا يكتفي أهل النار بتناول شيء قليل من الزقوم ، وإنما يأكلون منه بالإكراه حتى تمتلئ منه بطونهم ، فهذا طعامهم وفاكهتهم بدل رزق أهل الجنة.

وبعد الأكل من الشجرة يشربون الماء المغلي الشديد الحرارة الذي يخالط طعام الزقوم ، قال اللّه تعالى : وَسُقُوا ماءً حَمِيماً ، فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ [سورة محمد ٤٧/ ١٥]. قيل : يمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ، تغليظا لعذابهم ، وتجديدا لبلائهم.

٦- يشرب أهل النار من ماء الحميم ويأكلون الزقوم من مكان خارج جهنم ، للآية : ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ فهذا يدل على أنهم كانوا حين أكلوا الزقوم في عذاب غير النار ، ثم يردون إليها.

والحميم كما قال مقاتل خارج الجحيم ، فهم يوردون الحميم لشربه ، ثم يردون إلى الجحيم ، لقوله تعالى : هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ [الرحمن ٥٥/ ٤٣- ٤٤].

٧- إن سبب عذابهم الذي استحقوه هو تقليدهم آباءهم في الكفر باللّه وتكذيب الرسل وعبادة الأصنام والأوثان ، فكأنهم يستحثون من خلفهم ، ويسرعون إلى تقليدهم ، ويزعجون من شدة الإسراع.

٨- لقد كفر باللّه وكذب الرسل وضل كثير من الأمم الماضية ، ولكن اللّه أرسل إليهم رسلا أنذروهم العذاب فكفروا ، فكان مصيرهم الدمار والهلاك وولوج النار.

٩- ينجي اللّه دائما عباده المؤمنين الذين استخلصهم من الكفر ، وأخلصوا للّه النية والعمل ، ففازوا بنعيم الجنان ، ونصرهم اللّه في الدنيا.

ج ٢٣ ، ص : ١٠٤

قصة نوح عليه السلام [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٧٥ الى ٨٢]

وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (٧٩)
إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨(١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)

الإعراب :

فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ المخصوص بالمدح محذوف ، تقديره : فلنعم المجيبون نحن ، كقوله تعالى : نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [ص ٣٨/ ٤٤] أي أيوب.

سَلامٌ عَلى نُوحٍ سَلامٌ : مبتدأ ، وعَلى نُوحٍ : خبره ، وجاز الابتداء بالنكرة ، لأنه في معنى الدعاء ، كقوله تعالى : وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ [المطففين ٨٣/ ١] وقرئ سلاما بالنصب على أنه مفعول تَرَكْنا تقديره : تركنا عليه في الآخرين سلاما ، أي ثناء حسنا.

البلاغة :

وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ كناية ، كنى بذلك عن الذكر الجميل والثناء الحسن.

المفردات اللغوية :

نادانا نُوحٌ دعانا حين أيس من قومه ، فالمراد من النداء الاستغاثة ، بقوله : أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ [القمر ٥٤/ ١٠]. فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ له نحن ، اي فأجبناه أحسن الإجابة ، والتقدير : فو اللّه لنعم المجيبون نحن ، فحذف ما حذف لقيام ما يدل عليه. ونوع الجواب : أنا أهلكناهم بالغرق.

مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ أي الغرق أو أذى قومه ، والكرب : الغم الشديد وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ أي أبقينا ذريته متناسلين إلى يوم القيامة ، فالناس كلهم من نسله عليه السلام ، وكان

له ثلاثة أولاد : سام وهو أبو العرب وفارس والروم ، وحام : وهو أبو السودان ، ويافث : أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج من الصين واليابان ونحوهم. روي أنه مات كل من معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم.

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أبقينا عليه ثناء حسنا بين الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ، فمفعول وَتَرَكْنا محذوف ، كما في الثناء السابق بقوله : فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ هذا الكلام جيء به على الحكاية ، والمعنى : يسلمون عليه تسليما ، أي يثنون عليه ثناء حسنا ويدعون له ويترحمون عليه. وقيل : هو سلام من اللّه عليه إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي مثل ذلك الجزاء الذي جازيناه نجزي المحسنين إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ تعليل لإحسانه بالإيمان ، إظهارا لجلالة قدره وأصالة أمره ثُمَّ

أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ أي كفار قومه.

المناسبة :

هذه الآيات شروع في تفصيل القصص بعد إجمالها ، فبعد ذكر ضلال كثير من الأمم السابقة في قوله تعالى : وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وقوله :

فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ أتبعه بتفصيل قصص الأنبياء عليهم السلام ، وهذه هي القصة الأولى- قصة نوح عليه السلام مع قومه ، في بيان بليغ موجز.

التفسير والبيان :

وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ أي تاللّه لقد دعانا نوح عليه السلام ، واستغاث بنا ، ودعا على قومه بالهلاك حيث قال : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً [نوح ٧١/ ٢٦] بعد أن طال دعاؤهم إلى الإيمان ، فكذبوه وآذوه وهموا بقتله ولم يؤمن معه إلا القليل ، مع طول المدة التي لبثها فيهم وهي ألف سنة إلا خمسين عاما ، ولم يزدهم دعاؤه إلا فرارا.

فأجاب اللّه دعاءه أحسن الإجابة ، وأهلك قومه بالطوفان.

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : « كان النبي ص إذا

صلّى في بيتي ، فمرّ بهذه الآية : وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ قال :

صدقت ربنا ، أنت أقرب من دعي ، وأقرب من بغي ، فنعم المدعو ، ونعم المعطي ، ونعم المسؤول ، ونعم المولى ، أنت ربنا ، ونعم النصير » .

وبعد بيان أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال ، بين أن الإنعام حصل في الإجابة من وجوه :

١- وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ أي ونجينا نوحا وأهل دينه ، وهم من آمن معه وهم ثمانون ، من الغم الشديد وهو الغرق.

٢- وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ أي وجعلنا ذريته وحدهم دون غيرهم هم الباقين على قيد الحياة ، وأهلكنا من كفر بدعائه ، ولم نبق منهم باقية ، ومن كان معه في السفينة من المؤمنين ماتوا كما قيل ، ولم يبق إلا أولاده وذريته.

والآية تفيد الحصر ، وهو يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته قد فنوا.

قال ابن عباس : ذريته بنوه الثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك.

٣- وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أي أبقينا له ثناء حسنا فيمن يأتي بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة. سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ أي وقلنا : عليك يا نوح سلام منا في الملائكة وعالمي الإنس والجن. أو معناه أن الذي أبقي عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن : أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم. ويؤيد التفسير الأول آية : قِيلَ : يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ [هود ١١/ ٤٨].

وعلة أنواع الإنعام السابقة ما قاله تعالى :

ج ٢٣ ، ص : ١٠٧

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة اللّه عز وجل ، أو خصصنا نوحا عليه السلام بتلك النعم التي منها إبقاء ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسنا.

وعلة إحسانه ما قاله سبحانه :

إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ أي إن السبب في كون نوح محسنا هو كونه عبدا للّه مؤمنا. وهذا دليل على أن الإيمان باللّه تعالى وإطاعته أعظم الدرجات وأشرف المقامات.

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ أي أغرقنا كفار قومه بالطوفان وأهلكناهم ، ولم نبق منهم أحدا ، وتلك عظة وعبرة : إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [ق ٥٠/ ٣٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت قصة نوح عليه السلام على الآتي :

١- أجاب اللّه تعالى دعاء نوح عليه السلام بإهلاك قومه ، فالداعي مضطر ، والمدعو وهو اللّه عز وجل نعم المقصود المجيب.

٢- كانت النعمة العظمى هي إجابة الدعاء ، وكانت مظاهر الإنعام على نوح ثلاثة : هي نجاة نوح ومن آمن معه ، وجعل ذريته أصول البشر والأعراق والأجناس ، وإبقاء الذكر الجميل والثناء الحسن. وقال قوم : كان لغير ولد نوح أيضا نسل ، بدليل قوله تعالى : ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ [الإسراء ١٧/ ٣].

ومما أبقي عليه : السلام الدائم في الأنبياء والأمم ، أو أن اللّه كافأه أيضا بالسلام منه عليه سلاما يذكر بين الأمم إلى يوم القيامة.

ج ٢٣ ، ص : ١٠٨

٣- أهلك اللّه بالغرق قوم نوح عليه السلام ، ولم يبق أثرا لذريتهم.

٤- وتلك النعم على نوح لأجل أنه كان محسنا ، وعلة إحسانه أنه كان عبد اللّه المؤمن المصدّق الموحد الموقن.

قصة إبراهيم عليه السلام

- ١- تحطيم الأصنام [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٨٣ الى ١٠١]

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (٨٣) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٨٧)

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (٩٢)

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (٩٦) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧)

فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١)

الإعراب :

أَإِفْكاً آلِهَةً إفكا : منصوب ب تُرِيدُونَ تقديره : أتريدون إفكا ، وآلِهَةً بدل منصوب من « إفكا » .

ج ٢٣ ، ص : ١٠٩

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ ما : مصدرية في موضع نصب بالعطف على الكاف والميم في الفعل المتقدم ، وهي مع الفعل مصدر ، تقديره : خلقكم وعملكم. ويجوز أن تكون ما استفهامية في موضع نصب ب تَعْمَلُونَ على التحقير لعملهم والتصغير له ، والوجه الأول أظهر.

البلاغة :

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ ، إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ سَقِيمٌ الْجَحِيمِ حَلِيمٍ بينها ما يسمى بمراعاة الفواصل من المحسنات البديعية ، زيادة في الروعة والجمال.

إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ في جاءَ استعارة تبعية ، شبه إقباله على ربه مخلصا بمن قدم على الملك بهدية ثمينة ، ففاز بالرضى والقبول.

ابْنُوا لَهُ بُنْياناً بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

شِيعَتِهِ ممن سار على دينه ومنهاجه في الإيمان وأصول الشريعة ، قال البيضاوي :

»

(١٠٥/٢٣)

و لا يبعد اتفاق شرعهما في الفروع أو غالبا ، وكان بينهما ألفان وست مائة وأربعون سنة (٢٦٤٠) وكان بينهما نبيّان : هود وصالح صلوات اللّه عليهم » . وأصل كلمة الشيعة : أتباع الرجل وأنصاره ، وكل قوم اجتمعوا على أمر ، فهم متشيعون له ، ثم صارت بعد موت سيدنا علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه تطلق على جماعة خاصة في مواجهة أهل السنة.

إِذْ جاءَ رَبَّهُ أي اذكر ، فهو متعلق بمحذوف ، وحقيقة المجيء بالشي ء : نقله من مكانه ، والمراد هنا الإقبال على اللّه سليم القلب مخلصا بِقَلْبٍ سَلِيمٍ من الشك وغيره ، الناصح للّه في خلقه ، السالم من جميع العلل والآفات النفسية كالرياء وغيره من النيات السيئة إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ موبخا ، وهو في هذه الحالة السليمة وإِذْ بدل من إذ الأولى أو ظرف لجاء. ما ذا تَعْبُدُونَ ما الذي تعبدون ؟ .

أَ إِفْكاً الإفك : أسوأ الكذب آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ أي أتريدون آلهة من دون اللّه للإفك ، أي أتعبدون غير اللّه ؟ فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ إذا لقيتموه ، وقد عبدتم غيره ، وما ترون يصنع بكم ؟ والمعنى : إنكار ما يوجب ظنا ، فضلا عن قطع (أي يقين) يصدّ عن عبادته ، وهو كالحجة على ما قبله.

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ أوهمهم أنه يعتمد على النجوم ، حين سألوه أن يعبد معهم فَقالَ : إِنِّي سَقِيمٌ مريض عليل ، أراد أن يتخلف عنهم في خروجهم من الغد يوم عيد لهم ،

ج ٢٣ ، ص : ١١٠

فاعتل بالسقم فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ أي تركوه وذهبوا إلى عيدهم فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ ذهب أو مال خفية إلى أصنامهم وعندها الطعام ، ومنه يقال : روغان الثعلب أي الميل فَقالَ : أَلا تَأْكُلُونَ قال استهزاء وسخرية : ألا تأكلون من الطعام الذي صنعوه لكم ؟ فلم ينطقوا.

(١٠٦/٢٣)

ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ لا تجيبوني ، وقد علم أنها جمادات لا تنطق فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ مال عليهم يضربهم بقوة وشدة ، فكسرهم فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ أي أقبل إليه عبدة تلك الأصنام يسرعون المشي ، لما علموا بما صنعه بها ، فقالوا : نحن نعبدها وأنت تكسرها ؟ قالَ : أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ أي قال لهم موبخا : أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها ؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ أي خلقكم وخلق الذي تصنعونه ،

فاعبدوه وحده.

قالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْياناً ، فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ أي تشاوروا فيما بينهم أن يبنوا له بنيانا من حجارة ، ويملأوه حطبا ، ويضرموه ، ثم يلقوه فيه. والجحيم : النار الشديدة فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً بإلقائه في النار لتهلكه فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ المقهورين ، فصارت النار بعد إلقائه عليها بردا وسلاما ، ولم تؤثر فيه.

ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ مهاجر من بلد قومي دار الكفر إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه وهو الشام ، أو إلى حيث أتمكن من عبادته هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ أي ولدا صالحا يعينني على طاعتك ، ويؤنسني في الغربة فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ أي بصبي ذكر يكبر ويصير حليما ، أي ذا حلم كثير.

المناسبة :

هذه قصة ثانية تبين مدى الصلة الوثيقة والارتباط العميق بين الأنبياء في رسالاتهم ، افتتحت بأن إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح ، أي من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه ، فهما مصدر الخير والسعادة للناس ، فكانت قصة إبراهيم أبي الأنبياء بعد قصة نوح أبي البشر الثاني عليهما السلام ، والأول نجاه اللّه من الغرق ، والثاني نجاه اللّه من النار.

التفسير والبيان :

(١٠٧/٢٣)

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ أي وإن إبراهيم عليه السلام ممن سار على دين نوح عليه السلام ومنهجه وسلك طريقه في الدعوة إلى توحيد اللّه والإيمان به

ج ٢٣ ، ص : ١١١

و بالبعث ، وغير ذلك من أصول الشريعة ، وإن اختلفا في الفروع ، وقد يكونان متفقين فيها.

إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ أي اذكر حين أقبل على ربه بقلب مخلص صادق الإيمان ، خال من شوائب الشرك والشك والرياء ، ناصح للّه في خلقه ، كأنه جاءه بتحفة من عنده لربه ، فاستحق الفوز والرضوان.

ومن خصاله وأعماله المجيدة :

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : ما ذا تَعْبُدُونَ ؟ أي من مظاهر إخلاصه لربه حين قال لجماعته : ما الذي تعبدونه من هذه الأصنام من دون اللّه ؟ وهذا إنكار على عبادتهم وتوبيخ على منهجهم وخطتهم ، ولوم صريح على عبادة الأصنام والأنداد ، لذا قال :

أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ، فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ أي أتريدون آلهة من دون اللّه تعبدونها إفكا وكذبا ، دون حجة ولا دليل ، وما ظنكم إذا لقيتم ربكم أنه فاعل بكم ، وقد عبدتم معه غيره ، وما ترونه

يصنع بكم ؟ فهو استفهام توبيخ وتحذير وتوعد ، أي أيّ شيء ظنكم بمن هو يستحق لأن تعبدوه إذ هو رب العالمين ، حتى تركتم عبادته وعدلتم به الأصنام ؟ !! فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ أي نظر إبراهيم في علوم النجوم وفي معانيها لا أنه نظر إليها تعظيما وتقديسا كما كان يفعل قومه ، مريدا بذلك أن يوهمهم أنه يعلم ما يعلمون.

أو أن المراد تأمل في الكون والسماء وأطال الفكر ، قال قتادة : إن العرب تقول للشخص إذا تفكر وأطال الفكرة : نظر في النجوم ، أي أطال الفكرة فيما هو فيه.

ج ٢٣ ، ص : ١١٢

(١٠٨/٢٣)

فَقالَ : إِنِّي سَقِيمٌ أي مريض عليل ، قاصدا بذلك أنه مريض القلب من إقبال قومه على الكفر والشرك وعبادة الأوثان.

والخلاصة : إن نظر إبراهيم في النجوم ، وقوله : إِنِّي سَقِيمٌ من قبيل التورية ، فإنه أراد شيئا ، وفهموا منه شيئا آخر ، تمهيدا لخطته التي بيّتها في أن يكايد أصنامهم ، حينما سيخرجون من الغد في يوم عيد لهم ، وذلك بالتخلف عن الخروج معهم ، دون أن يطلعوا على ما بيّت عليه النية.

وبه يتبين أن إبراهيم عليه السلام لم يقدم على النظر إلى النجوم كما يفعل عبدتها ، فذلك غير جائز ، ولم يكن كاذبا في قوله : إِنِّي سَقِيمٌ.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ أي تركوه وذهبوا إلى عيدهم ومعبدهم.

فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ ، فَقالَ : أَلا تَأْكُلُونَ ؟ أي فمال خفية وذهب في سرعة إلى تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها ، وقد وضعوا لها الطعام في عيدهم لتباركه ، وقال لها تهكما واستهزاء : ألا تأكلون من هذا الطعام المقدم إليكم ؟

ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ ؟ أي ما الذي يمنعكم من النطق والجواب عن سؤالي ؟ ومراده التهكم والاحتقار ، لأنه يعلم أنها جمادات لا تنطق.

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ فمال عليهم يضربهم بقوة وشدة حتى حطمهم إلا كبيرا لهم ، كما في سورة الأنبياء.

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ أي فأقبل إليه قومه بعد عودتهم من عيدهم مسرعين ، يسألون عمن كسرها ، وقد قيل : إنه إبراهيم ، وعرفوا أنه هو ، فقالوا له : نحن نعبدها وأنت تكسرها ؟ !! ولما جاؤوا يعاتبونه ، أخذ يؤنبهم ويعيبهم ، فقال : قالَ : أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ ؟ أي أتعبدون من دون اللّه أصناما أنتم تصنعونها

وتنحتونها بأيديكم ؟

ج ٢٣ ، ص : ١١٣

(١٠٩/٢٣)

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ أي واللّه هو الجدير بالعبادة ، لأنه الخالق ، خلقكم وخلق تلك الأصنام التي تعملونها بأيديكم. وفيه دلالة على أن اللّه خلق الإنسان وخلق أعماله.

روى البخاري عن حذيفة رضي اللّه عنه مرفوعا قال : « إن اللّه تعالى يصنع كل صانع وصنعته » .

فلما قامت عليهم الحجة لجؤوا إلى الانتقام بالقوة والإيذاء ، فقالوا :

قالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ أي ابنوا له بنيانا واسعا واملؤوه حطبا كثيرا ، وأضرموا فيه النار ، ثم ألقوه في تلك النار المسعرة.

فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً ، فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ أي أرادوا به سوءا بحيلة ومكر ، وإحراقه في النار ، فأنجيناه منها ، وجعلناها بردا وسلاما عليه ، ولم تؤثر فيه أدنى تأثير ، وجعلنا له النصر والغلبة ، وجعلناهم المهزومين المغلوبين الأذلّين حيث أبطلنا كيدهم.

ولما نجا إبراهيم عليه السلام ونصره اللّه على قومه ، وأيس من إيمانهم قرر الهجرة ومفارقتهم ، كما قال تعالى :

وَقالَ : إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ أي إني مهاجر من بلد قومي الذين آذوني ، تعصبا للأصنام ، وكفرا باللّه ، وتكذيبا لرسله ، إلى حيث أمرني بالمهاجرة إليه ، حيث أتمكن من عبادته ، وإنه سيهديني إلى ما فيه صلاح ديني ودنياي ، وهو الأرض المقدسة بالشام.

وهذا دليل على وجوب الهجرة من المكان إلى مكان آخر ، إذا لم يتمكن المؤمن من إقامة شعائر دينه.

وفي أثناء الهجرة دعا ربه بأن يرزقه الولد ، فقال :

ج ٢٣ ، ص : ١١٤

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ أي رب هب لي ولدا صالحا يعينني على طاعتك ، ويؤنسني في الغربة.

(١١٠/٢٣)

فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ أي فبشرناه بصبي ذكر يكبر ويصير ذا حلم كثير. وهذا الغلام كما قال ابن كثير : هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشّر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد ، ولإبراهيم عليه السلام

ست وثمانون سنة (٨٦) وولد إسحاق ، وعمر إبراهيم عليه السلام تسع وتسعون سنة (٩٩).

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- الأنبياء والرسل وإن طال الزمان بينهم مهمتهم واحدة وهي الدعوة إلى توحيد اللّه والإيمان بالرسل وبالبعث ، وإلى أصول الأخلاق والفضائل.

٢- كان إبراهيم الخليل عليه السلام ذا قلب مخلص من الشرك والشك ، ناصح للّه عز وجل في خلقه ، عالم بأن اللّه حق ، وأن الساعة قائمة ، وأن اللّه يبعث من في القبور.

٣- من جملة آثار سلامة قلب إبراهيم عليه السلام أن دعا أباه وقومه إلى التوحيد ، فقال : ما ذا تَعْبُدُونَ ؟ قاصدا بذلك الكلام تقبيح طريقتهم ولومهم على فعلهم.

٤- ندد بعبادتهم الأصنام ، مبينا أنها إفك وأسوأ الكذب ، وحذر من سخط اللّه حين لقائه ، وقد عبدوا غيره.

٥- لجأ إلى الإيهام وأخذ بالتورية في أمرين أظهر فيهما شيئا ، وأراد شيئا

ج ٢٣ ، ص : ١١٥

آخر ، وهما النظر في النجوم ، وقوله : إِنِّي سَقِيمٌ ، قاصدا بالأول أنه يعلم بعلوم النجوم ، وأنه تفكر فيما يعمل لما كلّفوه الخروج معهم ، وبالثاني أنه سيمرض مرض الموت ، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ، ثم يموت ، فتوهموا هم أنه سقيم الآن ، وهذا تورية وتعريض ، كما قال للملك لما سأله عن سارّة : هي أختي ، يعني أخوة الدين.

و

في الصحيح الذي أخرجه أحمد والشيخان عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : « لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام إلا ثلاث كذبات »

و الكذب تعريضا والتورية أمر جائز مباح. وقيل : أراد أنه سقيم النفس لكفرهم ووثنيتهم.

٦- دبر إبراهيم عليه السلام خطة ناجحة لتحطيم الأصنام ، فقد مكث في البلدة حينما خرج القوم لعيدهم ومعبدهم ، بعد أن قدموا طعاما لأصنامهم لتباركه بزعمهم ، أو للسدنة ، فجاء إليهم ، وخاطبهم كما يخاطب العقلاء قائلا على جهة التهكم والاستهزاء : أَلا تَأْكُلُونَ ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ ؟ فلم يجيبوا ، وهو يعلم ذلك ، فانهال عليهم ضربا بقوة وشدة ، حتى دمرهم إلا كبيرا لهم ، كما في سورة الأنبياء ، لإلزام القوم بالحجة ، وتعريفهم خطأهم وأن هذه الأصنام لا تقدر حماية أنفسها.

٧- أقبل إليه القوم مسرعين ، بعد أن عرفوا أن الفاعل هو إبراهيم ، فقالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ فقال محتجا : أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ ؟ أي أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها بأيديكم ، والنحت : النجر والبري.
ثم قال : وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ أي خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام بالخشب والحجارة وغيرهما ، وبإيجاز : خلقكم وعملكم.
وقد استدل أهل السنة بهذه الآية على أن الأفعال خلق للّه عز وجل ، واكتساب للعباد ، وفي هذا إبطال مذاهب القدرية والجبرية.
أخرج البخاري
ج ٢٣ ، ص : ١١٦
عن أبي هريرة مرفوعا كما تقدم عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : « إن اللّه خالق كل صانع وصنعته »
و
أخرجه البيهقي من حديث حذيفة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : « إن اللّه عز وجل صنع كل صانع وصنعته ، فهو الخالق ، وهو الصانع سبحانه » .
٨- تشاور القوم في أمر إبراهيم عليه السلام لما غلبهم بالحجة فقالوا : ابنوا له بنيانا ، تملؤونه حطبا ، فتضرمونه ، ثم ألقوه فيه وهو الجحيم. قال عبد اللّه بن عمرو بن العاص : فلما صار في البنيان قال : حسبي اللّه ونعم الوكيل.

و أرادوا بإبراهيم الكيد ، أي المكر والاحتيال لإهلاكه ، فجعلهم اللّه المقهورين المغلوبين الأذلين ، إذ نفذت حجته من حيث لم يمكنهم دفعها ، ولم ينفذ فيه مكرهم ولا كيدهم.
٩- الهجرة والعزلة واجبة إذا لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر دينه ، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام ، وذلك حين خلصه اللّه من النار قالَ : إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي أي مهاجر من بلد قومي ومولدي ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ، فإنه سَيَهْدِينِ فيما نويت إلى الصواب. قال مقاتل : هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارّة ، إلى الأرض المقدسة وهي أرض الشام.
١٠- مشروعية الدعاء بالولد ، فلما عرف إبراهيم عليه السلام أن اللّه مخلصه ، دعا اللّه ليعضده بولد يأنس به في غربته ، فقال : رب هب لي ولدا صالحا من الصالحين ، فبشره اللّه تعالى على لسان الملائكة- كما تقدم في هود- بغلام يكون حليما في كبره ، فكأنه بشّر ببقاء ذلك الولد ، لأن الصغير لا يوصف بذلك.

ج ٢٣ ، ص : ١١٧

- ٢- قصة الذبيح [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٠٢ الى ١١٣]

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦)

وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (١٠٩) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)

(١١٣/٢٣)

وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

الإعراب :

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ مَعَهُ متعلق بمحذوف لا ببلغ ، فإن بلوغهما لم يكن معا ، كأنه قال :

فلما بلغ السعي ، فقيل : مع من ؟ فقيل : معه.

فَانْظُرْ ما ذا تَرى من الرأي ، وليس من رؤية العين ، وما ذا في موضع نصب ب تَرى . ويجوز جعل فَلَمَّا استفهامية في موضع رفع مبتدأ ، وذا بمعنى الذي في موضع خبر المبتدأ.

فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ في جواب « لمّا » ثلاثة أوجه : إما محذوف تقديره : فلما أسلما رحما أو سعدا ، وإما نادَيْناهُ والواو زائدة ، وإما تَلَّهُ والواو زائدة ، والوجه الأول أوجه.

البلاغة :

مُحْسِنٌ وَظالِمٌ بينهما طباق.

ج ٢٣ ، ص : ١١٨

المفردات اللغوية :

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ أي وصل إلى السن التي تمكنه من أن يسعى معه في أعماله ويعينه ، قيل : بلغ سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة إِنِّي أَرى أي رأيت ، ورؤيا الأنبياء حق ، وأفعالهم بأمر اللّه تعالى.

قيل : إنه رأى ليلة التروية أن قائلا يقول له : إن اللّه يأمرك بذبح ابنك ، فلما أصبح روّى أنه من اللّه أو من الشيطان ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من اللّه ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة ، فهمّ بنحره ، ولهذا سميت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفة والنحر.

من الذبيح ؟

قال البيضاوي : والأظهر أن المخاطب به إسماعيل ، لأنه الذي وهب له إثر الهجرة ، ولأن البشارة بإسحاق معطوفة على البشارة بهذا الغلام ، و

لقوله ص فيما رواه الحاكم في المناقب : « أنا ابن الذبيحين »

(١١٤/٢٣)

فأحدهما جدّه إسماعيل ، والآخر أبوه عبد اللّه ، فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا ، إن سهل اللّه له حفر بئر زمزم ، أو بلغ بنوه عشرة ، فلما سهل اللّه له ذلك ، أقرع ، فخرج السهم على عبد اللّه ، ففداه بمئة من الإبل ، ولذلك ثبتت الدية مائة ، ولأن ذلك كان بمكة ، وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة ، حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير ، ولم يكن إسحاق ثمة ، ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه ، فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقا.

وما

روي أنه ص سئل : أي النسب أشرف ؟ فقال : « يوسف صدّيق اللّه ، ابن يعقوب إسرائيل اللّه ، ابن إسحاق ذبيح اللّه ، ابن إبراهيم خليل اللّه »

فالصحيح أنه قال : « يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » والزوائد من الراوي. وما روي أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك ، لم يثبت « ١ » .

وقال ابن كثير : وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكي ذلك عن طائف من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي اللّه عنهم أيضا ، وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقي إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وأخذ ذلك مسلّما من غير حجة ، وهذا كتاب اللّه شاهد ومرشد إلى أنه- الذبيح- إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ « ٢ » .

فَانْظُرْ ما ذا تَرى من الرأي ، شاوره ليتهيأ للذبح ، وينقاد للأمر به ، وليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء اللّه ، فيثبت ، ويسلّم الأمر للّه يا أَبَتِ التاء عوض عن ياء الإضافة

---

(١) تفسير البيضاوي : ٥٩٥

(٢) تفسير ابن كثير : ٤/ ١٤

افْعَلْ ما تُؤْمَرُ أي ما تؤمر به ، وإنما ذكر بلفظ المضارع لتكرر الرؤيا مِنَ الصَّابِرِينَ على الذبح أو على قضاء اللّه.

(١١٥/٢٣)

فَلَمَّا أَسْلَما استسلما لأمر اللّه ، وخضعا وانقادا له وَتَلَّهُ كبّه على وجهه ، لئلا يرى فيه تغيرا يرق له ، فلا يذبحه ، أو أضجعه على شقه ، فوقع جبينه على الأرض. وكان ذلك عند الصخرة بمنى. والجبين : أحد جانبي الجبهة ، والجبهة : بين جبينين ، واللام في قوله لِلْجَبِينِ لبيان ما صرع عليه ، كقوله تعالى : يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ [الإسراء ١٧/ ١٠٩]. صَدَّقْتَ الرُّؤْيا حققت ما طلب منك بالعزم والإتيان بالمقدمات إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي كما جزيناك نجزي المحسنين لأنفسهم بامتثال الأمر ، وهذا تعليل لتفريج تلك الشدة عنهما ، وهو إحسانهما إِنَّ هذا الذبح المأمور به لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ الاختبار الظاهر الذي يتميز فيه المخلص من غيره. وَفَدَيْناهُ أي المأمور بذبحه ، وهو إسماعيل عليه السلام على الأرجح ، وقيل :

إسحاق بِذِبْحٍ بكبش يذبح بدله عَظِيمٍ عظيم الجثة ، سمين. واستدل به الحنفية على أن من نذر ذبح ولده ، لزمه ذبح شاة.

وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أبقينا عليه ثناء حسنا في الأجيال اللاحقة سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ أي سلام منا عليه كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين لأنفسهم بطاعة اللّه تعالى إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ علة الإحسان.

(١١٦/٢٣)

وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ بشارة بولد آخر بأن يوجد إسحاق ، وهو دليل على أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ مقضيا نبوته ، مقدرا كونه من الصالحين وَبارَكْنا عَلَيْهِ على إبراهيم في أولاده وَعَلى إِسْحاقَ ولد إبراهيم ، بأن جعلنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم ، أي أكثر الأنبياء من نسله ، مثل أيوب وشعيب عليهما السلام. مُحْسِنٌ مؤمن وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ كافر عاص مُبِينٌ بيّن الكفر ، ظاهر الظلم. قال البيضاوي : وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال ، وإن الظلم في أعقاب إبراهيم وإسحاق لا يعود عليهما بنقيصة وعيب.

المناسبة :

هذه تتمة القصة الثانية- قصة إبراهيم عليه السلام ، فبعد أن قال سبحانه وتعالى : فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ

أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه سن الطاقة على العمل. ثم أتبعه بقصة الذبيح إسماعيل والفداء ، ثم بشره تعالى

ج ٢٣ ، ص : ١٢٠

بإسحاق نبيا من الصالحين ، مباركا عليه وعلى إسحاق ، وجعل أكثر الأنبياء من نسلهما ، وأن من ذريتهما محسن فاعل للخير ، وظالم لنفسه بالمعاصي.

التفسير والبيان :

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ : يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ ما ذا تَرى أي فلما كبر إسماعيل وشبّ وبلغ الحد الذي يقدر فيه على السعي والعمل ، قال الفرّاء : « كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة » قال إبراهيم لابنه المأمور بذبحه وهو ابنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، وقال بعد ذلك : وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قال له :

(١١٧/٢٣)

يا بني إني رأيت في المنام أني أذبحك ، فما رأيك ؟ وقد أخبره بذلك ليستعد لتنفيذ أمر اللّه ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر اللّه ، وليعلم صبره لأمر اللّه ، وإلا فرؤيا الأنبياء وحي لازم الامتثال.

وأما ما ذكر في التوراة : « اذبح بكرك وحيدك إسحاق » فكلمة إسحاق من زياداتهم وتحريفهم لكتاب اللّه ، وإلا فإن « إسحاق » لم يكن بكر إبراهيم ، ولم يكن وحيده ، بل الذي كان كذلك هو إسماعيل. ثم لما بذل إبراهيم ابنه للذبح وأطاع ، أعطاه اللّه ولدا آخر هو إسحاق.

فأجابه إسماعيل معلنا الطاعة قائلا :

قالَ : يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ أي قال إسماعيل : امض لما أمرك اللّه من ذبحي ، وافعل ما أوحي إليك ، سأصبر على القضاء الإلهي ، وأحتسب ذلك عند اللّه عز وجل.

وهذا مصداق وصفه السابق بالحلم ، ومصداق ما أخبر اللّه عنه بقوله : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ ، وَكانَ رَسُولًا نَبِيًّا. وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ، وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا [مريم ١٩/ ٥٤- ٥٥].

ج ٢٣ ، ص : ١٢١

و بدأ تنفيذ أمر اللّه ، فقال تعالى :

فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ أي فلما استسلما وانقادا لأمر اللّه وأطاعاه ، وفوّضا أمرهما إلى اللّه ، وأكب إبراهيم ابنه على وجهه حتى لا تأخذه العاطفة فيتردد في الذبح ، أو ألقاه على جنبه ، فوقع جبينه (جانب الجبهة) على الأرض والموضع الذي أراد ذبحه فيه : هو المنحر بمنى عند الجمار.

قال مجاهد : قال إسماعيل لأبيه : لا تذبحني وأنت تنظر إلى وجهي ، عسى أن ترحمني ، فلا تجهز عليّ ، اربط يدي إلى رقبتي ، ثم ضع وجهي للأرض ، ففعل.

(١١٨/٢٣)

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال : لما أمر إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام بالمناسك ، عرض له الشيطان عند السعي ، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه السلام ، ثم ذهب به جبريل عليه السلام إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات ، حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه بسبع حصيات ، وثم تلّه للجبين ، وعلى إسماعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قميص أبيض ، فقال له : يا أبت ، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنني فيه ، فعالجه ليخلعه ، فنودي من خلفه : أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا فالتفت إبراهيم ، فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا أن نتتبع ذلك الضرب من الكباش.

وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا لما أضجعه للذبح ناداه من خلفه من الجبل ملك : قد حصل المقصود من رؤياك ، وتحقق المطلوب وصرت مصدّقا بمجرد العزم ، وإن لم تذبح ، وأتيت بما أمكنك.

ثم عدد اللّه تعالى نعمه على إبراهيم وهي :

ج ٢٣ ، ص : ١٢٢

١- إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي مثلما جازيناك بالعفو عن الذبح ، والتخلص من الشدة والمحنة ، نجزي كل محسن على طاعته ، ونثيبه على فعله.

وهو تعليل لما أنعم اللّه على إبراهيم وابنه من الفرج بعد الشدة والسلامة من المحنة.

ثم عظم اللّه تعالى شأن هذه المحنة في العادة ، فقال :

إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ أي إن هذا الاختبار لهو الاختبار الصعب الواضح والمحنة التي لا محنة أصعب منها ، حيث اختبره اللّه في مدى طاعته بذبح ولده ، فصبر محتسبا الأجر عند ربه. وقيل : إن هذا لهو النعمة الظاهرة ، يقال : أبلاه اللّه إبلاء وبلاء : إذا أنعم عليه.

(١١٩/٢٣)

٢- وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ أي جعلنا له فداء ولده بتقديم كبش عظيم الجثة سمين ، أو عظيم القدر. قال الحسن البصري : ما فدي إسماعيل إلا بتيس من الأروى (وعل) هبط عليه من ثبير ، فذبحه إبراهيم

فداء عن ابنه. وهذا قول علي رضي اللّه عنه.

وفي هذا دليل على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر. وهو مذهب المالكية ، لطيب اللحم.

٣- وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ أي أبقينا له في الأمم القادمة ثناء حسنا وذكرا جميلا ، فأحبّه أتباع الملل كلها ، اليهودية والنصرانية والإسلام ، وكذا أهل الشرك ، كما قال تعالى : وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ.

سلام منا على إبراهيم ومن الملائكة والإنس والجن. وقيل : السلام : هو الثناء الجميل.

كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي مثل هذا الجزاء نجزي جميع المحسنين بالفرج

ج ٢٣ ، ص : ١٢٣

بعد الشدة. ولم يذكر هنا « إنا » كأمثاله اكتفاء بذكره السابق عن ذكره هنا مرة ثانية.

٤- وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ أي ووهبناه ولدا آخر وهو إسحاق ، وجعلناه نبيا صالحا من زمرة الصالحين. وهذه هي النعمة الرابعة.

٥- وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ أي تابعنا إمدادهما بالنعم والبركات الدنيوية والأخروية ، ومنها كثرة الولد والذرية ، وجعل أكثر الأنبياء من نسلهما ونسل إسماعيل.

وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ أي إن بعض ذريتهما محسن فاعل للخيرات ، وبعضها ظالم لنفسه بالكفر والمعاصي.

و هذا دليل على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال ، وأن النفع ليس بالوراثة والنسب أو الانتماء ، وإنما الانتفاع بالأعمال ، وأنه لا يعيب الأصول ولا ينتقصهم سوء بعض ذريتهم ، لقوله تعالى : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى [الأنعام ٦/ ١٦٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١- أمر اللّه تعالى إبراهيم عليه السلام في المنام ثلاث ليال متتابعات ، لا في اليقظة بذبح ابنه ، لأنه تعالى جعل رؤيا الأنبياء عليهم السلام حقا ، لتقوية الدلالة على كونهم صادقين. قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ. وقال سبحانه في حق يوسف عليه السلام : إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ [يوسف ١٢/ ٤]. وقال تعالى في حق محمد ص خاتم النبيين : لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ .. [الفتح ٤٨/ ٢٧].

ج ٢٣ ، ص : ١٢٤

٢- احتج أهل السنة بهذه الآية على أن اللّه تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه ، فإنه سبحانه أمر بالذبح ، وما أراد وقوعه.

٣- احتجوا أيضا بالآية على جواز نسخ الحكم قبل وجود زمن الامتثال.

٤- إن الذبيح بحسب دلالة هذه الآيات وترتيبها هو إسماعيل عليه السلام ، لأنه هو المبشر به أولا ، وأما إسحاق فبشّر به بعد إسماعيل ، مما يدل على أن إسماعيل هو الابن الأكبر ، وهو الذي كان ذبيحا بالاتفاق عند الأكثرين. ولو كان الذبيح إسحاق ، لكان الذبح يقع ببيت المقدس ، لا بالمنحر من منى ، وهذا موضع الذبح اتفاقا.

ويؤيده أدلة أخرى منها :

قول النبي ص فيما رواه الحاكم في المناقب : « أنا ابن الذبيحين »

(١٢١/٢٣)

أي إسماعيل ، وأبيه عبد اللّه الذي نذر أبوه عبد المطلب أن يذبح ولدا إذا رزق عشرة من الولد ، أو إذا سهل اللّه عليه حفر بئر زمزم ، فتم له الأمران ، فأقرع ، فخرج السهم على عبد اللّه ، فمنعه أخواله وقالوا له : افد ابنك بمئة من الإبل ، ففداه بمئة من الإبل.

ومنها : ما نقل عن الأصمعي أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعي ، أين عقلك ؟ ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه ، والمنحر بمكة.

ومنها : أن اللّه تعالى وصف إسماعيل بالصبر ، دون إسحاق ، في قوله تعالى :

وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ [الأنبياء ٢١/ ٨٥] وهو صبره على الذبح ، ووصفه أيضا بصدق الوعد في قوله : إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ [مريم ١٩/ ٥٤] لأنه وعد أباه الصبر على الذبح ، فوفى به.

ومنها : الآثار الصحيحة المقطوع بها بان الذبيح إسماعيل عليه السلام ، وهو

ج ٢٣ ، ص : ١٢٥

منقول عن ابن عباس ، وابن عمر ، وعلي ، وأبي هريرة ، وأبي الطّفيل عامر بن واثلة من الصحابة ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري ، ومجاهد ، والشعبي ، ويوسف بن مهران ، والربيع بن أنس ، ومحمد بن كعب القرظي ، والكلبي ، وعلقمة ، وأبي جعفر محمد بن علي ، وأبي صالح من التابعين رضي اللّه عنهم ، قالوا : الذبيح إسماعيل « ١ » . قال القرطبي : وهذا القول أقوى

في النقل عن النبي ص وعن الصحابة والتابعين.
ولكن اليهود حسدوا العرب على هذا الفضل بأن يكون أبوهم إسماعيل هو الذبيح ، فزادوا في التوراة وحرفوها ، ودسّوا في روايات الآثار وبعض الأحاديث أن الذبيح إسحاق ، وسرى ذلك بين بعض الصحابة وبعض المسلمين محتجين بدليلين :
الأول– إنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام قبل هذه الآية أنه قال :

إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ والمراد منه بالإجماع مهاجرته إلى الشام ، ثم قال : فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحاق.
ثم قال بعده : فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ والغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام ، فثبت أن مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسحاق. وكذلك آخر الآية يدل أيضا على ذلك ، لأنه تعالى لما تمم قصة الذبيح قال بعده : وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وإنما بشره بهذه النبوة لتحمّله هذه الشدائد في قصة الذبيح ، فأول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام.
الثاني– ما اشتهر من كتاب يعقوب عليه السلام ونصه : « من يعقوب إسرائيل نبي اللّه بن إسحاق ذبيح اللّه بن إبراهيم خليل اللّه » .

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/ ١٧– ١٩ ، تفسير الرازي : ٢٦/ ١٥٣ وبعدها ، تفسير القرطبي : ١٥/ ١٠٠ ، تفسير الخازن ٦/ ٢٢.

و هذا هو المروي الصحيح عن عبد اللّه بن مسعود : أن رجلا قال له : يا ابن الأشياخ الكرام ، فقال عبد اللّه : ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح اللّه بن إبراهيم خليل اللّه عليه السلام.
وروي ذلك أيضا عن عمر ، وجابر ، والعباس ، وكعب الأحبار من الصحابة ، وعن بعض التابعين مثل قتادة ، ومسروق ، وعكرمة ، وعطاء ، ومقاتل ، والزهري ، والسدّي ، وعن مالك بن أنس ، كلهم قالوا : الذبيح إسحاق. لكن يلاحظ أن لكعب الأحبار في هذه الأخبار ضلعا واضحا ، وهي أخبار من الكتب القديمة غير موثوقة ، وتلقاها بعض المسلمين عنه ، وسرت فيما بينهم. وقد نقلنا عن ابن كثير والبيضاوي تفنيد هذه الروايات.
وكان الزجاج يقول : اللّه أعلم أيهما الذبيح ؟ وهذا مذهب ثالث.

(١٢٣/٢٣)

٥- الحكمة في مشاورة إبراهيم ابنه بقوله : فَانْظُرْ ما ذا تَرى : أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ، ليظهر له صبره في طاعة اللّه ، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم ، والصبر درجة عالية ، وليحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة ، والثناء الحسن في الدنيا ، فقال إسماعيل : سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. وإنما علّق ذلك بمشيئة اللّه تعالى على سبيل التبرك والتيمن ، وأنه لا حول عن معصية اللّه إلا بعصمة اللّه ، ولا قوة على طاعة اللّه إلا بتوفيق اللّه. قال بعض أهل الإشارة : لما استثنى ، وفقه اللّه للصبر.

٦- قوله فَلَمَّا أَسْلَما أي انقادا لأمر اللّه : دليل على أن الأب والابن كانا في درجة واحدة من التسليم والتفويض لأمر اللّه تعالى.

٧- عدد اللّه تعالى بمناسبة هذه القصة على إبراهيم عليه السلام- كما تقدم- نعما خمسا : هي جزاؤه الحسن إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي نجزيهم بالخلاص

ج ٢٣ ، ص : ١٢٧

من الشدائد في الدنيا والآخرة ، والفداء العظيم بالكبش ، والثناء الحسن بين الأمم والسلام من اللّه ، وبشارته بولد آخر ، وجعل أكثر الأنبياء من بني إسرائيل وغيرهم من ذريته وذرية إسحاق وإسماعيل.

٨- الفداء بالكبش دليل- كما تقدم- على أن الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر.

واختلف العلماء : هل الأضحية أفضل أو الصدقة بثمنها ؟ قال مالك وأصحابه : الضحية أفضل إلا بمنى ، لأنه ليس موضع الأضحية. وقال أصحاب الرأي : إن الضحية أفضل ، كذلك قال أحمد بن حنبل : الضحية أفضل من الصدقة ، لأن الضحية سنة مؤكدة كصلاة العيد. ومعلوم أن صلاة العيد أفضل من سائر النوافل ، وكذلك صلوات السنن أفضل من التطوع كله.

و

(١٢٤/٢٣)

قد روي في فضل الضحايا آثار حسان ، منها ما خرّجه الترمذي عن عائشة أن رسول اللّه ص قال : « ما عمل آدمي من عمل يوم النحر أحبّ إلى اللّه من إهراق الدم ، إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها ، وإن الدم ليقع من اللّه بمكان قبل أن يقع على الأرض ، فطيبوا بها نفسا » .

والأضحية عند الجمهور ليست بواجبة ، ولكنها سنة ومعروف.

وقال أبو حنيفة : الأضحية واجبة على المقيمين الواجدين من أهل الأمصار ، ولا تجب على المسافر.

وخالفه أبو يوسف ومحمد ، فقالا : ليست بواجبة ولكنها سنة ، غير مرخص لمن وجد السبيل إليها في

تركها.

والذي يضحى به بإجماع المسلمين : الأزواج الثمانية : وهي الضأن والمعز والإبل والبقر. والأخيران يجزئ الواحد منهما عن سبعة.

ويتّقى من الضحايا- كما روى الخمسة (أحمد وأصحاب السنن الأربعة) عن

ج ٢٣ ، ص : ١٢٨

البراء بن عازب- أربع : « العرجاء البين ضلعها (عرجها) ، والعوراء البيّن عورها ، والمريضة البيّن مرضها ، والعجفاء التي لا تنقي » « ١ » . و

في الخبر الذي رواه أحمد والأربعة عن علي : « أمرنا رسول اللّه ص أن نستشرف العين والأذن .. » .

٩- دلت الآية على أن من نذر نحر ابنه أو ذبحه : أنه يفديه بكبش ، كما فدى به إبراهيم ابنه ، قال ذلك ابن عباس. وعنه رواية أخرى : ينحر مائة من الإبل كما فدى بها عبد المطلب ابنه. روى الشعبي عنه الروايتين. والأولى أصح.

وقال الشافعي : هو معصية يستغفر اللّه منها.

وقال أبو حنيفة : هي كلمة يلزمه بها في ولده ذبح شاة ، ولا يلزمه في غير ولده شي ء. وهذا قول ابن العربي أيضا ، لأن اللّه تعالى جعل ذبح الولد عبارة عن ذبح الشاة شرعا ، فألزم اللّه إبراهيم ذبح الولد ، وأخرجه عنه بذبح شاة ، واللّه تعالى يقول : مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ [الحج ٢٢/ ٧٨] والإيمان : التزام أصلي ، والنذر التزام فرعي ، فيجب أن يكون محمولا عليه.

(١٢٥/٢٣)

١٠- بشر اللّه بنبوة إسحاق من الأنبياء الصالحين ، وكان هذا بعد إيراد قصة الذبيح ، مما يدل على أنه إسماعيل. قال المفضل : الصحيح الذي يدل عليه القرآن أنه إسماعيل ، وذلك أنه قص قصة الذبيح ، فلما قال في آخر القصة : وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ.

ثم قال : سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ. كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ قال : وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَبارَكْنا عَلَيْهِ أي على إسماعيل وعلى إسحاق ، كنى به ، لأنه قد تقدم ذكره ، ثم قال : وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما فدل على أنها ذرية إسماعيل وإسحاق ، وليس تختلف الرواة في أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة. والأدق أن يقال : باركنا على إبراهيم في أولاده.

---

(١) النّقي : مخّ العظام وشحمها ، يريد أنه لا يوجد فيها شحم لهزالها وضعفها.

ج ٢٣ ، ص : ١٢٩

١١- لما ذكر تعالى البركة في الذرية والكثرة ، قال : منهم محسن ومنهم مسيء ، وأن المسيء لا تنفعه بنوة النبوة ، فاليهود والنصارى ، وإن كانوا من ولد إسحاق ، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل ، فلا بد من الفرق بين المحسن والمسيء ، والمؤمن والكافر. وفي التنزيل رد عليهم : وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى : نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ الآية [المائدة ٥/ ١٨] أي أبناء رسل اللّه ، فرأوا لأنفسهم فضلا.

قصة موسى وهارون عليهما السلام [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١٤ الى ١٢٢]

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨)

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)

المفردات اللغوية :

مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ نجيناهما من تغلب فرعون واستعباده بني إسرائيل قومهما ، ومن الغرق وَنَصَرْناهُمْ الضمير يعود عليهما مع القوم ، والنصر على القبط فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ على فرعون وقومه.

وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ البليغ في بيانه وفيما أتى به من الحدود والأحكام وغيره ، وهو التوراة الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ الطريق الموصل إلى الحق والصواب وَتَرَكْنا أبقينا عليهما ثناء حسنا سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ سلام منا عليهما إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين المطيعين للّه.

إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ شهادة لهما بالإيمان ، وهي علة الإحسان إليهما.

ج ٢٣ ، ص : ١٣٠

المناسبة :

هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة ، فبعد أن ذكر اللّه تعالى إنجاء إسماعيل من الذبح ، ونجاة إبراهيم من النار ، ذكر هنا ما منّ به على موسى وهارون من وجوه الإنعام المحصورة في نوعين : إيصال المنافع إليهما في قوله تعالى : وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ ودفع المضار عنهما في قوله تعالى : وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ.

التفسير والبيان :

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ أي تاللّه لقد أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية.
أما منافع الدنيا كما ذكر الرازي : فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما.
وأما منافع الدنيا : فالعلم والطاعة ، وأعلى هذه الدرجات : النبوة الرفيعة ، المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة. وتفصيل هذه النعم في قوله تعالى :
١- وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ أي ونجيناهما وقومهما بني إسرائيل من استعباد فرعون إياهم ، بقتل الآباء واستحياء النساء وتشغيلهم في أخسّ الأشياء والصناعات والمهن ، كما نجيناهما مع القوم من الغرق الذي أهلك فرعون وقومه قبط مصر.
٢- وَنَصَرْناهُمْ ، فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ أي نصرناهم على أعدائهم ، فغلبوهم ، وأخذوا أرضهم وأموالهم التي جمعوها طوال حياتهم ، فكانوا أصحاب الدولة بعد أن كانوا رعية أذلاء.
٣- وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ أي وأنزلنا عليهما الكتاب العظيم الواضح الجلي الشامل لأمور الدنيا والآخرة ، وهو التوراة ، كما قال تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ .. [المائدة ٥/ ٤٤] وقال

سبحانه : وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ [الأنبياء ٢١/ ٤٨].
٤- وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ أرشدناهما إلى طريق الحق والصواب في الأقوال والأفعال ، والإسلام وشرع اللّه.
٥- وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ أبقينا لهما من بعدهما ذكرا حسنا جميلا وثناء حسنا في الأمم المتأخرة.
قال ابن كثير والشوكاني وغيرهما : ثم فسره بقوله : سَلامٌ ... إلخ. وقال آخرون : الآتي كلام مستقل ، وهو ما أرجحه ، لكثرة الفوائد.

٦- سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ أي سلام منا على موسى وهارون ، ومن الملائكة والإنس والجن أبد الدهر.
والسبب ما قاله تعالى :
إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ أي مثل هذا الجزاء نجزي بالخلاص من الشدائد والمحن كل من أحسن عمله فأطاع اللّه وانقاد له ، وعلة الإحسان : أنهما من زمرة عبادة اللّه المؤمنين إيمانا صحيحا كاملا.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١- أنعم اللّه على موسى وهارون بنعم كثيرة دينية ودنيوية ، أرفعها درجة النبوة ، ثم ذكر تعالى هذه النعم وهي :

أ- نجاهما وقومهما بني إسرائيل من الرق الذي لحق بني إسرائيل واستعباد فرعون لهم ، وقيل : من الغرق الذي لحق فرعون.

ب- نصرهما وقومهما على أعدائهم قبط مصر.

ج ٢٣ ، ص : ١٣٢

ج- أنزل عليهما التوراة الكتاب المنير الواضح البليغ في بيانه الشامل لمصالح الدنيا والآخرة.

د- هداهما إلى الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ، وهو دين الإسلام بالمعنى العام القائم على التوحيد ، وأرشدهما إلى طريق الحق والصواب ، وأمدهما بالتوفيق والعصمة.

هـ- أبقى عليهما الثناء الحسن بين الأمم ، وتلك نعمة عظمي.

و- حظيا بالسلام من اللّه تعالى ومن الملائكة والإنس والجن أبد الدهر.

٢- إن سنة اللّه تعالى الدائمة الجزاء الحسن للمحسنين أعمالهم بالخلاص من الشدائد ، والسلامة من المحن ، وذلك يشمل موسى وهارون عليهما السلام وأمثالهما.

٣- إن سبب هذه الفضائل : الإيمان الذي هو أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل.

قصة إلياس عليه السلام [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٢٣ الى ١٣٢]

وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)

ج ٢٣ ، ص : ١٣٣

الإعراب :

اللَّهَ رَبَّكُمْ .. اللَّهَ : منصوب على أنه بدل من قوله تعالى : أَحْسَنَ الْخالِقِينَ ويقرأ بالرفع على الابتداء ، ورَبَّكُمْ : الخبر.

وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ مفعول تَرَكْنا محذوف ، تقديره : وتركنا عليه في الآخرين الثناء الحسن ، ثم

ابتدأ فقال : سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ.
سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ سَلامٌ : مبتدأ ، وخبره الجار والمجرور بعده ، والجملة في موضع نصب ب تَرَكْنا.
وإِلْ ياسِينَ : إما لغة في إلياس كميكال وميكائيل ، وإما جمع (إلياسي) فحذف ياء النسب ، كالأعجميين والأشعريين ، وإنما حذفت لثقلها وثقل الجمع ، وقد تحذف هذه في جمع التكسير ، وفي جمع التصحيح مثل المهالبة جمع المهالبيّ.
البلاغة :
تَدْعُونَ وَتَذَرُونَ بينهما طباق.
المفردات اللغوية :

(١٣٠/٢٣)

إِلْياسَ أحد أنبياء بني إسرائيل ، وهو إلياس بن ياسين سبط هارون أخ موسى ، بعث بعده ، أرسل إلى قوم في بعلبك ونحوها. إِذْ منصوب بفعل مقدر هو : اذكر. قالَ لِقَوْمِهِ : أَلا تَتَّقُونَ أي تتقون اللّه ، فتعبدونه ، وتتركون ما ينهاكم اللّه عنه من الشرك والمعاصي ، فتأمنون عذاب اللّه. أَتَدْعُونَ بَعْلًا أي أتعبدون بعلا وهو اسم لصنم من ذهب ، كان لأهل بعلبك ، وبه سمي البلد أيضا مضافا إلى (بك) في لبنان. وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ تتركون عبادة اللّه تعالى الذي هو أحسن المصورين الخالقين.
اللَّهَ رَبَّكُمْ .. الذي يربيكم بنعمه بعد أن أوجدكم من العدم ، أنتم وأجدادكم ، فهو الذي تحقّ له العبادة. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ الذين اصطفاهم اللّه للطاعة ، وأخلصوا للّه العبادة ، فهم ناجون من العذاب. وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أبقينا عليه ثناء حسنا.
سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ أي سلام منا على إلياس ، أو عليه وعلى قومه الذين آمنوا معه ، فجمعوا تغليبا ، كقولهم للمهلب وقومه : المهلبون. وقرئ : آل ياسين بالمد ، والمراد به أهل إلياس.
إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أي مثل ذلك الجزاء نجزي كل من أحسن عمله للّه. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ علة الإحسان المتقدم.
ج ٢٣ ، ص : ١٣٤
المناسبة :
هذه هي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة ، والمقصود بها بيان جهود النبي إلياس عليه السلام أحد أنبياء بني إسرائيل في الدعوة إلى توحيد اللّه ، ومقاومة الشرك وعبادة الأصنام ، كمن تقدمه من الأنبياء مثل نوح وإبراهيم عليهما السلام.
التفسير والبيان :

وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام ، بعثه اللّه في بني إسرائيل بعد حزقيل عليه السلام ، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له (بعل) فدعاهم إلى توحيد اللّه تعالى ، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ : أَلا تَتَّقُونَ أي اذكر حين قال لقومه : هلا تخافون اللّه عز وجل في عبادتكم غيره ، وتتركون ما ينهاكم عنه من الشرك والمعاصي.

أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ ، اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ أي أتعبدون صنما أنتم صنعتموه ، وتتركون عبادة المستحق للعبادة وحده لا شريك له ؟ فهو الذي صوّركم وأنشأكم ، وهو أحسن المصورين الخالقين ، ولا خالق سواه ، وهو الذي يربيكم بنعمه بعد أن أوجدكم من العدم ، أنتم وأجدادكم.

ويلاحظ الترتيب أنه لما عابهم على عبادة غير اللّه ، صرح بالتوحيد ونفي الشركاء.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أي فكذبوا دعوته ونبوته ، فصاروا بسبب تكذيبه لمحضرون في العذاب يوم القيامة ، ويجازون على ما قدموا من سوء الأعمال.

ج ٢٣ ، ص : ١٣٥

ثم استثنى اللّه تعالى من كان مؤمنا من قومه ، الذين وحدوا اللّه توحيدا خالصا وعبدوه ، وأخلصوا العمل للّه ، فهؤلاء ناجون من العذاب ، مثابون ثوابا حسنا على صالح أعمالهم ، لا يحضرون العقاب المقرر للمشركين.

ثم ذكر اللّه تعالى ما أنعم به على النبي إلياس ، فقال :

وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أي أبقينا عليه ثناء جميلا في الأمم المتتالية.

سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ أي سلام من اللّه وملائكته وإنسه وجنّه على إلياس الذي آمن بكتاب اللّه ، وقاوم الشرك والوثنية. وفي قراءة آل ياسين أي عليه وعلى أهل دينه الذين آمنوا برسالته ، واتبعوا الحق.

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ أي كما جازيناه بالتخلص من الشدة والمحنة ، نجازي كل محسن عمله للّه تعالى ، وعلة الجزاء الحسن : أنه مؤمن من جملة عباد اللّه المصدقين بوجود اللّه وتوحيده واتصافه بالصفات الحسنى.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- إن إلياس عليه السلام أحد الأنبياء المرسلين إلى قومه الذين عبدوا الأصنام ، وتركوا عبادة اللّه تعالى.

٢- لقد حذّرهم إلياس من عذاب اللّه ، وعابهم على عبادة الأصنام ، وأمرهم بما فيه ترغيب وتعقل أمرا بعبادة اللّه الخالق الرازق المنعم ، الذي يربيهم بنعمه ، هم وأجدادهم المتقدمون ، وكذا الأجيال اللاحقة إلى يوم القيامة.

٣- أخبر اللّه تعالى عن قوم إلياس أنهم كذبوه فاستحقوا الإحضار إلى عذاب جهنم في الآخرة.

ج ٢٣ ، ص : ١٣٦

٤- نجّى اللّه من العذاب الذين آمنوا باللّه من قومه.

٥- أبقى اللّه على إلياس الثناء الجميل في الأمم المتعاقبة والأجيال المتلاحقة.

٦- سلام من اللّه وملائكته وإنسه وجنّه على إلياس على مدى الحياة.

٧- يجزي اللّه الجزاء الأوفى كل من أحسن عمله للّه تعالى ، وسبب الجزاء لإلياس ومن آمن معه : أنه مؤمن باللّه إيمانا صادقا خالصا من أي شائبة.

قصة لوط عليه السلام [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٣٣ الى ١٣٨]

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣(٣) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣(٤) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧)

وَ بِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)

المفردات اللغوية :

وَ إِنَّ لُوطاً هو لوط بن هاران أخي إبراهيم عليه السلام ابن تارح ، آمن بإبراهيم ، وأرسله اللّه إلى أهل سدوم أهل المنكرات والمعاصي والفواحش. الْغابِرِينَ الباقين في العذاب.

دَمَّرْنَا

أهلكنا. الْآخَرِينَ

كفار قومه. وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ

و إنكم يا أهل مكة لتمرون على منازلهم وآثارهم في أسفاركم ومتاجركم إلى الشام ، فإن (سدوم) في طريقه.

مُصْبِحِينَ

وقت الدخول في الصباح ، أي أول النهار. وَبِاللَّيْلِ
أي وفي المساء. أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟
أ فليس فيكم عقل تعتبرون به يا أهل مكة ؟
المناسبة :
هذه هي القصة الخامسة من قصص هذه السورة ، ذكرها تعالى ليعتبر بها مشركو العرب ، فإن الذين كفروا وعصوا من قوم لوط عليه السلام هلكوا ، والذين آمنوا نجوا.
ج ٢٣ ، ص : ١٣٧
التفسير والبيان :
وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ أي وإن لوطا من الأنبياء الذين أرسلهم اللّه إلى قومه (أهل سدوم) لارتكابهم الفواحش ، فنصحهم فأبوا نصحه ، فأهلكهم اللّه بالزلزال أو بالصيحة والحجارة المحرقة ، فجعل بلادهم عاليها سافلها ، ونجاه وأهله الذين آمنوا به إلا امرأته ، كما قال تعالى :
إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ أي نجينا لوطا وأهله المؤمنين به جميعا ، إلا امرأته ، فإنها هلكت وبقيت في العذاب ، لرضاها بفعل القوم ، وتواطؤها معهم على القوم الذين يأتون إلى لوط عليه السلام.
ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ
أي ثم أهلكنا قومه الذين كذّبوا برسالته وهم أهل الفاحشة (اللواط) عدا من نجيناهم.
وهنا نبّه اللّه تعالى مشركي مكة إلى الاعتبار بمصير هؤلاء المكذبين العصاة ، فقال :
وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ

(١٣٤/٢٣)

أي وإنكم يا أهل مكة تمرون على منازلهم التي فيها آثار العذاب في وقت الصباح ، أي بالنهار ذهابا إلى الشام ، وفي الليل أثناء رجوعكم من الشام أفلا تتدبرون بعقل واع ، وتتعظون بما تشاهدونه في ديارهم من آثار التدمير وعقوبة اللّه النازلة بهم ، فتخافوا من أن يحلّ بكم نفس العذاب ، وتصيروا إلى مثل المصير ، لمخالفتهم رسولهم.
وأشار اللّه تعالى إلى الصباح والليل ، لأن المسافر في أكثر الأمر إنما يمشي في الليل وفي أول النهار.
فقه الحياة أو الأحكام :
يقص اللّه تعالى قصص الأنبياء السابقين للعظة والعبرة ، ومن هذه
ج ٢٣ ، ص : ١٣٨

القصص : قصة لوط عليه السلام مع قومه أهل سدوم ، فأرشدهم إلى عبادة اللّه تعالى ، وترك عبادة الأصنام ، واجتناب الفواحش والمنكرات ، ومنها إتيان الرجال ، فكذبوه وعصوا أمر ربهم ، فعاقبهم اللّه بالزلزال ، فدمر ديارهم وأهلكهم ، ونجّى اللّه لوطا وأهله الذين آمنوا برسالته إلا زوجته التي كانت راضية بأفعال القوم ، وتدلهم على ضيوف لوط عليه السلام.

هذه عبرة وأي عبرة ، لذا حذّر تعالى مشركي مكة الذين يرون في أسفارهم ومتاجرهم إلى الشام آثار ذلك الدمار ، ونبههم إلى ضرورة العظة والاعتبار بمصير هؤلاء الذين كذبوا رسولهم ، حتى لا يحل بهم ما حل بغيرهم.

قصة يونس عليه السلام [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٣٩ الى ١٤٨]

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣)

(١٣٥/٢٣)

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (١٤٨)

الإعراب :

أَوْ يَزِيدُونَ أَوْ : إما للتخيير ، أي يتخير الرائي في أن يعدهم مائة ألف أو يزيدون ، وإما للشك من الرائي ، إذا رآهم شك في عدتهم لكثرتهم ، وإما بمعنى (بل) وإما بمعنى الواو ، والوجهان الأولان مذهب البصريين ، والوجهان الآخران مذهب الكوفيين.

البلاغة :

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

في أَبَقَ

استعارة تصريحية ، شبه خروج يونس عليه السلام بغير إذن ربه بإباق العبد ، أي هربه من سيده.

ج ٢٣ ، ص : ١٣٩

المفردات اللغوية :

وَإِنَّ يُونُسَ

هو نبي اللّه يونس بن متى ، من أنبياء اليهود بني إسرائيل في الظاهر أرسله اللّه عقيب نبوته إلى مدينة كبري ليدعو أهلها (هم أهل نينوى) إلى توحيد اللّه ، وترك الوثنية.

أَبَقَ

أصل الإباق : الهرب من السيد ، والمراد هنا أنه ترك البلد بغير إذن ربه. الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ السفينة المملوءة في صورة المغاضب لربه ، وهو في الحقيقة غاضب من قومه ، لمّا لم ينزل بهم العذاب الذي وعدهم به ، فركب السفينة ، فوقفت في لجّة البحر ، فقال الملاحون : هنا عبد أبق (هرب) من سيده ، تظهره القرعة.

فَساهَمَ

فقارع من في الفلك ، أي اقترع أهل السفينة. الْمُدْحَضِينَ

(١٣٦/٢٣)

المغلوبين بالقرعة ، فقال : أنا الآبق ، فألقوه في البحر. فَالْتَقَمَهُ ابتلعه. مُلِيمٌ آت بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر ، وركوبه السفينة بلا إذن من ربه. الْمُسَبِّحِينَ الذاكرين اللّه كثيرا بالتسبيح مدة عمره ، وفي بطن الحوت بقوله : لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [الأنبياء ٢١/ ٨٧]. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أحياء ، أي لصار بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة.

فَنَبَذْناهُ ألقيناه من بطن الحوت ، بأن حملنا الحوت على لفظه. بِالْعَراءِ بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت ، في الساحل ، في يومه أو بعد أيام ، واللّه أعلم ، روي أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ، حتى انتهوا إلى البر ، فلفظه.

وَهُوَ سَقِيمٌ عليل مما ناله ، قيل : صار بدنه كبدن الطفل حين يولد. وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ أي فوقه. شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وهو الدّباء أو القرع المعروف ، غطّته بأوراقها عن الذباب ، وظلّلته بساق على خلاف العادة في امتداد القرع على الأرض ، معجزة له ، وقيل : هو الموز يتغطى بورقه ، ويستظل بأغصانه ، ويفطر على ثماره ، وقيل : التين.

قيل لرسول اللّه ص : إنك لتحب القرع ؟ قال : « أجل ، هي شجرة أخي يونس » .

ويقال : وكانت تأتيه وعلة صباحا ومساء يشرب من لبنها حتى قوي.

وَأَرْسَلْناهُ بعد ذلك إلى قوم هم أهل نينوى من أرض الموصل. إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ في مرأى الناظر ، إذا نظر إليهم قال : هم مائة ألف أو أكثر ، والمراد : الوصف بالكثرة.

فَآمَنُوا عند معاينة أمارات العذاب الموعودين به. فَمَتَّعْناهُمْ أبقيناهم ممتعين بما لهم في الدنيا. إِلى حِينٍ إلى أجلهم المسمى ومنتهى أعمارهم.

المناسبة :

هذه هي القصة السادسة والأخيرة في هذه السورة ، وإنما جعلت خاتمة

للقصص ، لأن يونس عليه السلام لما لم يصبر على أذى قومه ، وأبق إلى الفلك ، وقع في تلك الشدائد ، وفي هذا عبرة ودرس وتعليم للنبي ص ليصبر على أذى قومه.

جاء في الصحيحين عن رسول اللّه ص أنه قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى »

ونسبه إلى أمه ، و

في رواية : إلى أبيه.

التفسير والبيان :

ذكر اللّه يونس في القرآن باسمه أربع مرات « ١ » ، وذكره بوصفه مرتين ، في سورة الأنبياء : وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً [٨٧] وفي سورة القلم :

وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ ، إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ [٤٨].

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

إن يونس بن متى وهو ذو النون أحد الأنبياء المرسلين إلى قومه أهل نينوى بالموصل. قال المفسرون : كان يونس قد وعد قومه العذاب ، فلما تأخر عنهم العذاب ، خرج عنهم وقصد البحر ، وركب السفينة ، فكان كالفارّ من مولاه ، فوصف بالإباق.

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ

أي اذكر حين هرب من قومه مغاضبا قومه إلى السفينة المملوءة بغير إذن ربه ، فقارع أهل السفينة ، فكان من المغلوبين في القرعة التي اقترعوها ليلقوا بعضهم في البحر ، خوفا من غرق السفينة الثقيلة الحمولة ، فألقوه في البحر بعد أن وقعت القرعة عليه ثلاث مرات.

وأصل الإباق : هرب العبد من السيد ، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه ، وصف به.

فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فابتلعه الحوت ، وهو مليم نفسه على ما فرط

---

(١) في سورة النساء (١٦٣) والأنعام (٨٦) ويونس (٩٨) والصافات (١٣٩).

ج ٢٣ ، ص : ١٤١

منها أو هو آت ما يلام عليه ، من ترك قومه بغير إذن ربه ، وكان عليه أن يصبر على أذى قومه.

والخروج بغير إذن اللّه كبيرة على الأنبياء ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أي لو لا أنه كان في حياته من الذاكرين اللّه كثيرا ، المسبحين بحمده ، المصلين له ، للبث ميتا في بطن الحوت ، وصار له قبرا إلى يوم القيامة ، لأن العادة أن يهضم كسائر أنواع الغذاء.

جاء في الحديث الصحيح الذي ذكره النووي في الأربعين النووية عن ابن عباس في رواية غير الترمذي : « تعرّف إلى اللّه في الرخاء يعرفك في الشدة »

وكما كان مسبّحا ربه في حياته ، سبح اللّه في بطن الحوت ، كما قال عز وجل :

فَنادى فِي الظُّلُماتِ : أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنا لَهُ ، وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ [الأنبياء ٢١/ ٨٧- ٨٨].

فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ألقيناه ، بأن جعلنا الحوت يلقيه ، في مكان خال ليس فيه شجر ولا نبت ولا بناء ، على جانب دجلة ، وهو عليل الجسم ضعيف البدن ، كهيئة الصبي حين يولد.

وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ أي أنبتنا عليه شجرة فوقه تظلل عليه هي شجرة الدّبّاء وهو القرع ، وهذا سريع النمو ، وقدرة اللّه تجعل الشيء كن فيكون. ذكر بعضهم في القرع فوائد : منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمرته ، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبّه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول اللّه ص كان يحب الدباء ، ويتتبعه من حواشي الصّحفة. وقد مكث يونس في هذه الحالة حتى اشتد لحمه ونبت شعره ، ثم جاءه الأمر الإلهي :

وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ، فَآمَنُوا ، فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ أي

ج ٢٣ ، ص : ١٤٢

(١٣٩/٢٣)

أرسله اللّه عائدا إلى القوم الذين هرب منهم إلى البحر ، وهم أهل نينوى من أرض الموصل ، وعددهم مائة ألف ، بل أكثر من ذلك ، فهم يزيدون عن هذا العدد ، فدعاهم إلى ربه مرة أخرى ، فصدقوه كلهم وآمنوا به ، بعد ما شاهدوا أعلام نبوته ، وأمارات العذاب ، فمتعهم اللّه في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ومنتهى أعمارهم ، كقوله تعالى : فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا ، كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ [يونس ١٠/ ٩٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت قصة يونس إلى ما يأتي :

١- وقعت حادثة التقام الحوت يونس عليه السلام بعد أن صار رسولا ، لقوله تعالى : وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ

الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

أي أنه كان من المرسلين حينما أبق إلى الفلك.

٢- لا يصح لنبي المهاجرة عن بلد القوم الذين أرسل إليهم إلا بإذن ربه ، فلما ذهب يونس عليه السلام بغير إذن ربه ، وصف فعله بالإباق. قال العلماء :

إنما قيل ليونس : أبق عن العبودية ، لأنه خرج بغير أمر اللّه عز وجل ، مستترا من الناس. وإنما العبودية : ترك الهوى ، وبذل النفس عند أمور اللّه عز وجل ، فلما آثر هواه لزمه اسم الآبق.

ولم يبين لنا القرآن الكريم سبب إباقه ، وقد فهم ذلك بالأمارات.

٣- القرعة جائزة شرعا ، وملزمة الأثر كالقسمة ، لقوله تعالى : فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . لكن المستقر في تشريعنا أنه لا يجوز الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر ، وإنما تطبق عليه الحدود والتعزيرات على مقدار جنايته.

وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه ، وزيادة في إيمانه.

ج ٢٣ ، ص : ١٤٣

٤- أتى يونس عليه السلام بما يلام عليه ، فأصابته القرعة ثلاث مرات ، فألقوه في البحر ، تخفيفا لحمولة السفينة ، فالتقمه الحوت ، وهو آت بما يلام عليه.

٥- لم يبين القرآن الكريم مدة لبثه في بطن الحوت ، لذا اختلف العلماء في تعيين المدة ، فقيل : بعض يوم ، أو ساعة واحدة ، وقيل : ثلاثة أيام ، وقيل :

سبعة أيام ، وقيل : عشرين يوما ، وقيل : أربعين يوما « ١ » . والمعول عليه أن اللّه أبقاه حيا في بطن الحوت ، فجعله عسير الهضم عليه ، في مدة قليلة أو كثيرة ، معجزة له.

٦- لقد نجى اللّه تعالى يونس عليه السلام ، لأمرين : أنه كان من المسبحين الذاكرين اللّه كثيرا طوال عمره ، ومن تعرف على اللّه وقت الرخاء عرفه وقت الشدة ، وأنه أعلن توبته في بطن الحوت الذي حماه اللّه من هضمه ، فقال :

لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. لذلك قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر. وقال الحسن البصري : ما كان له صلاة في بطن الحوت ، ولكنه قدم عملا صالحا في حال الرخاء ، فذكّره اللّه به في حال البلاء ، وإن العمل الصالح ليرفع صاحبه ، وإذا عثر وجد متكأ.

ومن هذا المعنى

قوله ص فيما رواه الضياء عن الزبير : « من استطاع منكم أن تكون له خب (أي خبيئة) من عمل صالح

فليفعل »

أي فليجتهد العبد ، ويحرص على خصلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاقته وفقره ، ويسترها عن خلقه ، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه.

أما تسبيحه فقال القرطبي : الأظهر أنه تسبيح اللسان الموافق للجنان.

جاء في كتاب أبي داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ص قال : « دعاء ذي النون

---

(١) تفسير القرطبي : ١٥/ ١٢٣

ج ٢٣ ، ص : ١٤٤

في بطن الحوت : لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له » .

(١٤١/٢٣)

٧- كان من تتمة نعمة اللّه على يونس عليه السلام أنه بعد أن ألقاه الحوت ، وهو في حال من الضعف ، بساحل قرية من الموصل ، أنبت عليه لحمايته وتظليله شجرة من يقطين. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : طرح يونس بالعراء ، وأنبت اللّه عليه يقطينة ، قلنا : يا أبا هريرة ، وما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدّبّاء ، هيأ اللّه له أروية « ١ » وحشية تأكل من خشاش الأرض- أو هشاش الأرض- فتفشج « ٢ » عليه ، فترويه من لبنها ، كل عشية وبكرة حتى نبت.

٨- بعد أن اشتد لحمه ونبت شعره ، أعاده اللّه إلى قومه الذين يزيد عددهم عن مائة ألف ، فدعاهم إلى ربه ، فآمنوا لما رأوا أعلام نبوته ، ليظهر اللّه إرادته وقدرته له في الإيمان ، ولما آمنوا أزال اللّه الخوف عنهم ، وآمنهم من العذاب ، ومتعهم اللّه بمتاع الدنيا إلى منتهى أعمارهم.

تفنيد عقائد المشركين [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٤٩ الى ١٧٠]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ (١٦١) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)

(١٤٢/٢٣)

وَ ما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨)
لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)

---

(١) الأروية : الأنثى من الوعول. [.....]

(٢) تفشج : تفرج ما بين رجليها.

ج ٢٣ ، ص : ١٤٥

الإعراب :

أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ مكسورة بعد أَلا لأنها مبتدأة ، ولو لا اللام في لَيَقُولُونَ لجاز فتحها على أن تكون أَلا بمعنى : حقا ، تقول : أحقا أنك منطلق.

أَصْطَفَى الْبَناتِ .. قرئ بهمزة من غير مد ، أصله « اصطفى » بهمزة وصل ، فأدخلت عليه همزة الاستفهام ، فاستغني بها عن همزة الوصل ، فحذفت ، مثل « أستغفرت » . ومن قرأه بالمد أبدل من همزة الوصل مدة كإبدال همزة لام التعريف ، نحو : آلرجل عندك ، ونحو آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ [يونس ١٠/ ٥٩].

إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ مَنْ : في موضع نصب ب بِفاتِنِينَ وقرئ صالِ الْجَحِيمِ وفيه ثلاثة أوجه : إما حذف لام صالِ وهي الياء ، وإما قلب اللام التي هي الياء من « صالي » إلى موضع العين ، فصار « صايل » ثم حذف الياء ، فبقيت اللام مضمومة ، وفيه بعد ، وإما أصله « صالون » جمع صال ، حملا على معنى « من » فحذفت النون منه للإضافة ، وحذف الواو لالتقاء الساكنين.

وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ تقديره : وما منا أحد إلا له مقام معلوم.

وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ إن : مخففة من الثقيلة ، وتقديره : وإنهم كانوا ليقولون ، ودخلت اللام فرقا بين المخففة والثقيلة.

البلاغة :

الْبَناتِ والْبَنِينَ بينهما طباق.

أَ لِرَبِّكَ الْبَناتُ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ : تتابع الاستفهام للتوبيخ.

وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً التفات من الخطاب إلى الغيبة ، والأصل : وتجعلون ، للإهمال والإبعاد من رحمة اللّه.

المفردات اللغوية :

فَاسْتَفْتِهِمْ استخبرهم واطلب منهم الفتيا توبيخا لهم ، وهو معطوف على مثله في أول السورة ، فإنه تعالى أمر رسوله أولا باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة ، حيث جعلوا للّه البنات ، ولأنفسهم البنين ، في قولهم : الملائكة بنات اللّه. أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ بزعمهم أن الملائكة بنات اللّه. وَلَهُمُ الْبَنُونَ فيختصون بالأعلى ، ويجعلون للّه الأدنى.

وَهُمْ شاهِدُونَ الخلق ، لأن أمثال ذلك لا يعرف إلا بالشهود أو الحضور.

أَمْ بمعنى « بل » الإضرابية ، مع همزة الاستفهام. إِفْكِهِمْ الإفك : أشد الكذب.

وَلَدَ اللَّهُ بقولهم : الملائكة بنات اللّه. لَكاذِبُونَ فيما ادعوه ، وتدينوا به. أَصْطَفَى اختار ، والاصطفاء : أخذ صفوة الشي ء. وهو استفهام إنكار واستبعاد.

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ هذا الحكم الفاسد الذي لا يرتضيه عقل. أَفَلا تَذَكَّرُونَ أنه منزه عن ذلك من الولد والشريك والند والنظير. سُلْطانٌ مُبِينٌ حجة واضحة ، نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته ، أو أن للّه ولدا. فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ

الذي أنزل عليكم. إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

في ادعائكم أو قولكم ذلك.

(١٤٤/٢٣)

وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً أي جعل المشركون بينه تعالى وبين الملائكة نسبا أي صلة وارتباطا بقولهم : إنها بنات اللّه ، وسموا بالجنّة لاستتارهم عن الأبصار. وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ إن الكفرة قائلي ذلك. لَمُحْضَرُونَ للنار للعذاب فيها. سُبْحانَ اللَّهِ تنزيها للّه. عَمَّا يَصِفُونَ من الولد (بأن للّه ولدا) والنسب إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أي لكن عباد اللّه الذين اصطفاهم ربهم ينزهون اللّه تعالى عما يصفه هؤلاء ، وهو استثناء منقطع.

فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ من الأصنام ، وهو عود لخطابهم. ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ على اللّه بِفاتِنِينَ أحدا ، مفسدين الناس بالإغواء ، حاملين إياهم على الضلال والفتنة. وعليه : متعلق بفاتنين. إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ إلا من سبق في علم اللّه تعالى أنه من أهل النار يصلاها لا محالة ، يقال : صلي النار : دخلها.

وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ أي قال جبريل للنبي ص : ما منا معشر الملائكة أحد إلا له مقام معلوم في

السموات ، يعبد اللّه فيه لا يتجاوزه. وهذا اعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبدتهم. وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ صفوفا في أداء الطاعة ومنازل الخدمة. وَإِنَّا لَنَحْنُ

ج ٢٣ ، ص : ١٤٧

الْمُسَبِّحُونَ

المنزهون اللّه عما لا يليق به. وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ أي وإن كان كفار مكة ليقولون. وَإِنْ مخففة من الثقيلة أي وإنهم.

لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ كتابا من الكتب التي أنزلت على الأمم الماضية. لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ لأخلصنا العبادة له ، ولم نخالف مثلهم. فَكَفَرُوا بِهِ أي لما جاءهم القرآن الذي هو أشرف الأذكار والمهيمن عليها كفروا به. فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة كفرهم.

سبب النزول :

نزول الآية (١٥٨) :

(١٤٥/٢٣)

وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ .. : أخرج جويبر عن ابن عباس قال : أنزلت هذه الآيات في ثلاثة أحياء من قريش : سليم ، وخزاعة ، وجهينة : وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً. ونقل الواحدي عن المفسرين أنهم قالوا : إن قريشا وأجناس العرب : جهينة وبني سلمة ، وخزاعة ، وبني مليح قالوا : الملائكة بنات اللّه.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد قال : قال كبار قريش :

الملائكة بنات اللّه ، فقال لهم أبو بكر الصديق : فمن أمهاتهم ؟ قالوا ، بنات سراة الجن ، فأنزل اللّه وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ.

نزول الآية (١٦٥) :

وَإِنَّا لَنَحْنُ .. : أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك قال : كان الناس يصلون متبددين ، فأنزل اللّه : وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ فأمرهم النبي ص أن يصفوا.

المناسبة :

بعد افتتاح هذه السورة بتوبيخ المشركين على إنكارهم البعث ، وبعد بيان قصص الأنبياء التي هي في الأعم الأغلب درس بليغ للمشركين ، بدأ اللّه تعالى

ج ٢٣ ، ص : ١٤٨

ببيان عقائد المشركين وتفنيدها وتقبيحها ، ومن تلك العقائد : إثبات الأولاد للّه تعالى ، ونسبة البنات للّه بقولهم : « الملائكة بنات اللّه » وجعل البنين لأنفسهم ، ثم افتراؤهم بجعل الملائكة إناثا لا ذكورا

، ثم أعلن تعالى حملته الشديدة على المشركين ، فأبان أنهم عاجزون عن إضلال أحد إلا إذا كان هو من أهل الضلال وأصحاب الجحيم ، في علم اللّه السابق. وناسب بعدئذ إيراد تصريح الملائكة بعبوديتهم للّه للرد على المشركين الذين زعموا أنهم بنات اللّه.

التفسير والبيان :

(١٤٦/٢٣)

عطف اللّه تعالى هذه الآيات على قوله في أول السورة : فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا فقال : فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أي استخبرهم يا محمد على سبيل التوبيخ ، وسلهم مؤنبا ومقرعا ومنكرا على هؤلاء المشركين في قسمتهم وسفه عقولهم ، في جعلهم لأنفسهم البنين ، وهو النوع الجيد ، وللّه تعالى البنات التي يكرهونها أشد الكره ، كما قال تعالى : وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ [النحل ١٦/ ٥٨] أي يسوؤه ذلك ، ولا يختار لنفسه إلا البنين ، فكيف يجعلون للّه أدنى الجنسين وهو الإناث ، ولهم أعلاها وهم الذكور ؟ .

والمراد بالآية : بيان جور القسمة وإظهار شدة الغرابة ، كيف نسبوا إلى اللّه تعالى النوع الذي لا يختارونه لأنفسهم ؟ كما في قوله عز وجل : أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى ، تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى [النجم ٥٣/ ٢١- ٢٢].

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ بل كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث ، وما شاهدوا خلقهم ؟ وهذا انتقال عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه ، فكيف جعلوهم إناثا ، وهم لم يحضروا عند خلقنا لهم ، وذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة ، ولم يشهدوا ، فلم يقم لهم دليل يدل على قولهم ، لا من النقل الصحيح ، ولا من العقل السليم.

ج ٢٣ ، ص : ١٤٩

و نظير الآية قوله سبحانه : وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ [الزخرف ٤٣/ ١٩] أي ويسألون عن ذلك يوم القيامة.

(١٤٧/٢٣)

أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ : وَلَدَ اللَّهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ أي إن قولهم هذا هو من الكذب والافتراء ، الذي لا دليل له ولا شبهة دليل. فكيف يقولون : صدر منه الولد ، إنهم فيما يقولون أكذب الكاذبين. وبه يتبين أنهم ذكروا في الملائكة ثلاثة أوصاف في غاية الكفر والكذب ، وهي أنهم جعلوهم بنات اللّه

، فنسبوا الولد للّه ، وجعلوا ذلك الولد أنثى ، ثم عبدوهم من دون اللّه.

ثم أنكر اللّه تعالى عليهم حكمهم الجائر فقال :

أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟ المعنى : أي شيء يحمله على اختيار البنات دون البنين ؟ كما قال تعالى :

أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً ؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً [الإسراء ١٧/ ٤٠] أي كيف يعقل تفضيله البنات على البنين ، مع أن البنين أفضل ؟

أليس لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ؟ أفلا تعتبرون وتتفكرون فتتذكروا بطلان قولكم ؟ .

أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ ؟ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ المعنى : بل ألكم حجة واضحة على هذا القول ؟ فإن كان لكم برهان ، فهاتوا برهانا على ذلك ، مستندا إلى كتاب منزّل من السماء عن اللّه تعالى أنه اتخذ ما تقولونه ، إن صدقتم في ادعائكم.

ج ٢٣ ، ص : ١٥٠

و يلاحظ من تتابع هذه الاستفهامات وتكرارها مدى التوبيخ والتبكيت والإنكار الشديد لأقاويلهم ، وتسفيه أحلامهم ، فإن ما يقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يجوزه العقل أصلا.

ثم أكد اللّه تعالى افتراء المشركين على اللّه بنسبة الملائكة إليه نسبا ، فقال :

وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً أي جعل المشركون بين اللّه وبين الجن وهم هنا الملائكة صلة نسب ، فقالوا : الملائكة بنات اللّه ، وسموا جنا لاجتنانهم واستتارهم عن الأبصار.

والقائل بهذه المقالة كنانة وخزاعة ، قالوا : إن اللّه خطب إلى سادات الجن ، فزوجوه من سروات بناتهم ، فالملائكة بنات اللّه من سروات بنات الجن ، تعالى اللّه عما يقولون علوا كبيرا. وما هذا إلا وهم واختراع القصاصين منهم ، وقيل :

القبائل هم اليهود ، قالوا لعنهم اللّه : إن اللّه صاهر الجن ، فكانت الملائكة من بينهم. وكل هذا بسبب تشبيه الخالق عز وجل بالبشر ، ووصفه بالمادية الجسدية ، وهو كفر.

ثم أخبر اللّه تعالى عن عذابهم قائلا :

وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أي وتاللّه ، لقد علمت الملائكة الذين ادعى المشركون أن بينهم وبينه تعالى نسبا ، إن أولئك المشركين لمحضرون للحساب والعذاب في النار ، لكذبهم وافترائهم بقولهم المتقدم.

ثم نزّه اللّه تعالى نفسه عن كل ما لا يليق به من نقائص البشر ، قائلا.

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ أي تنزه اللّه تعالى وتقدس عن أن يكون له ولد ، وعما يصفه به الظالمون الملحدون ، وتعالى علوا كبيرا.

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أي لكن عباد اللّه المخلصين وهم المتّبعون للحق

ج ٢٣ ، ص : ١٥١

المنزل على كل نبي مرسل ناجون ، فلا يحضرون إلى عذاب النار ، وهذا استثناء منقطع.

ثم تحدى اللّه تعالى المشركين ، وأثبت عجزهم عن إضلال أحد أو فتنته ، فقال مخاطبا المشركين :

(١٤٩/٢٣)

فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ. ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ. إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ « ١ » الْجَحِيمِ أي فإنكم وآلهتكم التي تعبدون من دون اللّه لستم بقادرين على فتنة أحد عن دينه وإضلاله إلا من هو أضل منكم ممن هو من أهل الجحيم الذي سبق في علم اللّه تعالى أنهم لما علم من سوء استعدادهم ممن يدخلون النار ويصلونها ، وهم المصرّون على الكفر ، كما قال تعالى : لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها ، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها ، أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ [الأعراف ٧/ ١٧٩] فهذا النوع من الناس : هو الذي ينقاد للشرك والضلالة ، كما قال تعالى : إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ، يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ [الذاريات ٥١/ ٨- ٩] أي إنما يضل به من هو مأفوك مبطل.

ثم نزه اللّه تعالى الملائكة مما نسبوا إليه من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات اللّه.

وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ هذا حكاية من اللّه تعالى عما تقوله الملائكة معناه : وما منا ملك إلا له مرتبة معلومة من المعرفة والعبادة والمكان ، لا يتجاوزها. والمراد به الإشارة إلى درجاتهم في طاعة اللّه تعالى ، مبالغة في العبودية للّه عز وجل.

قالت عائشة رضي اللّه عنها : قال رسول اللّه ص : « ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد ، أو قائم » « ٢ » .

---

(١) هذا محمول على معنى من ومعناها جماعة ، فالتقدير : صالون ، ثم حذفت النون للإضافة ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين.

(٢)

رواه ابن مردويه عن أنس بلفظ : « أطت السماء ، ويحق لها أن تئط ، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر ، إلا وفيه جبهة ملك ساجد يسبّح اللّه بحمده » .

ج ٢٣ ، ص : ١٥٢

وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ أي قالت الملائكة أيضا :
وإنا لنحن الصافون صفوفا في مواقف العبودية ، وإنا لنحن المسبحون باللسان وبالصلاة ، المنزهون اللّه تعالى عما لا يليق به ، فنحن عبيد فقراء للّه. والمقصود أن صفات الملائكة هي التذلل والعبادة للّه ، وليسوا كما وصفهم به الكفار من أنهم بنات اللّه ، وهو إشارة إلى درجاتهم في المعارف ، كما أن الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة.
ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : « خرج علينا رسول اللّه ص ، ونحن في المسجد ، فقال : ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربها ، فقلنا : يا رسول اللّه ، كيف تصفّ الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمّون الصفوف الأوّل ، ويتراصّون في الصف » .
و
في صحيح مسلم أيضا عن حذيفة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ص : « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدا ، وتربتها طهورا » .
وكان عمر رضي اللّه عنه إذا قام للصلاة يقول : أقيموا صفوفكم ، واستووا ، إنما يريد اللّه بكم هدي الملائكة عند ربها ، ويقرأ : وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبّر.
ثم ذكّر تعالى بما كان يقول المشركون قبل البعثة النبوية : وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ : لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ ، لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أي إن المشركين كانوا قبل بعثة النبي ص ، إذا عيّروا بالجهل ، قالوا : لو كان عندنا كتاب من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل ، لأخلصنا العبادة للّه ، ولم نكفر به ، فجاءهم محمد ص بالذّكر المبين فكفروا به ، وسوف يعلمون عاقبة كفرهم ومغبته.
وهذا وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم وبالقرآن وبالرسول ص.
ج ٢٣ ، ص : ١٥٣

و ذلك كقوله تعالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً [فاطر ٣٥/ ٤٢] وقوله سبحانه : أَنْ تَقُولُوا : إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا ، وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا : لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ ، فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ ، وَصَدَفَ عَنْها ، سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ [الأنعام ٦/ ١٥٦- ١٥٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما هو آت :

١- من أكاذيب المشركين الوثنيين وافتراءاتهم أنهم قالوا : البنات للّه.

والملائكة بنات اللّه ، والملائكة إناث ، وكل ذلك باطل ، لأنهم نسبوا للّه الولد وهو الذي لم يلد ولم يولد ، وكان يستنكفون من البنت ، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه ، كيف يمكن إثباته للخالق ، ولم يشهدوا كيفية تخليق اللّه الملائكة ، فكيف يزعمون أنهم إناث ؟ !! ٢- لكل هذا وبخهم اللّه تعالى بجمل متتابعة متكررة من الاستفهامات المذكورة في الآيات ، والتي تناقض الحس والعقل والمنطق والنظر ، ولا دليل عليها من نقل يوثق به ، ولا تعتمد على حجة وبرهان.

٣- قال كفار قريش : الملائكة بنات اللّه ، جاعلين نسبا بينه وبينهم ، والملائكة مبرؤون من هذا الزعم ، ويعلمون يقينا أن أولئك الكفار محضرون للعذاب في نار جهنم.

٤- نزّه اللّه تعالى نفسه عما قالوا من الكذب ، وعما وصفوا من المزاعم ،

ج ٢٣ ، ص : ١٥٤

و ذلك تنزيه واجب واقع لا شك فيه ، يستحق ربنا به تمام الحمد والشكر على تعريفنا بما يجب لذاته الكريمة من تقديس.

٥- إن عباد اللّه المخلصين للّه العبادة ، المتبعين أوامر ربهم ، هم الناجون.

٦- لا يقر هؤلاء الكفار ولا آلهتهم التي يعبدون من دون اللّه على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان سبق في علم اللّه أنه من أهل النار ، لإصراره على الكفر ، وعدم استعداده للإيمان.

قال الرازي : وهذا دليل لأهل السنة على أنه لا تأثير لإغواء الشيطان ووسوسته ، وإنما المؤثر قضاء اللّه وتقديره ، لأن قوله تعالى : فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ، ولا تأثير لأحوال معبوديهم في وقوع الفتنة والضلال. وقوله تعالى : إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ يعني إلا من كان كذلك في حكم اللّه وتقديره « ١ » . وهي رد على القدرية. فإن حكم اللّه وقدره لا جبر فيه ولا إكراه.

٧- وصف الملائكة أنفسهم بثلاث صفات ، تعظيما للّه عز وجل ، واعترافا بالعبودية له ، وإنكارا منهم عبادة من عبدهم ، وهي : أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ، ودرجة لا يتعدى عنها ، وأنهم صافون صفوفا في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية ، وأنهم دائما يسبحون اللّه تعالى ، والتسبيح : تنزيه اللّه عما لا يليق به.

وجاءت الصفتان الثانية والثالثة بصفة الحصر ، ومعناه : أنهم في مواقف العبودية لا غيرهم ، وأنهم هم المسبحون لا غيرهم ، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم ، حتى يصح هذا الحصر ، كما ذكر الرازي. ثم عقب على ذلك قائلا : فكيف يجوز مع هذا الحصر أن

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦/ ١٧٠

ج ٢٣ ، ص : ١٥٥

يقال : البشر تقرب درجته من الملك ، فضلا عن أن يقال : هل هو أفضل منه أم لا ؟ !! ٨- إن أخبار قريش عجيبة وغريبة ، سواء قبل البعثة النبوية أم بعدها.

فقد كانوا يتمنون قبل بعثة النبي ص لو كان عندهم من يذكرهم بأمر اللّه ، وما كان من أمر القرون الأولى ، ويأتيهم بكتاب اللّه ، ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار ، والكتاب المهيمن على كل الكتب ، وهو القرآن ، فكفروا به ، وكذبوا رسول اللّه ص ، وما وفوا بما قالوا : فاستحقوا الوعيد والتهديد ، وهو أنهم سوف يعلمون مغبة كفرهم ، وعاقبة تكذيبهم.

نصر جند اللّه تعالى [سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٧١ الى ١٨٢]

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥)

أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠)

وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٨٢)

الإعراب :

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ لَهُمُ : ضمير فصل بين اسم « إن » وهو « هم » وخبرها الْمَنْصُورُونَ وأدخلت اللام على الضمير. ولا يجوز أن يكون لَهُمُ صفة لاسم « إن » ، لأن اللام لا تدخل على الصفة. ويجوز جعل لَهُمُ مبتدأ ، والْمَنْصُورُونَ خبره ، والجملة منهما في موضع رفع خبر « إن » .

ج ٢٣ ، ص : ١٥٦

البلاغة :

فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ استعارة تمثيلية ، شبه العذاب النازل بهم بجيش هجم عليهم بغتة ، فلم ينتصحوا بكلام ناصح ، ولا استعدوا للدفاع ، حتى هزمهم وأفناهم.

(١٥٤/٢٣)

المفردات اللغوية :

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ أي وعدناهم بالنصر والغلبة ، وذلك بقوله تعالى :

لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي [المجادلة ٥٨/ ٢١] وقوله هنا : إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ.

وإنما سماها كلمة وهي كلمات لانتظامها في معنى واحد.

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ الغالبون في الحرب وغيرها ، وهذا باعتبار الغالب ، وبشرط نصرة دين اللّه. إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ

أي إن جندنا المؤمنين أتباع الرسل غالبون الكفار في الدنيا بالحجة والنصرة عليهم ، فإن لم ينتصروا في الدنيا انتصروا في الآخرة.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ أعرض عنهم. حَتَّى حِينٍ أي إلى أن يحين موعد نصرك عليهم وهو في عهد النبوة يوم بدر أو يوم الفتح- فتح مكة. وَأَبْصِرْهُمْ انظر إليهم وارتقب ما ينالهم من الأسر والقتل في الدنيا ، والتعذيب في الآخرة حين نزول العذاب بهم. فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ عاقبة كفرهم ، وما قضينا لك من التأييد والنصر في الدنيا ، والثواب في الآخرة. وسوف للوعيد لا للتبعيد.

أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ ؟ هذا قول من اللّه يتضمن التهديد لهم ، روي أنه لما نزل.

فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ قالوا : متى هذا ؟ فنزل قوله تعالى : فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ أي إذا نزل العذاب بفنائهم : وهو المكان الواسع ، قال الفراء : العرب تكتفي بذكر الساحة عن القوم. فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ أي بئس صباحا صباح المنذرين بالعذاب. وفيه إقامة الظاهر مقام المضمر لتسجيل صفة الإنذار عليهم.

وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ كرره تأكيدا لتهديدهم ، وتسلية للنبي ص. رَبِّ الْعِزَّةِ الغلبة والقوة. عَمَّا يَصِفُونَ بأن له ولدا. وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ المبلغين عن اللّه التوحيد والشرائع. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ على نصرهم وهلاك الكافرين.

(١٥٥/٢٣)

سبب النزول : نزول الآية (١٧٦) :

أَفَبِعَذابِنا .. : أخرج جويبر عن ابن عباس قال : قالوا : يا محمد ، أرنا

ج ٢٣ ، ص : ١٥٧

العذاب الذي تخوفنا به ، عجّله لنا ، فنزلت : أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ وهو صحيح على شرط الشيخين.

التفسير والبيان :

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ أي لقد سبق وعدنا بالنصر والظفر على الكفار في الدنيا والآخرة لعبادنا الرسل الذين أرسلناهم للإنذار والتبشير ، ففي الدنيا : تكون الغلبة والقهر لهم بالأسر والقتل والتشريد أو الإجلاء أو بالحجة والبرهان ، ونحو ذلك ، وفي الآخرة : الظفر بالجنة ، والنجاة من النار ، وهذا في الأعم الأغلب. وجند اللّه : حزبه ، وهم الرسل وأتباعهم.

ونظير الآية قوله تعالى : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة ٥٨/ ٢١] وقوله سبحانه : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ [غافر ٤٠/ ٥١].

وشرط النصر معروف ، وهو الإيمان الصحيح باللّه عز وجل ، والعمل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، والتزام دين اللّه شرعا ودستورا ونظاما ومنهج حياة ، قال تعالى : كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ [الروم ٣٠/ ٤٧] وقال سبحانه : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ [سورة محمد ٤٧/ ٧] وقال عز وجل : وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [الأعراف ٧/ ١٢٨].

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ أي أعرض عنهم ، واصبر على أذاهم لك ، إلى مدة معلومة عند اللّه سبحانه ، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر.

(١٥٦/٢٣)

وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أي أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ، كالأسر والقتل ، وسوف يبصرون كل ما وعدتهم به

ج ٢٣ ، ص : ١٥٨

من العقاب ، وما وعدناك به من النصر وانتشار دينك في الآفاق ، وذلك حين لا ينفعهم الإبصار. وكرر تعالى ذلك تأكيدا.

والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة : الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأن حدوثها قريب ، وفي ذلك تسلية للرسول ص وتنفيس عنه عما يناله من أذى كفار قومه قريش.

ثم وبخهم اللّه تعالى وهددهم على طلبهم تعجيل العذاب قائلا :

أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ ؟ أي كيف يجرءون على استعجال عذابنا الشديد ؟ والواقع أنهم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك ، قائلين :

متى هذا العذاب ؟ والعذاب نازل بهم قطعا لا محالة.

فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ أي فإذا نزل العذاب بهم أو بمحلّتهم ، فبئس ذلك اليوم يومهم ، لإهلاكهم ودمارهم.

ورد في الصحيحين عن أنس رضي اللّه عنه قال : صبّح رسول اللّه ص خيبر ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ، ورأوا الجيش ، رجعوا وهم يقولون : محمد واللّه ، محمد والخميس- الجيش- فقال النبي ص : « اللّه أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين » ورواه أحمد أيضا بلفظ آخر ، وهو صحيح على شرط الشيخين.

وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أي وأعرض أيها الرسول عن هؤلاء المشركين إلى أجل آخر يحين فيه هلاكهم ، وانظر إليهم وارتقبهم ، فسوف يرون ما يحل بهم من عقاب.

وهذا تأكيد لما تقدم من الأمر بالكف عنهم ، والصبر على أذاهم.

ثم ختمت السورة بخاتمة عظيمة فيه تنزيه اللّه تعالى عما لا يليق به ، ومدحه للرسل الكرام ، فقال سبحانه :

ج ٢٣ ، ص : ١٥٩

(١٥٧/٢٣)

سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أي تنزيها لربك أيها الرسول وتقديسا وتبرئة عما يقول الظالمون المكذبون المفترون المعتدون ، فهو رب القوة والغلبة والعزة التي لا ترام ، وسلام اللّه على الرسل الكرام الذين أرسلهم إلى أقوامهم ، في الدنيا والآخرة ، لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته ، والحمد والشكر للّه في الأولى والآخرة في كل حال ، فهو رب الثقلين : الإنس والجن ، دون سواه. وهذا تعليم من اللّه للمؤمنين أن يقولوا ذلك.

روى ابن أبي حاتم عن الشعبي ، والبغوي عن علي كرم اللّه وجهه ، قال :

قال رسول اللّه ص : « من سرّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر ، يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ.

و

وردت أحاديث في كفارة المجلس : « سبحانك اللّهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » .

و

ذكر الثعلبي عن أبي سعيد الخدري قال : « سمعت رسول اللّه ص غير مرة ولا مرتين يقول في آخر صلاته أو حين ينصرف : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- سبق الوعد الإلهي بنصر المرسلين بالحجة والغلبة ، ونصر جند اللّه وهم الرسل وأتباعه على أعدائهم ، وذلك على الغالب. والنصر إما بقوة الحجة ، أو بالدولة والاستيلاء ، أو بالدوام والثبات.

ج ٢٣ ، ص : ١٦٠

٢- كان النبي ص والمؤمنون في مكة قبل الهجرة مأمورين بالكف عن المشركين ، والصفح عنهم ، والصبر على أذاهم ، وترك مقاتلتهم.

(١٥٨/٢٣)

٣- هدد اللّه المشركين وأوعدهم بما سينالهم من عذاب الدنيا والآخرة ، وحينئذ سوف يبصرون حين لا ينفعهم الإبصار.

٤- من الحماقة الشديدة استعجال الكفار وقوع عذاب اللّه ، فإنه لا داعي للاستعجال ، والعذاب واقع بهم لا محالة ، وهو عذاب شديد مدمر ، فإذا حلّ بهم أو بديارهم فبئس صباح الذين أنذروا بالعذاب.

٥- يسن ختم الصلاة والمجلس بآية : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ وفي هذه الآية أنواع ثلاثة من صفات اللّه تعالى : هي تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الألوهية وهو كلمة سبحان ، ووصفه بكل ما يليق بصفات الألوهية وهو قوله : رَبِّ الْعِزَّةِ وكونه منزها عن الشريك والنظير.

وقوله رَبِّ الْعِزَّةِ يدل على أنه القادر على جميع الحوادث التي خلقها.

وقوله : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة إله العالم. والمهم أن يعرف العاقل كيف يعامل نفسه ويعامل الناس في الدنيا.

ج ٢٣ ، ص : ١٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ص

مكيّة ، وهي ثمان وثمانون آية.

تسميتها :

سميت سورة ص لافتتاحها بهذا الحرف العربي أحد أحرف الهجاء الثمانية والعشرين ، للدلالة على أن هذا القرآن العظيم مكون ومنظوم من حروف الهجاء العربية ، ومع ذلك لم يستطع العرب الفصحاء الإتيان بمثل أقصر سورة منه ، فبدئ به بهذه السورة كغيرها من السور المبدوءة بحروف هجائية ، بقصد تحدي العرب ، وإثبات إعجاز القرآن.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجهين :

الأول– أن اللّه تعالى حكى في آخر سورة الصافات التي قبلها قول الكفار :

(١٥٩/٢٣)

لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ ، لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ثم كفروا به ، ثم افتتح هذه السورة بالقسم بالقرآن ذي الذكر ، لتفصيل المجمل هناك.

الثاني– أن هذه السورة بعد الصافات ، كطس– النمل بعد الشعراء ، وكطه والأنبياء بعد مريم ، وكيوسف بعد هود ، في كونها متممة لها بذكر من بقي من الأنبياء ممن لم يذكر في تلك ، مثل داود ، وسليمان ، وأيوب ، وآدم ، وأشار إلى بقية من ذكر.

ج ٢٣ ، ص : ١٦٢

مشتملاتها :

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية في بيان أصول العقيدة الإسلامية « التوحيد ، والنبوة ، والبعث » من خلال مناقشة المشركين في عقائدهم المناقضة لتلك الأصول ، وإيراد قصص الأنبياء للعظة والعبرة ، وبيان حال الكفار والمشركين يوم القيامة ، ووصف عذاب أهل النار ، ونعيم أهل الجنة.

ابتدأت السورة بالوصف الناقد لصفات المشركين من الكبرياء وإباء الحق والإعراض عنه ، مع تذكيرهم بعاقبة الماضين الذين حادوا عن الحق ، فهلكوا ، مثل قوم نوح وعاد وفرعون وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة.

ومن أهم تلك الصفات ثلاث : إنكار الوحدانية ، وإنكار نبوة محمد ص ، وإنكار البعث والحساب.

ثم ذكرت قصة داود وسليمان وأيوب مفصلا ، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل مجملا عليهم السلام.

وانتقل البيان إلى الغاية الكبرى وهي إثبات البعث والحساب ووصف نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

ثم توجهت السورة بقصة بدء الخلق– قصة آدم عليه السلام وسجود الملائكة له إلا إبليس ، وطرده من

الجنة ، وصبّ اللعنة عليه إلى يوم القيامة ، وتوعده وأتباعه بملء جهنم منهم.
وختمت السورة ببيان إخلاص النبي ص في تبليغ رسالته دون طلب أجر ، مما يدل على نبوته ، وأردفه بإعلان كون القرآن رسالة للثقلين : الإنس والجن ، وأن المشركين بعد موتهم يعلمون حقيقة أمره.

(١٦٠/٢٣)

ج ٢٣ ، ص : ١٦٣
مناقشة المشركين في عقائدهم [سورة ص (٣٨) : الآيات ١ الى ١١]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٤)
أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (٦) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)
أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (١٠) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (١١)
الإعراب :
ص قرئ « صاد » بسكون الدال وفتحها وكسرها بلا تنوين وبتنوين. فمن قرأ بالسكون فعلى الأصل ، لأن الأصل في حروف الهجاء البناء ، والأصل في البناء أن يكون على السكون. ومن قرأ بالفتح جعله اسما للسورة ، كأنه قال : اقرأ صاد. ومن قرأ بالكسر بغير تنوين فهو إما أمر من المصاداة وهي المقابلة ، أي قابل القرآن بعملك ، وإما بإعمال حرف القسم مع حذفه ، مثل : اللّه لأفعلن ، وفيه ضعف. ومن قرأ بالكسر مع التنوين شبهه بالأصوات التي تنون للفرق بين التعريف والتنكير ، مثل صه وصه.

(١٦١/٢٣)

وَ الْقُرْآنِ مجرور على القسم وجوابه إما إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ وإما بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا وإما إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ وإما كَمْ أَهْلَكْنا وتقديره : لكم أهلكنا ، فحذفت اللام ، كما حذفت في قوله تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها [الشمس ٩١/ ٩] أي لقد أفلح.

ج ٢٣ ، ص : ١٦٤

وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ لاتَ : حرف بمعنى ليس ، وله اسم وخبر ، أي ولات الحين حين مناص. والجملة حال من فاعل نادوا. ومن قرأ وَلاتَ حِينَ مَناصٍ بالرفع ، أضمر الخبر ، وهو شاذ لا يقاس عليه. وتاء لات لتأنيث الكلمة ، وهي عند البصريين بمنزلة تاء الفعل ، مثل :

ضربت وذهبت ، والوقف عليها بالتاء ، وعليه خط المصحف ، وهي عند الكوفيين بمنزلة تاء الاسم ، نحو : ضاربة وذاهبة ، والوقف عليها بالهاء ، والأقيس مذهب البصريين ، لأن الحرف إلى الفعل أقرب منه إلى الاسم.

أَنِ امْشُوا أن مفسرة ، تقديره : أي امشوا ، وهو من المشاية : كثيرة النتاج ، دعا لهم بكثرة الماشية.

جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ جُنْدٌ مبتدأ ، وما زائدة ، وهُنالِكَ صفة جند ، تقديره : جند كائن هنالك ، ومَهْزُومٌ خبر المبتدأ. وقيل :

هنالك متعلق بمهزوم ، والأول أوجه.

البلاغة :

كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ أي أهل قرن ، فهو مجاز مرسل ، والقرن : مائة عام.

وَقالَ الْكافِرُونَ وضع الظاهر موضع الضمير ، والأصل : وقالوا ، لرصد كفرهم.

كَذَّابٌ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَوَّابٌ من صيغ المبالغة.

إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ تأكيد الجملة الخبرية بإنّ واللام لزيادة التعجب والإنكار منهم.

جُنْدٌ ما هُنالِكَ التنوين في جُنْدٌ للتقليل والتحقير ، وزيادة ما لتأكيد القلة.

إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ : توافق الفواصل الذي يزيد الكلام روعة وبهاء وجمالا.

(١٦٢/٢٣)

المفردات اللغوية :

ص معناه : أن القرآن مركب من هذه الحروف العربية ، وأنتم أيها العرب قادرون على تكوين الجمل والكلام منها ، ولستم قادرين على معارضة القرآن والإتيان بمثله ، فهو للدلالة على

ج ٢٣ ، ص : ١٦٥

التحدي والتنبيه على الإعجاز. وقيل : إن هذه الفواتح وأمثالها لها معان أخرى « ١ » .

وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ يقسم اللّه تعالى بالقرآن ، والإقسام بالقرآن : فيه تنبيه على شرف قدره وعلوّ محله. ومعنى ذِي الذِّكْرِ : البيان ، أو الشرف والشهرة ، كما في قوله تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ [الزخرف

٤٣/ ٤٤]. وجواب القسم في رأي جماعة محذوف تقديره : إنه لكلام معجز ، أو ما الأمر كما قال كفار مكة من تعدد الآلهة.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ أي لا ريب فيه قطعا ، بل المشركون من أهل مكة وأمثالهم في تكبر وتجبر عن الإيمان ، واعتزاز بالباطل ، والعزة أيضا : الغلبة والقهر وشِقاقٍ أي خلاف وعداوة للّه ولرسوله كَمْ كثير أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ أي قد أهلكنا قبلهم كثيرا من الأمم الماضية الذين كانوا أشد قوة وأكثر أموالا فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ أي نادوا حين نزول العذاب بهم أي استغاثوا ، وليس ذلك الوقت وقت خلاص وفرار ومنجى. وهذا وعيد على كفرهم بالقرآن استكبارا وشقاقا.

وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ تعجبوا من مجيء رسول من أنفسهم ينذرهم ويخوفهم بالعذاب بالنار إن استمروا على الكفر ، وهو النبي ص وَقالَ الْكافِرُونَ : هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ قالوا ذلك لما شاهدوا المعجزات الخارجة عن قدرة البشر أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً أصيّرها إلها واحدا ؟ حين قال لهم : قولوا : لا إله إلا اللّه ، أي كيف يكون للخلق كلهم إله واحد ؟

عُجابٌ عجيب ، بالغ في العجب إلى الغاية ، وإنما تعجبوا ، لأنه كان لكل قبيلة إله.

(١٦٣/٢٣)

الْمَلَأُ الأشراف ، انطلقوا من مجلس اجتماعهم عند أبي طالب بعد سماعهم قول النبي ص كلمة يقولونها تدين لهم بها العرب والعجم ، قالوا : فما هي ؟ قال : لا إله إلا اللّه أَنِ امْشُوا يقول بعضهم لبعض : امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ اثبتوا على عبادتها إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ أي إن هذا الذي يريده محمد ص بنا وبآلهتنا ، من دعوته إلى التوحيد لشيء من ريب الزمان يراد بنا ، ليعلو علينا ، ونكون له أتباعا.

الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ هي ملة النصرانية اخْتِلاقٌ كذب اختلقه محمد ص وافتراه أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا ؟ أأنزل عليه القرآن ، ونحن الرؤساء والأشراف ، أكبر منه سنا ، وأعظم منه شرفا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي أي من القرآن أو الوحي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ أي بل لم يذوقوا عذابي بعد ، فإذا ذاقوه زال شكهم.

والمعنى : إنهم لا يصدّقون به حتى يمسهم العذاب ، فيلجئهم إلى تصديقه.

---

(١) انظر تفسير الرازي : ٢٦/ ١٧٤

خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ مفاتيح نعم ربك الْعَزِيزِ الغالب الْوَهَّابِ من النبوة وغيرها ، حتى يعطوها لمن شاؤوا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ أي فليصعدوا في المعارج والوسائل التي توصلهم إلى السماء والاستيلاء على

العرش ، حتى يحكموا بما يريدون جُنْدٌ ما جند حقير من الكفار هُنالِكَ إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول ، وتكذيب النبي مَهْزُومٌ ، مِنَ الْأَحْزابِ صفتان ل جُنْدٌ فهم مغلوبون ، متحزبون على الأنبياء قبلك ، فقهروا وهلكوا ، فكذلك نهلك هؤلاء.

سبب النزول : نزول الآية (٥) :

أَجَعَلَ الْآلِهَةَ .. :

(١٦٤/٢٣)

أخرج أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب ، فجاءته قريش ، وجاءه النبي ص ، فشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي ، ما تريد من قومك ؟ قال : أريد منهم كلمة ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم العجم الجزية كلمة واحدة ، قال :

وما هي ؟ قال : لا إله إلا اللّه ، فقالوا : إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب ، فنزل فيهم ص وَالْقُرْآنِ .. إلى قوله : بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ.

التفسير والبيان :

ص ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ص أحد حروف الهجاء العربية ، افتتح بها هذه السورة كغيرها من السور للتحدي والتنبيه على إعجاز القرآن ، وتنبيه المخاطب للإصغاء إلى الكلام الآتي بعده. وأقسم بالقرآن ذي البيان الشامل لكل ما يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد من الدين الجامع للعقائد الثابتة الصحيحة ، والشرائع الناظمة للحياة الإنسانية ، والوعد والوعيد ، وهو أيضا ذو الشرف والشهرة والرفعة ، أقسم به إنه لكلام معجز منزل من اللّه ، وإن محمدا لصادق فيما يدعيه من النبوة ، والرسالة من رب العالمين إلى البشرية جمعاء ، وهو أيضا تذكير كقوله تعالى :

لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ [الأنبياء ٢١/ ١٠] أي تذكيركم.

ج ٢٣ ، ص : ١٦٧

و سبب كفر المشركين هو :

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ أي إن هذا القرآن ذكرى لمن يتذكر ، وعبرة لمن يعتبر ، وإنما لم ينتفع به الكافرون ، لأنهم في استكبار عنه ، وترفع عن اتباع الحق ، ومخالفة للّه ولرسوله ص ومعاندة ومكابرة وحرص على المخالفة.

ثم خوّفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم ، فقال :

(١٦٥/٢٣)

كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ، فَنادَوْا ، وَلاتَ حِينَ مَناصٍ أي قد أهلكنا قبلهم كثيرا من الأمم الخالية بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فاستغاثوا وجأروا إلى اللّه تعالى حين جاءهم العذاب ، فلم يجدهم شيئا ، لأن الوقت ليس وقت خلاص وفرار من العذاب ، كما قال تعالى : فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ ، لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ [الأنبياء ٢١/ ١٢- ١٣] ويَرْكُضُونَ يهربون.

وقال سبحانه : حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ [المؤمنون ٢٣/ ٦٤].

وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقالَ الْكافِرُونَ : هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ أي تعجب المشركون من بعثة محمد ص بشيرا ونذيرا ، وبشرا رسولا من أنفسهم ، وقال الكافرون لما رأوا معجزاته الباهرة : هذا ساحر خدّاع كذاب فيما يدعيه من النبوة ، وينسبه إلى اللّه من الوحي.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قالَ الْكافِرُونَ : إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ [يونس ١٠/ ٢].

وفي الآية دلالة على أن المشركين ذوي العزة والشقاق كذبوا الرسول ص من غير حجة وبرهان ، وحسدا من عند أنفسهم ، وطمعا في أن يكون الرسول ص

ج ٢٣ ، ص : ١٦٨

أحد الزعماء والرؤساء ، ولم يجدوا تهمة أرخص من اتهامه بالسحر والكذب ، وذلك دليل الإفلاس.

(١٦٦/٢٣)

ثم أورد اللّه تعالى لهم شبهات ثلاثا في وصف النبي بالكذب : الأولى تتعلق بالألوهية أو التوحيد ، والثانية بالنبوة ، والثالثة بالمعاد ، وهنا ذكر شبهتين ، والثالثة ستأتي في آية وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ.

١- توحيد الإله : أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ أصيّر الآلهة إلها واحدا ، وقصر الألوهية على اللّه سبحانه ، إن هذا لشيء بالغ النهاية في العجب. وإنما تعجبوا لأنه كان لكل قبيلة إله ، وكانوا يقولون : إنما نعبدهم ليقربونا زلفى إلى اللّه ، واللّه يملكهم ، فأي ضير في هذا ؟ وادعوا العجب ممن رفض الآلهة المتعددة ، وقالوا : إن آباءهم على كثرتهم ورجاحة عقولهم لا يعقل أن يكونوا جاهلين مبطلين ، ويكون « محمد ص » وحده محقّا صادقا. وهذا مجرد تقليد أعمى وإرث منقول دون دليل عقلي ولا نقلي.

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات كما تقدم :

ما رواه الترمذي وغيره بلفظ آخر عن ابن عباس ، قال : « مرض أبو طالب ، فجاءت قريش إليه ، وجاء

النبي ص ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي يمنعه ، قال :
وشكوه إلى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي ، ما تريد من قومك ؟ فقال : يا عم ، إنما أريد منهم كلمة تذلّ لهم بها العرب ، وتؤدي إليهم بها الجزية العجم ، فقال :
وما هي ؟ قال : لا إله إلا اللّه ، قال : فقالوا : أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ؟
فنزل فيهم القرآن ص ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ حتى بلغ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ « ١ » .
ورواه بلفظ آخر ابن أبي حاتم وابن جرير عن السدّي.

---

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح.
ج ٢٣ ، ص : ١٦٩
و

في رواية : لما أسلم عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه شقّ على قريش إسلامه ، فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا : اقض بيننا وبين ابن أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبي ص فقال : يا ابن أخي ، هؤلاء قومك يسألونك السواء « ١ » ، فلا تمل كل الميل على قومك. قال : « و ماذا يسألونني ؟ » قالوا : ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال النبي ص : « أ تعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » فقال أبو جهل : للّه أبوك! لنعطينكها وعشر أمثالها. فقال النبي ص : « قولوا : لا إله إلا اللّه » فنفروا من ذلك وقاموا ، فقالوا : أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ؟ فكيف يسع الخلق كلّهم إله واحد ؟
فأنزل اللّه فيهم هذه الآيات ، إلى قوله : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ.
وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ أي وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب قائلين : امضوا على ما كنتم فيه ، واثبتوا على عبادة آلهتكم ، واصبروا على ذلك ، إن هذا التحول عن الآلهة لأمر عظيم يريده محمد ص ، ليعلو علينا ، ونكون له أتباعا ، فيتحكم فينا بما يريد.
٢- عدم وجود التوحيد في النصرانية : ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ، إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ ما سمعنا بهذه الدعوة إلى توحيد الإله في الملة الآخرة وهي النصرانية ، وما هذا إلا افتراء وكذب لا حقيقة له ، وليس له مستند من وحي ودين سماوي ، ولا من عقل صحيح فيما يزعمون ، فوجب أن يكون باطلا.

٣- تخصيص النبوة في محمد : أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا ؟ استفهام إنكار ، أي كيف ينزل القرآن على محمد دوننا ، ونحن الرؤساء والأشراف ؟ فهذا أمر مستبعد ، كما حكي عنهم في آية أخرى : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [الزخرف ٤٣/ ٣١] فرد اللّه عليهم قائلا :

---

(١) أي العدل.

أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ [الزخرف ٤٣/ ٣٢].

وسبب استبعادهم هذا ، الناشئ عن جهلهم وقلة عقلهم : الشك في أمر القرآن وحسد النبوة : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ أي بل الحقيقة أنهم في شك من القرآن أو الوحي ، بل إنما شكوا وتركوا النظر والاستدلال ، لأنهم لم يذوقوا عذابي ، فإذا ذاقوه صدقوا بالقرآن ، وزال عنهم الشك والحسد.

ولَمَّا بمعنى « لم » وما : زائدة ، مثل : عَمَّا قَلِيلٍ [المؤمنون ٢٣/ ٤٠] وفَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ [النساء ٤/ ١٥٥ أو المائدة ٥/ ١٣].

ثم رد اللّه تعالى عليهم استبعادهم نبوة محمد ص وجعلها في صناديدهم قائلا :

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أي بل أهم يملكون مفاتيح نعم ربك القوي الغالب ، المانح الواهب الكثير المواهب ، حتى يعطوا نعمة النبوة لمن يشاءون ؟ كما في آية أخرى : قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ ، وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً [الإسراء ١٧/ ١٠٠].

ثم أنكر اللّه تعالى ما هو أشد ، فقال :

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ أي بل أهم يملكون السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات والعوالم ، فإن فرض أنهم يملكون ، فليصعدوا في المعارج التي توصلهم إلى السماء ، حتى يحكموا بما يريدون من عطاء ومنع ، ويدبروا أمر العالم بما يشتهون.

ثم أجمل اللّه تعالى وصفهم بالقلة والحقارة فقال :

جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ أي ما هم إلا جند مغلوبون

ج ٢٣ ، ص : ١٧١

هنالك ، أي في ذلك الموضع الذي كانوا يذكرون فيه هذه الكلمات الطاعنة في نبوة محمد ص ، والذي يتحزبون فيه على المؤمنين. وهذه الآية كقوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ : نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ، سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ، وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ [القمر ٥٤/ ٤٤- ٤٦]. وهذا وعد من اللّه بنصر نبيه ص وأن الغلبة ستكون له.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستدل بالآيات على ما يأتي :

١- أقسم اللّه عز وجل بالقرآن العظيم ذي الشرف والشهرة والمجد على صدق نبوة محمد ص وأنه رسول من اللّه إلى الناس كافة.

٢- إن سبب إعراض كفار قريش عن الإيمان برسالة النبي ص هو التكبر والتجبر والاستعلاء عن اتباع الحق ، ومخالفة اللّه تعالى ورسوله ص ومعاداتهما وإظهار مباينتهما.

٣- أنذرهم اللّه وحذرهم من الإهلاك كما أهلك الأمم الماضية الذين كانوا أمنع منهم وأشد قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فاستغاثوا وتابوا ، ولكن في وقت لا ينفع فيه التوبة ، ولا ينفع العمل.

٤- لقد تعجب كفار قريش بسبب جهلهم أن جاءهم رسول بشر من أنفسهم ، يبشرهم وينذرهم ، فلم يجدوا حجة للإعراض عنه إلا أن قالوا : ساحر كذاب ، أي يجيء بالكلام المموّه الذي يخدع به الناس ، ويكذب في دعوى النبوة.

٥- وبالغوا في التعجب من دعوته إلى التوحيد وتصييره الآلهة إلها واحدا.

٦- لم يجد هؤلاء الكفار سبيلا إلا أن أعلنوا إصرارهم على وثنيتهم ، وقال

ج ٢٣ ، ص : ١٧٢

الرؤساء للأتباع : امضوا على ما كنتم فيه ، ولا تدخلوا في دين محمد ص ، واثبتوا على عبادة آلهتكم المخصصة لكل قبيلة ، فإنما يريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا ، ونكون له أتباعا ، فيتحكم فينا بما يريد ، فاحذروا أن تطيعوه.

٧- أيدوا وثنيتهم بآخر الملل وهي النصرانية ، فإن النصارى يجعلون مع اللّه إلها ، وإن الدعوى إلى توحيد الإله ما هو في زعمهم إلا كذب وافتراء وتخرّص وابتداع على غير مثال.

٨- إن شعورهم بالعزة والاستكبار دفعهم أيضا إلى إنكار اختصاص محمد ص بإنزال القرآن عليه ونزول

الوحي على قلبه ، دونهم ، وهم في رأيهم أحق بذلك ، لأنهم السادة والرؤساء والأشراف.

٩- إن حقيقة أمرهم أنهم شكوا فيما أنزل اللّه تعالى على رسوله ص ، هل هو من عنده أم لا ؟ وكذلك اغتروا بطول الإمهال ، ولو ذاقوا عذاب اللّه على الشرك لزال عنهم الشك ، ولكن لا ينفع الإيمان حينئذ.

١٠- عجيب أمر هؤلاء المشركين ، هل يملكون مفاتيح نعم اللّه ، فيمنعون محمدا ص مما أنعم اللّه عز وجل به عليه من النبوة ؟ فاللّه المالك للنعم يرسل من يشاء ، لأن خزائن السموات والأرض له. وهل يملكون عالم السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات ، فإن ادّعوا ذلك ، فليصعدوا إلى السموات ، وليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد ص.

١١- ما هؤلاء الكفار إلا مجرد جند من الأحزاب مهزومون ، متحزبون في موضع تحزّبهم لقتال محمد ص ، وذلك الموضع مكة ، وهم في النهاية أذلّة لا حجة لهم ، ولا قدرة لأن يصلوا إلى الاستيلاء على سلطان اللّه وملكه ، فيتصرفوا في الناس كيف يريدون.

ج ٢٣ ، ص : ١٧٣

و هذا تأنيس للنبي ص ، ووعد له بالنصر والغلبة ، ولهم بالهزيمة ، وقد تحقق هذا يوم بدر. قال الرازي : والأصوب عندي حمله على يوم فتح مكة.

إنذار الكفار بحال الأمم المكذبة قبلهم [سورة ص (٣٨) : الآيات ١٢ الى ١٦]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (١(٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (١(٣) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (١(٤) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (١٥) وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (١٦)

الإعراب :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ إنما دخلت التاء في كَذَّبَتْ لتأنيث الجماعة ، أي كان تأنيث قَوْمُ باعتبار المعنى.

البلاغة :

وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ استعارة مكنية ، شبه الملك بخيمة كسيرة شدّت حبالها بالأوتاد لترسخ في الأرض ، ولا تقتلعها الرياح ، وذكر الأوتاد تخييل.

المفردات اللغوية :

ذُو الْأَوْتادِ الوتد : هو الذي يدق في الأرض أو الحائط لربط الأشياء به من حبال وغيرها ، والمراد هنا

ذو الملك الثابت ، والبناء المحكم ، والحكم الراسخ الْأَيْكَةِ الغيضة من الشجر الكثير الملتف ، وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب عليه السلام إِنْ كُلٌّ أي ما كل أحد من الأحزاب كَذَّبَ الرُّسُلَ أي إلا وقع منه تكذيب الرسل ، وجمع الرسل ، لأنهم إذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوا جميعهم ، لأن دعوتهم واحدة ، وهي دعوة التوحيد فَحَقَّ عِقابِ وجب عقابي عليهم بتكذيبهم ، وإن تأخر.

وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ أي ينتظر كفار مكة صَيْحَةً هي نفخة القيامة ، تحل بهم العذاب

ج ٢٣ ، ص : ١٧٤

فَواقٍ بضم الفاء وفتحها : أي توقف مقدار من الزمن وهو ما بين حلبتي الناقة أو الرضعتين ، حتى يجتمع الحليب في الضرع ، أو الفواق : الرجوع والترداد ، فإن في الفواق يرجع اللبن بعد سويعة إلى الضرع ، أي إذا جاءت الصيحة لا تتوقف مقدار فواق ناقة ، وفي

الحديث الذي رواه البيهقي عن أنس ، وهو ضعيف : « العيادة فواق ناقة »

(١٧٢/٢٣)

وَ قالُوا كفار مكة استهزاء قِطَّنا قسطنا من العذاب الذي توعدنا به ، أو كتاب أعمالنا ، استعجلوا ذلك استهزاء.

المناسبة :

بعد بيان أن المشركين توانوا وتكاسلوا عن النظر والاستدلال ، لأنه لم ينزل بهم العذاب ، بيّن اللّه تعالى في هذه الآيات أن أقوام سائر الأنبياء كانوا هكذا ، حتى نزل بهم العقاب. والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول ص في إخباره عن نزول العقاب بهم.

التفسير والبيان :

ذكر اللّه ستة أصناف من الكفار الذين كذبوا الرسل في الأمم الغابرة وهم :

١- ٣ : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ أي كذبت الرسل قبل قريش قوم نوح ، وقبيلة عاد ، وفرعون ذو الحكم الراسخ وقومه.

أما قوم نوح عليه السلام فكذبوه وآذوه وهزئوا به ، وقالوا عنه : إنه مجنون ، فأهلكهم اللّه بالغرق والطوفان ، ونجّى اللّه نوحا ومن آمن به ، كما قال تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنا ، وَقالُوا : مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً ، فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ [القمر ٥٤/ ٩- ١٤].

وأما عاد قوم هود عليه السلام فكذبوه أيضا ، فأهلكهم اللّه بالريح ، كما قال تعالى : وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا

بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ ، سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَثَمانِيَةَ
ج ٢٣ ، ص : ١٧٥
أَيَّامٍ حُسُوماً ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى ، كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ
[الحاقة ٦٩/ ٦- ٧].

(١٧٣/٢٣)

و أما فرعون الطاغية الجبار ذو الحكم الثابت الراسخ القوي ، فأرسل اللّه تعالى إليه موسى عليه السلام بآيات أو معجزات تسع ومعه أخوه هارون ، فكذب وعصى ، فأهلكه اللّه بالغرق ، ونجى موسى وقومه المؤمنين ، كما قال تعالى :
هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى ، إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ، اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى ، فَقُلْ : هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى ، وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى ، فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى ، فَكَذَّبَ وَعَصى ، ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى ، فَحَشَرَ فَنادى ، فَقالَ : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولى ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى [النازعات ٧٩/ ١٥- ٢٦]. وقال سبحانه : وَإِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ ، فَأَنْجَيْناكُمْ ، وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [البقرة ٢/ ٥٠].
٤- ٦ : وَثَمُودُ ، وَقَوْمُ لُوطٍ ، وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ ، أُولئِكَ الْأَحْزابُ أي كذبت قبيلة ثمود قوم صالح ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة ، أي الغيضة ، أولئك الأحزاب ، أي هم الموصوفون بالقوة والكثرة ، كمن تحزّب عليك أيها النبي.
أما ثمود قوم صالح عليه السلام فكذبوه ، وعقروا الناقة المعجزة ، فأهلكهم اللّه بالصيحة ، أو بالطاغية ، فصاروا كهشيم المحتظر ، كما قال تعالى : فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ [الحاقة ٦٩/ ٥] وقال سبحانه : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ، فَقالُوا : أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ ، إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ إلى أن قال : إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ [القمر ٥٤/ ٢٣- ٣١].

(١٧٤/٢٣)

و أما قوم لوط عليه السلام فكذبوه أيضا فأهلكوا بالخسف أو الزلزلة ، كما قال تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ، إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ [القمر ٥٤/ ٣٣- ٣٤].
ج ٢٣ ، ص : ١٧٦
و أما أصحاب الأيكة (أي الشجر الكثير الملتف بعضه على بعض) فهم قوم شعيب عليه السلام ،

كذبوه ، فأهلكوا بعذاب يوم الظلّة ، كما قال تعالى :
وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ ، فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ ، وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ [الحجر ١٥/ ٧٨- ٧٩].
وقال سبحانه : فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [الشعراء ٢٦/ ١٨٩].
وسبب إهلاكهم تكذيبهم الرسل ، كما قال تعالى :
إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ ، فَحَقَّ عِقابِ أي ما كل أحد من هؤلاء الأقوام الغابرة إلا كذب الرسل ، فوجب عقاب اللّه لهم ، جزاء وفاقا. وهذا يعني أن علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر ، وهذا مفاد الآية التالية :
وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ أي ما ينتظر كفار قريش إلا عقابا بنفخة الساعة التي هي النفخة الثانية وهي نفخة الفزع التي يأمر اللّه إسرافيل أن يطولها ، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى اللّه عز وجل. وما لها من فواق : أي ما لها من انتظار وراحة وإفاقة.
وتحدث تلك النفخة بلا توقف مقدار فواق الناقة : وهو الزمن الذي بين الحلبتين.
والمعنى : ليس بينهم وبين حلول ما أعد اللّه لهم من عذاب النار إلا أن ينفخ في الصور النفخة الثانية ، وإذا حل هذا الموعد فلا تأخر عنه أبدا ، كما قال تعالى :

ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ، فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ [يس ٣٦/ ٤٩- ٥٠] وهذا إخبار عن قرب القيامة والموت.
ثم ذكر تعالى الشبهة الثالثة للكفار في تكذيب النبي ص وهي المتعلقة بالمعاد « ١ » ، فقال :

---

(١) والشبهتان الأولى والثانية في الآيات المتقدمة : أَجَعَلَ الْآلِهَةَ .. (٥- ٨).

وَ قالُوا : رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ أي وقال المشركون تهكما واستهزاء حين سمعوا بالمعاد والحساب والعقاب : ربنا عجّل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به ، ولا تؤخره إلى يوم القيامة. وهذا إنكار من اللّه تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب ، كما قالوا : اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ [الأنفال ٨/ ٣٢].
وقائل ذلك : النضر بن الحارث الذي قال اللّه فيه سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ [المعارج ٧٠/ ١] أو أبو جهل ، ورضي الآخرون بقوله.
ثم أمر اللّه رسوله بالصبر على أذى المشركين وعلى سفاهتهم قائلا : اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ أي اصبر

على أذى قومك المشركين ، فإنهم في النهاية مقهورون أذلاء ، ونبشرك على صبرك بالظفر والنصر والعاقبة الحميدة.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات عظة بليغة وعبرة مؤثرة يتأثر بها ذوو الإحساس الإنساني السليم الذي يتخلى صاحبه عن الكبر والاستعلاء. وما أعظمها عبرة وشاهدا محسوسا لكفار مكة.

إن أمامهم آثار الدمار والخراب والهلاك ، أو إنهم يسمعون ما حدث للأمم التي كذّبت رسلها ، وما جرى على المثيل يجري على مثيله. فإن اللّه القوي القاهر أغرق قوم نوح بالطوفان ، وأهلك فرعون وجنوده بالإغراق في البحر ، وقوم هود بالريح الصرصر العاتية ، وقوم صالح بالصيحة أو بالطاغية (و هي الصيحة المجاوزة للحدّ في الشدة) وقوم لوط بالخسف أو الزلزلة ، وأصحاب الأيكة بعذاب الظلة.

ج ٢٣ ، ص : ١٧٨

و ما ينتظر كفار مكة إلا صيحة القيامة ليزجّ بهم في عذاب النار التي إذا جاءت لا تؤخر أبدا ، أو لا تستأخر لحظة واحدة : فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ [النحل ١٦/ ٦١].

ولكن اغتر الكفار بطول المهلة ، ولما سمعوا أن اللّه منع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا ، إكراما للنبيّ ص : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ [الأنفال ٨/ ٣٣] وجعل عذابهم في الآخرة ، قالوا سخرية واستهزاء : ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب قبل يوم القيامة والحساب إن كان الأمر كما يقول محمد ص.

وهذا غاية الجهل والسفاهة والحمق.

ثم أمر اللّه نبيه ص بالصبر على أذاهم وسفاهتهم لما استهزءوا به ، فما بعد الصبر إلا الفرج ، وسيكون النصر والظفر قريبا.

قصة داود عليه السلام [سورة ص (٣٨) : الآيات ١٧ الى ٢٦]

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ (٢٠) وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (٢١)

إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (٢(٢) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (٢(٣) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ (٢(٤) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (٢٦)

ج ٢٣ ، ص : ١٧٩

الإعراب :

إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ إِذْ دَخَلُوا .. إِذْ الأولى تتعلق ب نَبَأُ وتَسَوَّرُوا بلفظ الجمع ، لأن الخصم مصدر يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ، فجمع حملا على المعنى.

وإِذْ الثانية : بدل من الأولى. وخَصْمانِ خبر مبتدأ محذوف تقديره : نحن خصمان ، فحذف المبتدأ.

وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ عزّني بالتشديد على الأصل من عزّه : إذا غلبه ، وقرئ بالتخفيف على أنه مخفف من المشدد ، كما يقال في « ربّ : رب » . والخطاب : مصدر خاطب أو مصدر خطب ، نحو الأول : ضارب ضرابا ، ونحو الثاني كتب كتابا.

(١٧٨/٢٣)

بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ تقديره : بسؤاله إياك نعجتك ، فحذف الهاء التي هي فاعل في المعنى ، والمفعول الأول ، وأضاف المصدر إلى المفعول الثاني الْخُلَطاءِ جمع خليط بوزن فعيل صفة فيجمع على فعلاء إلا إن كان فيه واو فيجمع على فعاة ، نحو طويل وطوال.

وَقَلِيلٌ ما هُمْ بَعْضُهُمْ : مبتدأ ، وقَلِيلٌ : خبره ، وما زائدة ، وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ أي تيقن ، وقرئ فَتَنَّاهُ بالتخفيف ، أراد به فتنة الملكين. فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ ذلِكَ منصوب ب غفرنا ، ويصح جعله خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك.

البلاغة :

يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ بينهما طباق ، لأن المراد بهما المساء والصباح.

وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ورد بأسلوب التشويق.

وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ورد بأسلوب الإطناب.

ج ٢٣ ، ص : ١٨٠

المفردات اللغوية :

وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ واذكر لهم قصته تعظيما للمعصية في أعينهم ، فإنه مع علوّ شأنه ، واختصاصه بعظائم النعم والمكرمات ، لما توهم أو ظن أنه أتى صغيرة استغفر ربه وأناب ، فما الظن بالكفرة وأهل الطغيان ؟ ذَا الْأَيْدِ القوة والجلد في العبادة ، كان يصوم يوما ، ويفطر يوما ، ويصوم نصف الليل ، وينام ثلثه ، ويقوم سدسه أَوَّابٌ رجاع إلى اللّه وإلى طاعته ومرضاته.

(١٧٩/٢٣)

يُسَبِّحْنَ بتسبيحه بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ بالمساء والصباح ، وأصل العشي : وقت العشاء ، والْإِشْراقِ وقت شروق الشمس ووضوح ضوئها مَحْشُورَةً مجموعة إليه من كل جانب ، تسبح معه كُلٌّ لَهُ من الجبال والطير لأجل تسبيحه أَوَّابٌ رجاع إلى التسبيح منقاد يسبح تبعا له وَشَدَدْنا مُلْكَهُ قويناه حتى ثبت ، وآزرناه بالهيبة والنصر ، وبالحرس والجنود الْحِكْمَةَ النبوة وكمال العلم وإصابة الصواب في القول والعمل وَفَصْلَ الْخِطابِ البيان الشافي ، والكلام الفاصل بين الحق والباطل.

وَهَلْ أَتاكَ أيها الرسول أي خبرهم وقصتهم ، ويراد بالاستفهام هنا التعجب والتشويق إلى استماع ما بعده الْخَصْمِ جماعة الخصوم ، ويطلق الخصم على المفرد والجمع ، مذكرا ومؤنثا تَسَوَّرُوا أتوه من أعلى السور ، ودخلوا إلى المنزل والمسجد الذي يصلي فيه ، حيث منعوا الدخول عليه من الباب ، لشغله بالعبادة فَفَزِعَ خاف خَصْمانِ نحن فوجان متخاصمان ، والمشهور أنهما ملكان ، والأقرب أنهما بشران عاديان صاحبا نعاج أي مواشي ، والخصومة حقيقية بَغى جار وظلم وَلا تُشْطِطْ لا تجر في الحكم ولا تبعد عن الحق وَاهْدِنا أرشدنا سَواءِ الصِّراطِ وسط الطريق الصواب.

(١٨٠/٢٣)

إِنَّ هذا أَخِي أي على ديني نَعْجَةً أنثى الضأن أَكْفِلْنِيها اجعلني كافلها وملكنيها وَعَزَّنِي غلبني فِي الْخِطابِ في الجدال والمخاطبة والمحاجة بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ سؤاله نعجتك ليضمها إليه الْخُلَطاءِ الشركاء ، والمعارف أو الأعوان الذين بينهم خلطة وامتزاج ، جمع خليط وَقَلِيلٌ ما هُمْ ما زائدة لتأكيد القلة وَظَنَّ من الظن وهو رجحان تصور الشيء ، أو بمعنى تيقن وعلم فَتَنَّاهُ ابتليناه أو امتحناه بتلك الحكومة ، واختبرناه بهذه الحادثة فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ للظن السيء بالرجلين أنهما أتياه لقتله وهو منفرد في محرابه وَخَرَّ راكِعاً ساجدا وَأَنابَ تاب ورجع إلى اللّه وطاعته.

فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ أي عفونا عنه ذلك الظن السيء بالرجلين ، وهذا من قبيل « حسنات الأبرار سيئات

المقرّبين » . لَزُلْفى قرب من اللّه مَآبٍ مرجع في الآخرة.

ج ٢٣ ، ص : ١٨١

إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ استخلفناك على الملك فيها لتدبير أمور الناس وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى هوى النفس فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عن الدلائل الدالة على الحق بِما نَسُوا بنسيانهم يَوْمَ الْحِسابِ المرتب لهم ، لضلالهم عن السبيل الحق ، فإن تذكر يوم الحساب يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى.

المناسبة :

بعد إنذار قريش بحال الكفار الغابرين ، وبعد أمر النبي ص بالصبر على أذى قريش وسفاهتهم ، أمره اللّه تعالى بتذكر حال تسعة من الأنبياء ، حال ثلاثة منهم تفصيلا ، وحال ستة آخرين منهم إجمالا ، ليتأسى بما لاقوا من أذى قومهم ، محتسبين أجرهم عند اللّه تعالى.

وبدأ بذكر قصة داود عليه السلام ، ليتذكر حال ذلك النبي الشاكر الصابر ، ذي القوة في الدين والبدن معا.

(١٨١/٢٣)

و يجب أن تفهم هذه القصة– قصة المحاكمة– على النحو الظاهري المبين في القرآن الكريم ، وأن تستبعد الإسرائيليات منها ، لمناقضتها مبدأ عصمة الأنبياء ، فقد روي في الإسرائيليات أن داود عليه السلام وقع بصره على امرأة تستحم ، فأعجبته وعشقها ، وكانت زوجة أحد قواده واسمه « أوريا الحثي » فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها ، فأرسله في إحدى المعارك وحمّله الراية ، وأمره بالتقدم فانتصر ، فأرسله مرارا ليتخلص منه حتى قتل ، فتزوجها.

قال البيضاوي : هذا هزء وافتراء ، ولذلك

قال علي رضي اللّه عنه : « من حدّث بحديث داود على ما يرويه القصاص ، جلدته مائة وستين » .

وهو حد الفرية على الأنبياء ، أي مضاعفا « ١ » .

وأبطل الإمام الرازي هذه الحكاية المفتراة بوجوه ثلاثة ملخصها :

---

(١) تفسير البيضاوي : ٦٠٢

ج ٢٣ ، ص : ١٨٢

الأول : أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجورا لاستنكف منها.

الثاني– أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين : السعي في قتل رجل مسلم بغير حق ، وإلى الطمع في زوجته ، وكلاهما منكر.

الثالث- أن اللّه تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بصفات عشر ، ثم وصفه أيضا بصفات كثيرة بعد هذه القصة ، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح « ١ » .

(١٨٢/٢٣)

و الرواية الصحيحة لهذه القصة : أن داود عليه السلام كان يقسم وقته الأسبوعي أثلاثا : ثلث لشؤون الملك ، وثلث للقضاء بين الناس ، وثلث آخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور في المحراب « ٢ » ، فتجاوز خصمان هذا النظام ، وتسورا عليه المحراب من فوق الجدار طلبا للمحاكمة في غير موعدها ، ففزع منهما ، وظن أنهما جاءا لاغتياله ، وهو منفرد في محرابه لعبادة ربه ، والخصمان بشران لا ملكان ، والنعاج : المواشي ، لا النساء. إلا أنه بادر إلى الحكم والقضاء قبل سماع بينة الخصم الآخر ، فعاتبه اللّه على ذلك ، ونبهه إلى وجوب تثبت القاضي وسماع الخصم الآخر ، قبل إصدار الحكم. وسأبين أن هذا أيضا محل نظر ، فإنه لا يعقل أن يحكم داود عليه السلام قبل سماع قول الخصم الآخر ، فهذا من مبادئ الحكم الأولية التي لا تترك.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٦/ ١٨٩

(٢) وقال ابن عباس : جزّأ أزمانه أربعة أجزاء : يوما للعبادة ، ويوما للقضاء ، ويوما للاشتغال بخواص أموره ، ويوما لجميع بني إسرائيل ، فيعظهم ويبكيّهم ، فجاءوه في غير القضاء ، ففزع منهم ، لأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله ، لا يتركون من يدخل عليه ، فخاف أن يؤذوه. (البحر المحيط : ٧/ ٣٩١).

ج ٢٣ ، ص : ١٨٣

التفسير والبيان :

تضمنت قصة داود عليه السلام في هذه السورة ثلاثة موضوعات :

الأول- تعداد الصفات التي أنعم اللّه بها على داود والتي أهّلته لسعادة الدنيا والآخرة.

الثاني- إصدار الحكم في واقعة بين خصمين.

الثالث- استخلاف اللّه تعالى إياه بعد تلك الواقعة.

الموضوع الأول- صفات داود عليه السلام

ذكر اللّه تعالى عشر صفات لداود عليه السلام آتاه اللّه إياها ، وهي تحقق كمال السعادة الدنيوية والأخروية.

١- ٤ : وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ، ذَا الْأَيْدِ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ هذا معطوف على مطلع الآية المذكور في نهاية المقطع السابق وهو وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ والمعنى : اذكر أيها الرسول لقومك قصة عبدنا داود ذي القوة في العلم والعمل وطاعة اللّه ، قال قتادة : أعطي داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام قوة في العبادة ، وفقها في الإسلام ، وكان يقوم ثلث الليل ، ويصوم نصف النهار ،

ثبت في الصحيحين أن النبي ص قال : « أحبّ الصلاة إلى اللّه تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى اللّه عز وجل صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ، ويفطر يوما ، ولا يفرّ إذا لاقى ، وإنه كان أوّابا » .

أي رجّاعا إلى اللّه عز وجل في جميع أموره وشؤونه. و

في تاريخ البخاري عن أبي داود قال : « كان النبي ص إذا ذكر داود وحدث عنه قال :

كان أعبد البشر » .

والصفات الأربع المذكورة هنا هي :

ج ٢٣ ، ص : ١٨٤

١- الصبر : فقد أمر اللّه تعالى محمدا ص على جلالة قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة اللّه.

٢- والعبودية : فقد وصفه ربه بقوله عَبْدَنا داوُدَ وعبر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم ، والوصف بالعبودية للّه غاية التشريف ، كوصف محمد ص بها ليلة المعراج : سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ [الإسراء ١٧/ ١]. فإن وصف اللّه تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسب الاجتهاد في الطاعة.

٣- والقوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي ، في قوله تعالى : ذَا الْأَيْدِ.

٤- والرجاع إلى طاعة اللّه في أموره كلها ، في قوله تعالى : إِنَّهُ أَوَّابٌ.

٥- ٦ : تسبيح الجبال والطير معه : إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ أي إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال عز وجل : يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ [سبأ ٣٤/ ١٠] قال ابن كثير : وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجّع بترجيعه ، إذا مرّ به الطير ، وهو سابح في الهواء ، فسمعه ، وهو يترنم بقراءة الزبور ، لا يستطيع الذهاب ، بل يقف في الهواء ، ويسبح معه ، وتجيبه الجبال الشامخات ، ترجّع معه ، وتسبّح تبعا له »

. وهذا ما قاله تعالى :

٧- وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ أي وسخرنا له الطير ، حال كونها محبوسة في الهواء ، تسبح بتسبيحه ، وكل من الجبال والطير مطيع ، يسبح تبعا له ، فكلما سبح داود جاوبته. وهذا يومئ أن داود عليه السلام كان حسن الترتيل ، جميل الصوت.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/ ٢٩

ج ٢٣ ، ص : ١٨٥

٨- قوة الملك : وَشَدَدْنا مُلْكَهُ أي قوينا ملكه بالجند أو الحرس ، وجعلنا له ملكا كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

٩- إيتاء الحكمة : وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ أعطيناه الفهم والعقل والفطنة ، والعلم ، والعدل ، وإتقان العمل ، والحكم بالصواب. ولما كمّل اللّه تعالى نفس نبيه داود بالحكمة ، أردفه ببيان كمال خلقه في النطق والعبادة ، فقال : وَفَصْلَ الْخِطابِ.

١٠- حسن الفصل في الخصومات : وَفَصْلَ الْخِطابِ أي وألهمناه حسن الفصل في القضاء بإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإيجاز البيان ، بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل.

الموضوع الثاني- القضاء في خصومة

وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ ، إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ، قالُوا : لا تَخَفْ ، خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ ، فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ ، وَلا تُشْطِطْ ، وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ هذا نبأ عجيب يشوق السامع سماعه ومعرفته ، لذا ذكره اللّه لرسوله ، ومعناه : هل علمت ذلك الخبر المهم العجيب ؟

وبدأه بهذا الاستفهام ، ليكون مدعاة إلى الإصغاء له والاعتبار به.

إنه نبأ جماعة من الخصوم تسلقوا سور غرفة داود المخصصة للصلاة ، فدخلوا عليه وهو منهمك بالصلاة وعبادة اللّه وترانيم الزبور ، في غير موعد المحاكمة المخصص للناس ، فخاف منهم ظنا منه أنهم جاؤوا لاغتياله ، وهو منفرد في محرابه للعبادة ، في أشرف مكان في داره- وقد كان اغتيال الأنبياء معروفا في بني إسرائيل ، فقد قتلوا إشعيا وزكريا ، كما قال تعالى : وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ [آل عمران ٣/ ٢١] فقالوا له : لا تخف ، نحن متخاصمان جار بعضنا على

ج ٢٣ ، ص : ١٨٦

بعض ، فاحكم بيننا حكما عادلا ، ولا تجر في الحكم ، واهدنا إلى الطريق الحق العدل.

وموضوع الخصومة هو :

إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ، وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ ، فَقالَ : أَكْفِلْنِيها ، وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ أي إن هذا أخ لي في الدين والإنسانية ، يملك تسعا وتسعين شاة ، وأملك شاة واحدة ، فقال : ملكنيها وغلبني في المخاصمة والجدال والحجة ، فأتى بحجج لم أستطع ردها. والنعجة : هي الأنثى من الضأن ، وقد يقال لبقر الوحش : نعجة.

فحكم داود عليه السلام بقوله :

قالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ أي قال داود الحاكم بعد إقرار المدعى عليه بالدعوى : لقد ظلمك بهذا الطلب ، وطمع عليك.

(١٨٦/٢٣)

و يقال : إن خطيئة داود هي قوله : لَقَدْ ظَلَمَكَ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت ، فربما كان صاحب النعجة الواحدة هو الظالم.

وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَقَلِيلٌ ما هُمْ أي وإن كثيرا من الشركاء في المال أو المعارف والأعوان المتعاملين ليظلم بعضهم بعضا ، إلا من آمن باللّه وخاف ربه وعمل صالح الأعمال ، فإنه لا يظلم ، وهؤلاء الصالحون قلة ، كما قال تعالى : وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ [الأعراف ٧/ ١٠٢].

وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ، وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ أي وعلم داود وأيقن أنما اختبرناه بهذه الواقعة ، وهي تعرضه للاغتيال ثم نجاته منه ، فاستغفر ربه لذنبه وهو سوء ظنه بالخصمين ، وأنهما أتيا لاغتياله ، وهو الأصح ، أو أنه حكم

ج ٢٣ ، ص : ١٨٧

بين الخصمين في النعاج قبل أن يسمع بيّنه الخصم الآخر ، وكان الحق له ، وخر ساجدا- وعبر بالركوع عن السجود- ورجع إلى اللّه بالتوبة من ذنبه.

فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ أي فغفرنا له سوء ظنه أو ما كان منه مما يقال فيه : إن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ، وإن له عند ربه لقربا وحسن مرجع ، وهو الجنة.

والظاهر أن الذنب : هو همّ داود الانتقام من هذين الشخصين اللذين كانا يقصدان اغتياله ، فاصطنعا هذه الخصومة ، لأنهما رأيا أن الحرس سيقتلونهما ولن يفلتا من العقاب ، ثم رأى داود أن العفو

والصفح أقرب لمقام النبوة ، فاستغفر ربه مما كان قد عزم عليه من الانتقام.

الموضوع الثالث– الاستخلاف في الأرض

يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ يخاطب اللّه تعالى داود عليه السلام بأنه استخلفه حاكما بين الناس في الأرض ، فله السلطة والحكم ، وعليهم السمع والطاعة. ثم بيّن اللّه تعالى له قواعد الحكم تعليما لغيره من الناس :

١– فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ أي فاقض بين الناس بالعدل الذي قامت به السموات والأرض. وهذه أولى وأهم قواعد الحكم.

٢– وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى أي لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا ، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار ، لذا قال :

فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال والانحراف عن جادة الحق ، وما عاقبته إلا الخذلان ، فقال تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ أي إن الذين يتنكبون طريق الحق والعدل ، لهم عقاب شديد يوم القيامة

ج ٢٣ ، ص : ١٨٨

و الحساب الأخروي ، بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم ، وما فيه من حساب دقيق لكل إنسان ، وبسبب تركهم العمل لذلك اليوم ، ومنه القضاء بالعدل.

والعبرة من هذا الموضوع : الوصية من اللّه عز وجل لولاه الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق ، ولا يحيدوا عنه ، فيضلوا عن سبيل اللّه ، وقد توعد اللّه تعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والحساب الشديد.

روى ابن أبي حاتم أن أبا زرعة دخل على الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد : أخبرني ، أيحاسب الخليفة ؟ فإنك قد قرأت القرآن وفقهت! فقال :

يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان اللّه ، قال : يا أمير المؤمنين : أنت أكرم على اللّه أو داود عليه السلام ؟ إن اللّه تعالى جمع له بين الخلافة والنبوة ، ثم توعده في كتابه ، فقال : يا داوُدُ إِنَّا

جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى ، فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. الآية « ١ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- وصف اللّه تعالى داود عليه السلام بعشر صفات : هي كما تقدم الصبر ، والعبودية للّه ، والقوة في الدين ، وكونه أوابا كثير الرجوع إلى اللّه تعالى ، وتسبيح الجبال ، والطير مع تسبيحه وترنيمه ، وإتيان الطير طائعة له ، وتشديد ملكه في الدين والدنيا ، وإيتاؤه الحكمة (الفهم والعقل والفطنة والحكم بالصواب) وحسن الفصل في الخصومات.

٢- بمناسبة تسبيح الجبال معه بالعشي والإشراق ، أي في المساء والصباح ، ذكر القرطبي أن صلاة الضحى نافلة مستحبة ،

جاء في صحيح مسلم عن أبي ذرّ

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/ ٣٢

عن النبي ص أنه قال : « يصبح على كل سلامي « ١ » من أحدكم صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » .

و

أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ص : « من حافظ على شفعة الضحى ، غفر له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر » .

و

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : « أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت : صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وصلاة الضحى ، ونوم على وتر » .

وأقل الضحى كما في هذه الأحاديث وغيرها ركعتان ، وأكثره ثنتا عشرة ركعة.

٣- ذكر اللّه تعالى لداود بعد قصة المحاكمة عشر صفات منها سؤال المغفرة من ربه فغفر له ، ومنها السجود شكرا للّه والإنابة ، ومنها : وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ ومنها يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي

الْأَرْضِ. قال مجاهد عن عبد اللّه بن عمر : الزلفى : الدنو من اللّه عز وجل يوم القيامة.

٤- ليس الحاكم ملزما كل يوم بالاستعداد لفصل القضاء في الخصومات بين الناس ، وإنما له تخصيص أيام في الأسبوع لتلك المهمة الخطيرة.

٥- الفزع ظاهرة إنسانية في المفاجآت ، وقد فزع النبي داود عليه السلام من الرجلين اللذين أتياه ليلا في غير وقت دخول الخصوم ، أو لدخولهم عليه بغير إذنه ، أو لأنهم تسوروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب. وقد شاع بين بني إسرائيل قتل الأنبياء وإيذاؤهم.

---

(١) أصل السلامى : عظام الأصابع والأكفّ والأرجل ، ثم استعمل هنا في سائر عظام الجسد ومفاصله ، وهي كما في حديث آخر ثلاث مائة وستون مفصلا. [.....]

ج ٢٣ ، ص : ١٩٠

٦- إن القصة التي يرويها بعض المفسرين بما يتعارض مع مبدأ « عصمة الأنبياء » لا أصل لها ، ولا مستند عليها ، وإنما هي من الإسرائيليات الدخيلة.

٧- لم يكن خطأ داود عليه السلام في أنه قضى لأحد الخصمين قبل سماع كلام الآخر ، فهذا من أصول الحكم التي لا يمكن تجاوزها ، قال ابن العربي : وهذا مما لا يجوز عند أحد ، ولا في ملة من الملل ، ولا يمكن ذلك للبشر ، وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين ادّعى ، والآخر سلم في الدعوى ، فوقعت بعد ذلك الفتوى « ١ » . و

قد قال النبي ص لعلي رضي اللّه عنه فيما أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما : « إذا جلس إليك الخصمان ، فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر » .

٨- أجمع العلماء على أن الأنبياء معصومون عن الكبائر ، وفي الصغائر اختلاف ، الأصح كما قرر ابن العربي وغيره أنهم معصومون عن الصغائر والكبائر.

٩- استدل العلماء على مشروعية الشركة بأدلة ، منها : ما ورد على لسان داود عليه السلام : وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ أي الشركاء في المال كما تقدم.

١٠- الصلحاء في كل زمان قليلون ، لقوله تعالى : وَقَلِيلٌ ما هُمْ يعني الصالحين. سمع عمر رضي اللّه عنه رجلا يقول في دعائه : اللهم اجعلني من عبادك القليل ، فقال له عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال : أردت قول اللّه عز وجل :

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَقَلِيلٌ ما هُمْ فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر.

١١- اختلف العلماء في سجدة داود ، هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أو لا ؟ أي هل هي سجدة تلاوة ؟

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٤/ ١٦٢٥

ج ٢٣ ، ص : ١٩١

فقال المالكية والحنفية : ليست موضع سجود ، لما

في البخاري وغيره عن ابن عباس أنه قال : « ص ، ليست من عزائم القرآن ، وقد رأيت النبي ص يسجد فيها » .

وأنكر المالكية أيضا سجدة الشكر.

وقال الشافعية والحنابلة : إنها ليست من عزائم السجود ، بل هي سجدة شكر ، استدلالا بفعل النبي ص ، كما نص الحديث المتقدم ، و

روى النسائي أن النبي ص قال : « سجدها داود توبة ، ونحن نسجدها شكرا » .

١٢- ليس في استغفار داود ما يشعر بارتكاب ذنب أو أمر يستغفر منه ، وما زال الاستغفار شعار الأنبياء المشهود لهم بالعصمة.

(١٩١/٢٣)

١٣- الأصل في مشروعية الأقضية أو التقاضي قوله تعالى : يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وقوله : وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ [المائدة ٥/ ٤٩] وقوله تعالى : لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ [النساء ٤/ ١٠٥] وقوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ [النساء ٤/ ١٣٥].

١٤- إن قاعدة الحكم الأساسية الحكم بالعدل والحق : فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ومن قواعده : أن القاضي لا يحكم في الوقائع إلا بالدعوى ورفع الأمر إليه ، فيجب الحكم بالحق ، وألا يميل القاضي إلى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع ، أو سبب يقتضي الميل من صحبة أو صداقة أو غيرهما.

١٥- هذه الآية : يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ .. تمنع الحاكم من القضاء بعلمه الشخصي في الحوادث ، لأن الحكام لو مكّنوا أن يحكموا بعلمهم ، لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليّه (صديقه) ويهلك عدوه إلا ادعى علمه فيما حكم به. وبذلك يمنع من هذا القضاء للتهمة ، قال أبو بكر رضي اللّه عنه : لو رأيت رجلا على حدّ من حدود اللّه ، ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري.

ج ٢٣ ، ص : ١٩٢

و روي أن امرأة جاءت إلى عمر ، فقالت له : احكم لي على فلان بكذا ، فإنك تعلم ما لي عنده ، فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم ، وأما الحكم فلا.

و

أخرج أبو داود وغيره عن النبي ص أنه اشترى فرسا فجحده البائع ، فلم يحكم بعلمه ، وقال : « من يشهد لي ؟ » فقام خزيمة فشهد فحكم.

و

في صحيح مسلم عن ابن عباس : أن رسول اللّه ص قضى بيمين وشاهد.

إثبات البعث والثواب والعقاب وبيان فضل القرآن [سورة ص (٣٨) : الآيات ٢٧ الى ٢٩]

(١٩٢/٢٣)

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (٢٩)

الإعراب :

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا كتاب.

البلاغة :

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا .. الآية : مقابلة بين المؤمنين والمفسدين ، وبين المتقين والفجار ، وهذا من المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية :

باطِلًا عبثا ولعبا ذلِكَ أي خلق السماء والأرض باطلا ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مظنون كفار مكة فَوَيْلٌ هلاك وعذاب شديد ، أو هو واد في جهنم أَمْ بمعنى همزة الإنكار ، أي إنكار التسوية بين الفريقين أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا .. نزل لما قال كفار مكة للمؤمنين : إنا

ج ٢٣ ، ص : ١٩٣

نعطى في الآخرة مثلما تعطون. والآية تدل على صحة القول بالحشر والمعاد ، والفجار : الأشقياء مُبارَكٌ كثير الخير والبركات والمنافع الدنيوية والأخروية لِيَدَّبَّرُوا ليتدبروا أي ليتفكروا وينظروا في معاني الآيات ، فيؤمنوا وَلِيَتَذَكَّرَ يتعظ أُولُوا الْأَلْبابِ أصحاب العقول ، جمع لب : وهو العقل.

المناسبة :

بعد تهديد الضالين عن سبيل اللّه بالعذاب الشديد يوم الحساب في القيامة ، أخبر تعالى بأن هذا اليوم

آت لا ريب فيه ، لأنه خلق الخلق لهدف معين ، ثم يحاسبهم في نهاية الأمر ، ثم بيّن عدم المساواة في الحساب بين المؤمنين والكفار وبين المتقين والفجار ، ثم أخبر عن فضل القرآن العظيم ، وأنه كثير المنافع الدينية والدنيوية.

التفسير والبيان :

(١٩٣/٢٣)

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا أي ما أوجدنا السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات عبثا لا حكمة فيه ، أو لهوا ولعبا ، بل خلقناهما للدلالة على قدرتنا العظيمة ، وليعمل فيهما بطاعتنا وعبادتنا وتوحيدنا ، كما قال تعالى :

وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات ٥١/ ٥٦].

ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أي إن الذين كفروا يظنون أن هذه الأشياء خلقت عبثا لغير غرض ، فلا قيامة ولا حساب ، فيا هلاك هؤلاء الكافرين في النار يوم المعاد والنشور ، جزاء ما قدموا من الشرك والمعصية ، وكفران نعم اللّه ، وإنكار البعث ، وظنهم الباطل. ونظير القسم الأول من الآية قوله تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ [المؤمنون ٢٣/ ١١٥].

ج ٢٣ ، ص : ١٩٤

و نظير القسم الثاني قوله سبحانه : وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ [إبراهيم ١٤/ ٢] وقوله عز وجل : فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ [مريم ١٩/ ٣٧].

ثم أبان اللّه تعالى منهج الحساب أو عدم التسوية بين المؤمنين والكافرين ، فقال : أَمْ « ١ » نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ أي بل أنجعل الذين آمنوا باللّه وصدقوا رسله ، وعملوا بفرائضه ، وأصلحوا أعمالهم ، فأدّوا ما يجب للخالق والمخلوق ، كالمفسدين في الأرض بالمعاصي ، أم نجعل أتقياء المؤمنين كأشقياء الكافرين والمنافقين والمنهمكين في معاصي اللّه من المسلمين ؟ !! فليس ذلك إن فعلناه عدلا ، ولا يتفق مع الحكمة ، ومقتضى أي نظام.

(١٩٤/٢٣)

أي ليس من عدل اللّه وحكمته التسوية بين المؤمنين والكافرين ، فلا يستوي الفريقان عند اللّه ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بدّ من دار أخرى يثاب فيها المطيع ، ويعاقب فيها الفاجر ، إذ لو لا البعث

والحساب والجزاء لكان الفريقان سواء.

ويؤيد هذا المبدأ العقول السليمة والفطر المستقيمة أنه لا بد من معاد وجزاء ، فلا يعقل أن يكون جزاء المحسن كجزاء المسي ، ولا تتقبل النفس الإنسانية أن يترك الظالم دون عقاب ، وألا ينصف المظلوم أو المحزون أو المعدم من الظالم الباغي المترف ، وألا يعوض عن كمده وحرمانه في الدنيا.

ونظير الآية قوله تعالى : إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ ! [القلم ٦٨/ ٣٤- ٣٦].

---

(١) هذه أَمْ المنقطعة التي هي بمعنى « بل » للإضراب الانتقالي ، ويراد بالهمزة الاستفهامية : الإنكار.

و إذا ثبت قرآنا ودينا وعقلا وفطرة أن هنالك فرقا واضحا بين المؤمن وغيره ، وأن للمؤمن حياة سعيدة دائمة في الجنان ، وأن للكافر عذابا أليما في النيران ، فما الطريق إلى السعادة ؟ الطريق قوله تعالى : كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ أي إن طريق السعادة الأبدية هو اتباع القرآن الذي أنزله اللّه هدى ورحمة للمؤمنين ، وهو كثير الخير والبركة ، فيه الشفاء لمن تمسك به ، والنجاة لمن تبعه ، وقد أنزله تعالى للناس للتدبر والتفكر في معانيه ، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر ، وليتعظ أهل العقول الراجحة به وببيانه. قال الحسن البصري : واللّه ما تدّبره بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : قرأت القرآن كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- ليس خلق السموات والأرض عبثا وهزلا ولعبا ، وإنما له غاية عظمي وهدف صحيح وهو الدلالة على قدرة اللّه. والذين يظنون أن اللّه خلقهما باطلا عبثا هم الكفار ، فيا ويلهم من عذاب النار.

٢- تدل هذه الآية : وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ .. على إثبات الحشر والنشر والمعاد (أو القيامة) لأنه إذا لم يكن خلقهما باطلا ، كان القول بالحشر والنشر لازما ، وكان كل من أنكر القول بالحشر والنشر شاكّا في حكمة اللّه في خلق السماء والأرض.

٣- إذا لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدنى من حال العاصي ، لذا وبّخ تعالى الشاكين في الحشر والنشر ، وأنكر عدم التسوية بين المؤمن والكافر ، وبين الصالح والمفسد.

ج ٢٣ ، ص : ١٩٦

٤- الآية هذه : أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ رد واضح على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد.

٥- قوله تعالى : كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن ، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذّ (سرعة القراءة) ، إذ لا يصح التدبر مع الهذّ. وقال الحسن البصري : تدبر آيات اللّه اتباعها.

٦- القرآن الكريم ذكرى وعظة لأولي الألباب ، أي أصحاب العقول الراجحة ، فالعاقل هو المستفيد من آي القرآن ، والقرآن هو الذي يذكره بضرورة التوبة والإنابة إلى اللّه إذا زاغ أو انحرف.

قصة سليمان عليه السلام [سورة ص (٣٨) : الآيات ٣٠ الى ٤٠]

وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (٣(١) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (٣(٢) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (٣(٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (٣٤)

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (٣٦) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٣٨) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٩)

وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠)

ج ٢٣ ، ص : ١٩٧

الإعراب :

نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ المقصود بالمدح محذوف ، وهو سليمان أو داود ، وهو إلى سليمان أقرب.

الصَّافِناتُ الْجِيادُ الأول نائب فاعل عُرِضَ والثاني صفته ، والْجِيادُ : جمع جواد ، أو جمع جائد.

حُبَّ الْخَيْرِ منصوب على أنه مفعول به ، والمعنى : أنه آثر حب الخير ، لا أنه أحبّ حبّا ، أو منصوب على المصدر ، بوضع حُبَّ الاسم موضع الاحباب الذي هو المصدر ، والوجه الأول أوجه.

حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ أي الشمس ، وإنما أضمر لدلالة الحال ، مثل كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ [الرحمن ٥٥/ ٢٦] أي الأرض ، لدلالة الحال ، وإن لم يجر لها ذكر.

البلاغة :

فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ المسح هنا حقيقة أي مسحها بيده استحسانا لها وإعجابا بها ، وقيل :

المسح كناية عن العقر والذبح.
فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بينهما طباق ، لأنهما بمعنى أعط من شئت ، وامنع من شئت.
المفردات اللغوية :

(١٩٧/٢٣)

نِعْمَ الْعَبْدُ سليمان ، إذ ما بعده تعليل للمدح وهو أواب أَوَّابٌ رجّاع إلى اللّه بالتسبيح والذكر في جميع الأوقات ، أو بالتوبة بِالْعَشِيِّ ما بعد الزوال عُرِضَ عَلَيْهِ على سليمان الصَّافِناتُ القائمات ، أو القائمة على ثلاث وطرف الحافر الرابع ، أي يرفع إحدى يديه أو رجليه ، ويقف على مقدم حافرها ، مع القوائم الأخرى ، وهو من الصفات المحمودة في الخيل ، لا يكاد يكون إلا في العرب الخلّص ، مأخوذ من صفن يصفن صفونا. الْجِيادُ جمع جواد ، وهو الذي يسرع في عدوه أو جريه ، والجواد من الناس : السريع البذل. والمعنى : أن الخيول إذا استوقفت سكنت ، وإن ركضت سبقت ، وكانت ألف فرس عرضت عليه ، كالعرض العسكري اليوم.
أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ أي آثرت أو أردت حب الخير وهو هنا الخيل ، وأصل الخير : المال الكثير ، ويحتمل أنه سماها خيرا لتعلق الخير بها ،
قال ص فيما أخرجه أحمد عن جابر : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .
ج ٢٣ ، ص : ١٩٨
عَنْ ذِكْرِ رَبِّي أي أحببت الخيل وحصل حبها عن ذكر ربي وأمره ، لا عن الشهوة والهوى. وليس المراد كما يذكر القصاصون : أنه آثر رؤية الخيل عن صلاة العصر حتى غابت الشمس تَوارَتْ بِالْحِجابِ اختفت وغابت الشمس ، واستترت بما يحجبها عن الأبصار. والحجاب :
بالحاجز أو بالليل.

(١٩٨/٢٣)

رُدُّوها عَلَيَّ ردوا الخيل الصافنات علي استمتاعا بالنعمة ، أي كفاها ركضا وعدوا فَطَفِقَ مَسْحاً شرع يمسحها بيده استحسانا لها وإعجابا بها ، وليس المعنى : جعل يذبحها ويعقرها بالسيف لتفويت صلاة العصر عليه ، فهذا لا يليق بالنبوة. بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ أي بسيقانها وأعناقها ، فيربّت عليها ويدللها ويمسح نواصيها بيده ، لا أنه ذبحها وعرقب أرجلها تقربا إلى اللّه تعالى ، حيث اشتغل بها عن الصلاة ، وتصدق بلحمها ، فعوضه اللّه خيرا منها وأسرع ، وهي الريح تجري بأمره كيف شاء ، فهذا من

الإسرائيليات الدخيلة.

فَتَنَّا سُلَيْمانَ ابتليناه واختبرناه بمرض ، وقال البيضاوي : وأظهر ما قيل فيه : ما روي مرفوعا أنه قال : « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل اللّه ، ولم يقل : إن شاء اللّه ، فطاف عليهن ، فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل ، فو الذي نفس محمد بيده ، لو قال : إن شاء اللّه لجاهدوا فرسانا » « ١ » .

ومن الإسرائيليات في تفسير الابتلاء : أن اللّه ابتلاه بسلب ملكه ، وذلك لتزوجه بامرأة عشقها ، وكانت تعبد الصنم في دار من غير علمه ، وكان ملكه في خاتمه ، فنزعه مرة عند إرادة الخلاء ووضعه عند امرأته المسماة بالأمينة ، على عادته ، فجاءها جنّي في صورة سليمان ، فأخذه منها.

وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً أي جسما ضعيفا كأنه جسد بلا روح ، وقيل : الجسد : هو نصف الإنسان الذي ولدته امرأته ، وقيل : هو ذلك الجني ، وهو صخر أو غيره ، جلس على كرسي سليمان ، وعكفت عليه الطير وغيرها ، فخرج سليمان في غير هيئته ، فرآه على كرسيه ، وقال للناس : أنا سليمان ، فأنكروه. وهذان التفسيران المقولان غير صحيحين في الظاهر والثاني منهما من تتمة القصة الدخيلة من الإسرائيليات.

(١٩٩/٢٣)

ثُمَّ أَنابَ رجع تائبا إلى اللّه من ترك الأفضل وهو عدم تعليق الأمر بمشيئة اللّه ، وهذا عظيم على نبي ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين قالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي ما صدر عني من الذنب وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي أي امنحني ملكا لا يكون لأحد من بعدي أن يملك مثله.

---

(١) أخرجه البخاري ، دون أن يذكر أنه تفسير للآية.

فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ جعلناها منقادة لأمره رُخاءً لينة مع قوتها وشدتها ، فلا تزعزع ولا تعصف حَيْثُ أَصابَ قصد وأراد وَالشَّياطِينَ أي وسخرنا له الشياطين كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ أي يبنون له ما يشاء من المباني ، ويغوصون في البحر لاستخراج الدر واللؤلؤ منه وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ أي وآخرين منهم مشدودين في القيود والسلاسل ، وهم مردة الشياطين.

هذا عَطاؤُنا أي هذا ما أعطيناك من الملك العظيم الذي طلبته ، من السيطرة على الريح والشياطين وتسخيرهم فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ فأعط من شئت ، وامنع من شئت بِغَيْرِ حِسابٍ لا حساب عليك في ذلك الإعطاء أو الإمساك ، فلا يقال لك : كم أعطيت ولم منعت ؟

لَزُلْفى قربة في الآخرة وَحُسْنَ مَآبٍ وحسن مرجع ، وهو الجنة.

المناسبة :

هذه هي القصة الثانية- قصة سليمان بن داود عليهما السلام ، فيها تعداد النعم التي أنعم اللّه بها على سليمان ، كما أنعم على أبيه داود من قبل ، ليشكر المحسن ، ويتعظ المسيء الذي يرى في قصتي داود وسليمان عظة وعبرة ، فإنهما ملكا ملكا عظيما ، لم يحجبهما عن شكر اللّه ، وعبادته وطاعته ، وتقدير نعمه الكثيرة ، فأين ملكهما من زعامة قريش وأمثالهم ؟ !.

التفسير والبيان :

وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ أي وآتينا داود ابنا نبيا ، كما قال عز وجل : وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ [النمل ٢٧/ ١٦] وإلا فقد كان له بنون غيره ، وهذا الابن ما أحقّه بالمدح والثناء ، فهو نعم العبد ، لأنه توّاب رجّاع إلى اللّه ، كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى اللّه عز وجل في أكثر الأوقات.

روى ابن أبي حاتم عن مكحول قال : لما وهب اللّه تعالى لداود سليمان قال له : يا بني ما أحسن ؟ قال : سكينة اللّه والإيمان ، قال : فما أقبح ؟ قال : كفر بعد إيمان ، قال : فما أحلى ؟ قال : روح اللّه بين عباده- أي رحمته- قال : فما

أبرد ؟ قال : عفو اللّه عن الناس ، وعفو الناس بعضهم عن بعض ، قال داود عليه السلام : فأنت نبي.

ثم ذكر اللّه واقعتين لسليمان من وقائع توبته فقال :

الواقعة الأولى :

قصة عرض الخيل : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ أي اذكر أيها الرسول مادحا حين عرض على سليمان عليه السلام في مملكته وسلطانه بعد العصر آخر النهار الخيول الصافنات (أي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة) والجياد : السراع في العدو ، لينظر إليها ويتعرف أحوالها ومدى صلاحيتها لمهامها ، وليستمتع بما أنعم اللّه عليه منها.

فَقالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ، حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ أي قال سليمان : إنني أحببت هذه الخيل وآثرتها عن غيرها حبا حصل عن ذكر ربي وأمره ، لا بهواي وشغفي ، وكانت ذات أعداد كثيرة ، تعدو حتى غابت عني بسبب الغبار وبعد المسافة. وبه يتبين أن حبه لها لم يكن إلا امتثالا لأمر اللّه بربط الخيل للجهاد في سبيل اللّه ، وتقوية دينه ، وتثبيت دعائمه ، وقد كان ذلك مندوبا إليه في دينهم.

هذا هو التفسير المتعين الذي يتفق مع مركز النبوة وشرف الرسالة ودلالة الحال في تعداد النعم لا النقم على سليمان ، فلا يصح التفسير بشيء يتنافى مع هذا ، لا سيما وقد أمر اللّه تعالى نبينا ص أن يتأسى بداود وسليمان ، كما في مطلع الآيات. واصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ ، وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ...

ثم أعاد سليمان عرض الصافنات أمامه قائلا :

رُدُّوها عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ أي أعيدوا هذه الخيل

ج ٢٣ ، ص : ٢٠١

إلي ، فلما عادت جعل يمسح بيده سيقانها وأعناقها ونواصيها ، تشريفا لها وتكريما وتدليلا وسرورا بها ، وتفحصا لأحوالها وإصلاح ما قد يطلع عليه من عيوبها ، لأنها عدة الجهاد ، ووسيلة الحرب ، لرد العدوان ، ودفع غارات المعتدين. وقال أكثر المفسرين : معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها ، أي قطعها ، لأنها شغلته عن صلاة العصر. وهذا بعيد على نبي شاكر نعم ربه ، يعاقب ما ليس أهلا للعقاب.

الواقعة الثانية :

إلقاؤه جسدا على كرسيه : وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ ، وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ أي تاللّه لقد اختبرنا سليمان عليه السلام باختبار آخر ، وهو الفتنة في جسده ، كما اختار الرازي ، حيث ابتلاه اللّه بمرض شديد في جسمه ، حتى نحل جسمه ، وأصبح هزيلا ، ثم أناب ، أي رجع إلى حال الصحة « ١ » .

وبعض المفسرين كما ذكرت عن البيضاوي وكذا أبو حيان « ٢ » يفسر هذه الفتنة بما عزم عليه من الطواف على سبعين من نسائه ، تأتي كل واحدة بفارس مجاهد في سبيل اللّه ، دون أن يقول : إن شاء اللّه ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، هو الذي ألقي على جسده ، فالجسد الملقى هو المولود شق رجل.

وقيل : إن الملقى شيطان ، وهذا قول باطل من الزنادقة. قال ابن كثير :

وهذا وغيره من الإسرائيليات ، وهي من المنكرات ، من أشدها ذكر النساء « ٣ » .

(١) تفسير الرازي : ٢٦/ ٢٠٩

(٢) البحر المحيط : ٧/ ٣٩٧

(٣) تفسير ابن كثير : ٤/ ٣٥ وما بعدها.

ج ٢٣ ، ص : ٢٠٢

قالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي قال سليمان : ربّ اغفر لي ما صدر عني من الذنب الذي ابتليتني لأجله ، وهذا من سمو الإحساس بالخطيئة ، فقد تكون شيئا لا يخلو عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأن الأنبياء أبدا في مقام هضم النفس ، وإظهار الذلة والخضوع ، كما

قال ص فيما رواه البخاري عن أبي هريرة : « و اللّه إني لأستغفر اللّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ وامنحني ملكا عظيما لا يتأتى لأحد غيره مثله ، إنك يا ربّ أنت الكثير الهبات والعطايا ، فأجب دعائي.

قال الزمخشري : كان سليمان عليه السلام ناشئا في بيت الملك والنبوة ، ووارثا لهما ، فأراد أن يطلب من ربّه معجزة ، فطلب بحسب إلفه ملكا زائدا على الممالك ، زيادة خارقة للعادة ، بالغة حدّ الإعجاز ، ليكون ذلك دليلا على نبوته ، قاهرا للمبعوث إليهم ، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات ، فذلك معنى قوله : لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي.

وقيل : كان ملكا عظيما ، فخاف أن يعطى مثله أحد ، فلا يحافظ على حدود اللّه فيه « ١ » .

فأجاب اللّه تعالى دعاءه وأعطاه نعما خمسة ، فقال :